أنور الجندى

الدعوة الإسلامية في عصر الصحوة

قضايا السياسة والاجتماع والاقتصاد

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير
الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:
دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع
الدحماني عبد الكريم
35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39





مُستقبل الإسلام في ضوء الحقائق الثابتة التي يقوم عليها كيان الأمة الإسلامية

١٤٠٠ مليون مسلم عام ٢٠٠٠ حيث العالم ٦ مليارات

يتحدث كُتّاب الغرب عن « علم دراسة المستقبل » ويحاولون أن يقيسوا حركة الإسلام المتجددة اليوم تحت اسم (الصحوة) على هذه المقاييس .

والواقع أن الإسلام لم يتوقف عن النماء والتجديد وتصحيح المواقف وقد كشفت التقديرات التى تقوم بها قوى الإحصاء العالمية على أن عدد المسلمين فى عام ٢٠٠٠ ميلادية يصبح ١٤٠٠ مليون مسلم حيث يصبح سكان العالم ٦ مليارات .

وإن من راجع تاريخ الإسلام وواقع الأمة الإسلامية خلال هذه المرحلة التى بدأت بالحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى اليوم يستطيع أن يتحدث عن مستقبل الإسلام فى صدق وأمانة كاملة بما يؤكد أن المستقبل للإسلام .

ولقد كان أعظم عطاء الإسلام فى هذه المرحلة : تلك القدرة القادرة على استعادة المسلمين إلى الإسلام بعد أن قذفت بهم متغيرات الأمم والعصور والحضارات وقد جاء ذلك بناء على التكوين النفسى والروحى الذى صنعه الإسلام بالعقول والقلوب على نحو يرى فيه المسلم أن أعظم معطيات الحضارات والثقافات لا يستطيع أن يرتفع إلى تكامل الإسلام وتوازنه وقدرته على العطاء فى مختلف العصور والبيئات ، ولقد جاء ذلك كله تحت عنوان واضح : هو حديث رسول الله ﷺ : « **إن الله يرسل لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها** » .

وقد تواترت هذه الحقيقة حتى اليوم دون توقف ولقد كشفت الأبحاث التاريخية الصحيحة : أن الحملة الفرنسية التى ساقها الغرب عام ١٧٩٨ م إنما كانت تقصد الأزهر الشريف وذلك بناء على تقارير وصلت إلى الغرب من سفرائه وخبرائه وقناصله ، بأن نهضة

جديدة (بعد عصر ابن تيمية وابن القيم) تتنامى بين جوانب هذا الصرح العظيم حين ظهر مجددون فى الفقه واللغة من أمثال : الزبيدى والبغدادى والجبرتى الكبير (فى مصر) والشوكانى ومحمد بن عبد الوهاب فى الأفق الإسلامى بعامة .

ومن هنا كانت الحملة التى أرادت أن تقتحم هذا المعقل الإسلامى (حين دخلت الخيل الأزهر) وتقض هذا التجمع ومن يومها بدأت حركة اليقظة الإسلامية التى تنامت بعد سقوط الخلافة وتمزق الدولة العثمانية وظهر على مدارجها جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا .

وكان هذا بمثابة علامة فارقة على مستقبل الإسلام الذى اتسع نطاقه ونما فى أقطار لم تكن تعرفه حيث ظهرت الدعوتان اللتان وسعتا إفريقيا وهما السنوسية والمهدية اللتان تنامى الإسلام على أيديهما فى قلب إفريقيا .

وكانت قدرة الإسلام القادرة على ابتعاث المصلحين والمجاهدين الذين وقفوا فى وجه الاحتلال الغربى والاستعمار الأوربى حتى شهد بذلك كبار كُتَّاب الغرب الذين أكدوا أن الإسلام كان من وراء حركة المقاومة فى وجه الاستعمار على نحو عرف فيه الغرب أن ليس فى وسعه السيطرة على هذه البلاد التى تدين بالإسلام بالرغم من كل المحاولات التى قام بها فى سبيل حجب الشريعة الإسلامية وتقليص اللغة العربية : لغة القرآن .

وإذا كان الغرب قد فرض على المجتمعات الإسلامية قانونه الوضعى وحجب الشريعة الإسلامية وفتح أبواب الربا بمصارفه المسيطرة على الاقتصاد الإسلامى فإن المسلمين الذين شكلهم الإسلام لم يستسلموا إلى مفاهيم الغرب الوافدة التى تعمل على أن يكون الإسلام دينا عباديا قاصراً على جوانب المسجد والمولد النبوى ، دون أن يكون له شأن فى تشكيل المجتمعات اقتصاديا وسياسياً وتربوياً .

وكانت المرحلة الثانية من حركة التجديد الإسلامى هى :

إقرار مفهوم أن الإسلام دين ونظام مجتمع وأنه ليس قاصراً على العبادة واللاهوت على النحو الذى يعرفه الغرب فى المسيحية فالإسلام يختلف عن ذلك تماماً .

ومن هنا ظهرت مقاومة المسلمين للمفاهيم الغربية الوافدة وإرساء مفاهيم الإسلام الصحيحة وكشف أخطاء الحضارة الغربية وفساد المنهج الغربى الوافد .

ثم جاءت المرحلة الحاضرة : مرحلة الصحوة لتكشف الحقيقة التى لم يعد هناك سبيل إلى تجاوزها وهى : أن المنهج الإسلامى وحده هو القادر على تحقيق الأصالة وامتلاك الإرادة وإقامة منهج الله وشريعته على المجتمع الإسلامى والامتداد به لتبليغه للبشرية كلها وقد تكشف عجز الأيدلوجيات الشرقية والغربية ـ التى وفدت عالم الإسلام ـ عن العطاء .

هذه المرحلة التى يمكن أن تسمى : « أسلمة المناهج وتأصيل القيم والخروج من التبعية » وأبرز معالمها : تقديم بدائل الأيدلوجيات التى عجزت عن العطاء خلال أكثر من قرن كامل منذ أن فرضت على المجتمعات الإسلامية حين غرزت القانون الوضعى وحجبت الشريعة الإسلامية فاستطاعت كل الدلائل والأبحاث والمعطيات أن تكشف الحقيقة التى لا سبيل إلى تجاوزها وهى : تراجع الحضارة الغربية وعجز الثقافة الغربية أن تعطى للأمم أو أن تكون منهجاً عالمياً على النحو الذى يدَّعونه وإنما هى قد عجزت وتراجعت أساسا فى مسقط رأسها : فى الغرب نفسه حين سقطت الشيوعية وتكشف فساد الدارونية والفرويدية والوجودية ومنهج العلوم الإنسانية والاجتماعية الذى قاده دوركايم وجماعته .

لم يعد هناك شك فى عجز هذه المناهج واضطرابها وللغرب أن يفعل ما يشاء ، أما نحن المسلمين فإن لنا منهجنا الأصيل الذى حجبته ظلمات السيطرة الغربية ولن تكون عودتنا إليه هى ردة أو تمسك بالقديم أو إعلاء للتراث فنحن نعرف أن منهجنا الإسلامى هو منهج ربانى أصيل جامع مرن يختلف عن الأيدلوجيات البشرية الوضعية وليس هو التراث الذى كتبه العلماء على مدى العصور : هذا التراث الذى يتغير ويختلف ولكننا نمضى فى أصالة لالتماس المنهج الأصيل للإسلام المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية وهو الذى رسم لنا عملية التجديد والاجتهاد والتعامل مع متغيرات العصور والبيئات والتحرك فى دائرتين هما دائرة الثبات ودائرة المتغيرات .

وهكذا نحن نمضى على الطريق إلى المستقبل بثقة وإيمان فالغرب يعلن تراجع مناهجه ، وعلماء أجلاء يتطلعون إلى الإسلام كمنقذ فعلينا أن نقدم الإسلام للعالم كله كمنهج حياة ونظام مجتمع دون أن نفرضه على أحد ، ولكننا نطبقه أولاً على مجتمعنا وتكفيه شهادة علماء الغرب فى مجال القانون وفى مجال الحضارة وفى مجال الإعجاز الطبى والعلمى بما يكشف حقيقة العطاء الأصيل الذى تتطلع إليه البشرية ولا ترى له مصدراً غير الإسلام ـ والواقع اليوم : أن هناك قوة إسلامية حقيقية : هى الثروة والطاقة

والتقدم والنماء البشرى ، هذا فضلا عن امتلاك أكبر مصادر البحرية العالمية من البواغيز والخلجان .

وهى قوى من شأنها حين يمتلكها المسلمون أن تغير مسيرة التاريخ الإنسانى والعالمى خلال أقل من مائة عام فعلى المسلمين تأصيل وجهة هذه الثروة .

وإن هناك صحوة إسلامية حقيقية تواجه بمؤامرات من الداخل والخارج رغبة فى إجهاضها قبل أن تستوفى نضجها الحقيقى ولابد من حمايتها وهناك واقع واضح حين غاضت الأرحام فى الغرب وتعالت صيحة الفساد الخلقى والمخدرات والخمر فى المجتمعات التى وصلت غاية الغنى والترف أما من ناحية الأيدلوجيات فقد :

١ ـ سقط الفكر الماركسى فى بلاده وفى كل بلد اعتنقه .

٢ ـ وكذلك سقط الفكر القومى الوافد .

٣ ـ وسقطت العنصرية .

٤ ـ وسقطت العلمانية فى بلاد الإسلام .

وقدم الإسلام مفاهيم جديدة تربط القوميات والوطنيات بالعقيدة الإسلامية كما قدم المسلمون مفهوما جامعا بين الدين والمجتمع .

كذلك فإن كل الانتصارات التى حققها الغرب والفكر الغربى الحديث إنما جاءت بعد خمسة عشر قرنا من نزول القرآن وظهور الإسلام .

وقد استطاع الإسلام أن يحققها مجتمعة عن طريق الإيمان بالله تبارك وتعالى الواحد الأحد أما الغرب فقد حققها مجتمعة بعد معارك دامية .

١ ـ نظرية حقوق الإنسان .

٢ ـ إلغاء الرق وتجارة العبيد .

٣ ـ إلغاء تفوق العناصر .

٤ ـ إعطاء المرأة حقوقها .

٥ ـ إعلان أنه لا إكراه فى الدين .

٦ ـ حقوق الأقليات .

فإذا أردنا أن نراجع خطوات الإسلام إلى المستقبل فإننا نجد الخريطة التالية :

أولاً : اتساع نطاق الإسلام بالرغم من حركة الاحتلال الغربى إلى مناطق لم يدخلها الإسلام من قبل .

ثانياً : القدرة على الثبات فى وجه الأحداث والمقاومة للنفوذ الأجنبى على نحو لم يكن يتصوره الغرب .

ثالثاً : بعد سقوط الخلافة تجمع المسلمون من جديد تحت لواءات مختلفة وجرت دراسة لإقامة بدائل .

رابعاً : بالرغم من قيام رأس جسر صهيونى فى قلب الأمة الإسلامية فقد واجهت هذه الحملة معارضة شديدة ومقاومة لم تتوقف وأحس النفوذ الصهيونى بصمود المسلمين والعرب إزاء حقد اليهود وخطتهم فى محاولة اجتياح أرض الإسلام .

خامساً : تجددت الدعوة إلى الجهاد والاحتشاد فى الثغور .

سادساً : تجددت الدعوة إلى فهم الإسلام على أصوله الحقيقية بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وقام العلماء على مدى أكثر من خمسين عاماً بتقنين الشريعة وحملت دساتير البلاد العربية والإسلامية مفهوم دين الدولة الإسلام والشريعة مصدر الحكم .

سابعاً : مقاومة الشيوعية مقاومة عامة فى أفغانستان فى حرب استمرت عشر سنوات أسقطت الشيوعية نفسها فى بلادها وأسقطت الفكر الشيوعى حتى سقط تماما فأخلى الطريق أمامه للدين ليأخذ مكانه .

ثامناً : وهنت معالم الحضارة الغربية ومناهجها سواء منها العلمانية أو الليبرالية أو الماركسية أو الرأسمالية بما كشف عن عجز هذه المناهج عن العطاء .

تاسعاً : كانت تجربة البلاد العربية والإسلامية لمفاهيم الفكر الغربى سواء فى أيدلوجية الرأسمالية أو الماركسية قد كشفت عن رفض الجسد الإسلامى للعضو الغريب وقد أثبتت التجربة عجز الرأسمالية والشيوعية جميعاً عن أن تجد لها مكاناً فى بلاد الإسلام .

***

وبالجملة فإن هناك عدة حقائق لابد من تقديرها من أجل إلقاء الضوء على مستقبل الإسلام .

أهم هذه الحقائق أن الحضارة الغربية ستكشف عن قصور فى العطاء الإنسانى وستعلن البشرية حاجتها إلى الإسلام لتحقيق الأمن النفسى والعطاء القائم على العدل والرحمة والإخاء البشرى .

وسوف يتبين بالأدلة والبراهين حقيقة الدور الذى قام به الإسلام فى بناء الحضارة الإنسانية وبناء منهج العلم التجريبى .

وسيتبين صدق العطاء القرآنى من خلال الحقائق العلمية التى تتوالى والتى تكشف عن أن القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً قد كشف عن أسرار خلق الأرض والإنسان والكون كله قبل أن يتاح ذلك لعلماء العصر .

كما ستتكشف حقيقة تنامى السكان فى محيط الإسلام وقصوره وتخلفه فى محيط الغرب .

كما سيتبين عجز الأيدلوجيات عن العطاء وفشلها فى تحقيق الأمن والأمان والسلام الاجتماعى للبشرية التى لن يتحقق لها ذلك إلا من خلال منهج الله تبارك وتعالى القادر على إخراجهم من الأزمات المحاصرة .

وأخيراً ستسقط كل الدعوات الهدامة والمناهج البشرية التى قامت على محاربة منهج الله تبارك وتعالى وسوف تعجز جميعها عن امتلاك القدرة على السيطرة أو الحركة .

* * *

آفاق البحث

مدخل سياسى :

أولاً : حركة الدعوة الإسلامية وتطورها فى مرحلة الصحوة .

ثانياً : المسلمون فى العالم المعاصر .

ثالثاً : المسلمون فى مواجهة تحديات الماركسية والقومية والعلمانية .

رابعاً : النفوذ الأجنبى خلال مائة سنة .

الباب الأول : تصحيح مفهوم الإسلام وإقامته على منهج أهل السنة والجماعة :

الفصل الأول : القرآن الكريم .

الفصل الثانى : اللغة العربية والقرآن الكريم .

الفصل الثالث : حجية السنة .

الفصل الرابع : الشريعة الإسلامية .

الفصل الخامس : الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى .

الفصل السادس : اختلاف وجهات النظر بين الإسلام والفكر الغربى .

الباب الثانى : تأصيل الفكر الإسلامى وأسلمة مناهجه :

الفصل الأول : التغريب والغزو الثقافى .

الفصل الثانى : مؤامرة التبشير والاستشراق .

الفصل الثالث : انكشاف وجهة الاستشراق فى تدمير الفكر الإسلامى .

الفصل الرابع : الغرب يستيقظ على الإسلام .

الفصل الخامس : ترشيد الصحوة ـ اللغة والتاريخ والتراث .

الفصل السادس : أسلمة العلوم .

* * *

مدخل سياسى

أولاً : حركة الدعوة الإسلامية وتطورها فى مرحلة الصحوة

الإسلام دين عالمى : وهو كلمة الله تبارك وتعالى الأخيرة التى شملت الدنيا بأسرها ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ [سورة الفرقان : الآية ١] .

وقد جاء الإسلام دعوة الله الربانية الشاملة للناس كافة وهو بهذا يختلف عن الدعوات والرسالات السماوية السابقة وعما جاء به النبيون وإن كان من نفس المصدر من خلال كلمة التوحيد الخالص ، يختلف فى منهجه ، ذلك أنه كلمة الله تبارك وتعالى الأخيرة وأن رسوله خاتم الأنبياء وأن دستوره السماوى هو القرآن خاتم رسالات السماء فقد أرسل كل نبى إلى أمته وأرسل محمد ﷺ إلى الناس كافة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ . [سورة المائدة : الآية ٣] .

هذا الدين الخاتم يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهو غالب غير مغلوب ، وإن بدا أنه يمر فى عصرنا هذا بمرحلة امتحان لأهله ليكشفوا عن جوهر إيمانهم وصمودهم فى وجه الأحداث ﴿ **إذا لقيتم فئة فاثبتوا** ﴾ [الأنفال : ٤٥]ولابد أن تمر الدعوات بمراحل الضعف والامتحان حتى يستوى عودها وهى فى هذا تتطلب الصبر والثبات والتزام منهج الله الحق وهو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة دون تعجل فى قطف الثمار أو الاندفاع لتحقيق الهدف الشريف بالوسائل غير الحقة ومن هنا فليتأكد أهل الإسلام أنهم على طريق الحق وأن مصيرهم إلى النصر المؤزر مهما طال زمن الامتحان وذلك وفق سنن الله تبارك وتعالى الثابتة التى لا تختلف مع الأنبياء ومع الدعاة ﴿ **حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا** ﴾ . [سورة يوسف : الآية ١١٠] .

ومن ثم فلن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تغلبه أو تقضى عليه وإنما يتداول أهله الأمر وفقا لسنن الله تبارك وتعالى فى قيام الأمم والحضارات وسقوطها .

وما لم يحفظه أهله ويقوموا بأمره اليوم فسوف يستبدل الله تبارك وتعالى بهم قوما غيرهم يحبهم ويحبونه ولن يكونوا أمثالهم .

إن ما يواجه الإسلام فى هذه المرحلة من العقد الثالث من القرن الخامس عشر مرحلة خطيرة متميزة عن المراحل السابقة . بأنها أشد ضراوة فى حرب الإسلام وفى التآمر عليه وفى العمل للحيلولة بينه وبين تخطى العقبات .

فهذه المؤامرات ممتدة ولم تتوقف ، بعد أن سقطت سابقاتها وتكشف زيفها وعجزها عن النيل من الحق الإلهى المنزل وهى اليوم تأخذ طابعاً جديداً أشد قسوة وإن كان لم يمر زمن على المسلمين خاصة هذا العصر الحديث منذ حملة نابليون وسقوط الخلافة دون أزمة أو أزمات .

وقد عرف المسلمون منذ وقت بعيد أنهم محاصرون وأن عليهم أن يثبتوا فى أماكنهم فإن لم يستطيعوا أن يتقدموا فلا أقل من الصمود بالثبات فى مواقعهم .

إن الصورة أمس واليوم أشبه بالإعصار الخطير الذى يحاول أن يحاصر الإسلام وعلى المسلمين أن يستجيبوا لنداء المواجهة بالمعاونة ، بالصمود ، بالتحرر من قيود المادة وقيود الإخلاد إلى الأرض والتقدم إلى بيع النفس خالصة فى سبيل الله إقراراً لحق الله تبارك وتعالى فى سبيل الدفاع عن الحق .

إن الصورة فى مجملها ليست مظلمة تماماً ولكنها فى بعض أطرافها تذخر بالصفاء ، فما يزال الإسلام يزحف فى قوة ويحتل أماكن جديدة ويتمدد ويزداد كل يوم قوة وعدداً وما تزال أسماء جديدة تتقدم لتعتنقه وتدافع عنه وتضيف إلى الأبرار أسماء جديدة وقوى جديدة .

إن الذين يظنون أنهم قادرون على حصار الإسلام وإذابته فى بوتقة الحضارة المنهارة مخدوعون فلن ينهزم الحق أبداً ولكن سينهزم الذين لا يثبتون فى مواقع الدفاع فيستبدلهم الله تبارك وتعالى بغيرهم ولن تستطيع هذه القوى العسكرية والحربية ، وقوى التآمر والخداع والمكر أن تقضى على هذا الكيان أو تهدمه ومن الحتم أنه سينتصر فى القريب بعد أن يرى المؤمنون ربهم من أنفسهم ثباتاً وصموداً وتحرراً من الإخلاد إلى الأرض ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ [سورة الأعراف : الآية ١٧٦] .

لقد جاء الإسلام لتحرير البشرية من الوثنية والعبودية والظلم والفساد وكان أخطر ما دعا إليه « التوحيد الخالص » فى مواجهة التجسيم والتعدد وعبادة المال ، وكان أخطر ما دعا إليه « أخلاقية المجتمع والحياة والحضارة » وتحرير الشعوب من الإباحية والفساد .

وقد أقام الله تبارك وتعالى هذا النموذج الربانى لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ومكن له فى الأرض أكثر من ألف عام ليضىء المشرق والمغرب وتحرر الإنسان من العبودية والظلم والفساد .

وقد قدم الإسلام المنهج الربانى الأصيل وقام الرسول ﷺ على تطبيقه واستطاع خلفاؤه التوسع حتى بلغ من حدود الصين إلى نهر اللوار ثم توقف عندما تخلى المسلمون عن الاستمساك بالمنهج وغلبتهم عوامل الترف والتحلل فداهمهم العدو وأزال منهم ، وما تزال هذه المعركة المقتحمة التى بدأت عام ١٥٠٠ م قائمة حتى اليوم حيث سيطر النفوذ الأجنبى على كل موارد المسلمين ولم يتركوا للأهل الأوطان إلا الفتات وكان الغزو قد قدم منهجه للسيطرة على المجتمع الإسلامى وهو منهج جزئى قوامه المادية قد حجبت فيه المعانى الروحية والإنسانية تماما .

وبعد أن فتحت القسطنطينية بدأت المؤامرة على أرض الإسلام وفق مخطط خطير وكان المسلمون قد بدءوا نهضة جديدة نحو إحياء الإسلام فى مفهومه الصحيح وإحياء اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن .

كانت وراء الغرب تجربة الحروب الصليبية التى انتهت بهزيمتهم فكان لابد من مخطط جديد كان ذلك هو « تطويق عالم الإسلام » من خارجه من الهند وإندونيسيا .

وكان الغرب يهدف إلى عدة أمور :

أولاً : تحطيم هذه النهضة الجديدة باحتوائها إيمانا بأنها تهدد الغرب .

ثانياً : السيطرة على التراث الفكرى كله وجلبه إلى الغرب .

ثالثاً : ضرب مقومات الإسلام بإشاعة الشبهات حول القرآن والسنة واللغة العربية والتاريخ .

ومن هنا كانت حملة نابليون أولا على مصر والسيطرة الفكرية عليها ثم توجيه محمد على إلى هدم دعوة التوحيد فى قلب الجزيرة .

وكانوا قد أرسلوا أتباعهم يدرسون سواحل الجزيرة العربية الشرقية ولم يمر أكثر من أربعة قرون بعد فتح القسطنطينية حتى كانت رسالة الفيلسوف ليبنتز ١٦٧٢ م إلى بلاط لويس الرابع عشر يحرضه فى السيطرة على مصر .

(إنكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها على بلاد المشرق ، أى دار الإسلام ، إلى ما شاء الله وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها وهنالك لا تخسرون عطف أوربا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم) .

وقد ظل تقرير ليبنتز موجها لسياسة فرنسا إلى غزو دار الإسلام فى مصر .

لقد فتحت الحملة الفرنسية للمسلمين أبواب الإباحة وعملت على تحطيم النهضة فقد كان أكبر ما دعا إليه نابليون إرسال فرقة من الممثلين إلى مصر لتألف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية .

إن نذير الخطر فى الغرب من نهضة الإسلام هو الذى دفع نابليون إلى الهجوم على دار الإسلام فى مصر لوأد اليقظة والنهضة ومعاجلتها فى مهدها قبل أن يشتد عودها ولا تستفحل .

وليس صحيحاً كل ما أذاعه الاستشراق من أن الحملة الفرنسية هى مطلع النهضة ، وهكذا كانت الحملة الفرنسية منطلق حركة الاستعمار الغربية المعاصرة التى بدأت بالسيطرة على الأقطار العربية وزرع إسرائيل فى قلب الأمة الإسلامية وما تبعتها من نضال ومقاومة لم تتوقف .

كانت المؤامرة ترمى إلى تمزيق الوحدة الإسلامية والقضاء على الخلافة والسيطرة على أجزاء الأمة الإسلامية .

ولقد قاوم العرب والمسلمون المؤامرة بقوة الإسلام نفسه الذى كان هو العامل الحاسم لليقظة ، وفى الوقت الذى كان الغرب يرسم فيه خيوط الحصار والاحتواء استعلنت الفكرة الإسلامية من جديد تدعو إلى تأكيد الحقيقة التى يحاول النفوذ الأجنبى من خلال سيطرته بالربا والقانون الوضعى والعلمانية ، تلك هى أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع .

ومن هنا بدأت معركة التغريب والغزو الثقافى ، فقد سيطر النفوذ الأجنبى على المناهج التعليمية والثقافية ومجالات الفكر والاجتماع والاقتصاد والسياسة جميعاً ففرض مفاهيم الفكر الغربى فرضاً والتى سرعان ما كشفت عن عجزها عن العطاء ولم يتقبل الوجدان المسلم مفاهيم الفلسفة المادية فأسقطها وهى التى عجزت عن العطاء فى بيئاتها وقاوم ثلاثة مناهج : هى العلمانية والماركسية والقومية (بمفهوم الغرب) .

وكان أكبر أهداف الدعوة الإسلامية تحرير العقل المسلم من هيمنة الفكر الغربى الوافد وتحطيم مذهب عالمية الحضارة أو عالمية الثقافة وتأكيد الأصالة والذاتية الإسلامية والعودة إلى المنابع .

تلك هى المرحلة الجديدة فى حياة الأمة الإسلامية والدعوة الإسلامية بعد نكسة ١٩٦٧ فقد كشفت نكسة ١٩٦٧ م عن حقيقة خطيرة ظلت خافية على المسلمين والعرب خلال أكثر من قرنين كاملين ، كانت تراوح النفوس والعقول بالظن حتى تأكدت بنكسة ١٩٦٧ م فقد عرف المسلمون والعرب وتأكدوا أن المنهج الغربى الذى يعيشون فيه منذ الحملة الفرنسية إلى يومنا هذا كان عملاً مضللا فاشلاً حمل لواء الغش والكذب فيه قادة ومفكرون خدعوهم ولم يخلصوا لهم النصيحة ، بل كانوا خادعين وأولياء للنفوذ الأجنبى وتبين أن هذه المرحلة كلها كانت مقدمة لاحتواء هذه الأمة وصهرها فى أتون الحضارة الغربية .

وكانت اليقظة الحقيقية هى أن الخطر الذى سارت فيه الأمة الإسلامية كان يستهدف تدمير هذا الوجود الذى بناه الإسلام وشكله القرآن خلال أربعة عشر قرناً .

ففى الوقت الذى كان الماركسيون والعلمانيون يصورون هزيمة ١٩٦٧ م مقدمة لإقامة الدولة العصرية (التى دعت الأمة إلى أن تقطع تماماً صلتها بالماضى وبالدين وبالقيم والتراث) حتى تصبح دولة عصرية مقبولة فى نادى الأمم الحديثة ، بينما كان المسلمون والعرب قد أجمعوا على أن هذا الطريق يجب تغييره تغييراً كاملا وأن الطريق الوحيد هو : العودة إلى الإسلام والتماس منابعه وأن الخطر الذى كان يتمثل فى سيطرة الاستعمار والنفوذ الغربى ودعوات العلمانية والشيوعية إنما جاءت كلها من منطلق الخروج عن العقيدة التى تشكلت عليها الأمة الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً .

ومن هنا فلابد من العودة إلى المنابع .

وكانت الدعوة المتجددة تلتمس نفس منهج الدعوة الأولى حيث تجعل من التربية وبناء الشخصية الفردية أساساً لبناء المجتمع الإسلامى .

ومن هنا فقد كان لابد للمسلمين أولاً : أن يصححوا موقفهم من الإسلام نفسه وأن يفهموه على حقيقته الأصلية بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وليس دينا لاهوتياً قاصراً على العبادة ، ولكنه يجمع نظاماً للسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية ، فقد جاء ليقدم للبشرية المنهج الربانى الذى تقوم عليه الحياة جامعاً بين الفرد والجماعة والآباء والأبناء

والرجل والمرأة فى مختلف مجالات الحياة (وهذه هى النقطة الأساسية التى يختلف فيها الإسلام عن المنهج الغربى الذى قام على مفهوم الدين اللاهوتى والذى نقل إلينا تحت تأثير النفوذ الأجنبى الذى فرض على الأمة الإسلامية منهجاً واحداً فى محاولة خطيرة ومستمرة وما تزال متصلة منذ قرنين من الزمان لفرضه على المجتمع الإسلامى كبديل للمنهج الإسلامى) .

ومن هنا فإن اليقظة الإسلامية إنما جاءت بمراحلها المختلفة (دعوة محمد ابن عبد الوهاب ، الزبيدى ، الشوكانى ، البغدادى ـ ثم جمال الدين ومحمد عبده ، الألوسى) وحلقاتها المتصلة وفى مواجهة التحديات والأخطار التى فرضها النفوذ الأجنبى بحجب الشريعة الإسلامية والتربية الإسلامية ومفهوم الأسرة والمجتمع والتعامل الاقتصادى من خلال المدرسة والمحكمة والمصرف ، ولذلك فقد كان المنطلق الوحيد : هو العودة إلى الإسلام دينا ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع ، وتقديم ذلك للمسلمين أولاً بعد أن حجبهم الاستعمار والنفوذ الأجنبى عن هذه المنابع وفرض قانونه الوضعى ونظامه التربوى وتعليمه العلمانى .

وفى مرحلة المقاومة : كان العرب والمسلمون يصدرون عن منهج الإسلام أساساً ، فإن هذا الكفاح فى مواجهة النفوذ الاستعمارى والذى امتد سنوات طويلة إنما كان يصدر عن مفهوم الإسلام للجهاد والمقاومة والدفاع عن العرض والأرض وإن أخذ صورة أحزاب وتجمعات سياسية ، وقد شهد بذلك مفكرو الغرب أنفسهم والفضل ما شهد به الأعداء .

وكان من حقائق الصحوة إعادة تقديم الإسلام للمسلمين أولاً كما أنزل ، ثم كشف زيف المناهج الغربية التى طرحت فى أفق الإسلام على نحو الفكر الليبرالى والقومى والماركسى والفلسفة المادية والعلوم الاجتماعية والإنسانية وتقديم العلم التجريبى من خلال إنكار الله تبارك وتعالىٰ وتسمية ذلك باسم « الطبيعة » وهو ما جرى العمل به منذ الحملة الفرنسية إلى اليوم .

وكان على المسلمين أن يصححوا موقفهم من الفكر الغربى جملة وتقديم البدائل لهذه المناهج القائمة على الفلسفة المادية .

وهذا هو أعظم معطيات عصر الصحوة الذى نعالجه اليوم ومن هنا فقد كانت صدمة النكسة هى منطلق حركة الصحوة الإسلامية الفاعلة الممتدة الآن فى جميع منافذ الأمة الإسلامية ومواقعها ، فقد كانت هذه الصحوة عملاً متكاملاً جامعاً برز فى وقت سرعان ما

كشف عن نتائج سريعة من ثوابت الأعمال فى عديد من الأقطار الإسلامية حيث تحركت إيران وأفغانستان وباكستان وأكسبت الوطن العربى طابعاً جديداً من الدعوة الإسلامة يصحح موقفه ويطالب بالعودة إلى منهج الله وتوالت عمليات تقنين الشريعة الإسلامية فى كثير من البلاد (الجزائر ، السودان ، الأردن ، مصر ، الكويت . . إلخ) .

وإن لم تتمكن هذه الأقطار من تطبيق المنهج الإسلامى كما قدمته عملية تقنين الشريعة الإسلامية حتى اليوم لعوامل وعوائق .

وقد هزت حركة إيران العالم الغربى هزاً شديداً عندما تحولت من دولة تابعة للنظام الغربى إلى دولة إسلامية تقيم منهج الله تبارك وتعالى .

واليوم ونحن نكتب هذه السطور نرى نجم الإسلام يعلو فى تركيا ويأخذ مكانه كمخرج حقيقى لهذه الأمة من حملة التغريب العنيفة التى سيطرت عليها منذ سبعين عاماً .

ولقد قدمت القوى الإسلامية الأصيلة خلال هذه المرحلة عدداً من مشروعات القوانين الإسلامية فى مجال العقوبات والتجارة والقانون المدنى يقوم على ثوابت الشريعة الإسلامية ، ولكن عقبات كثيرة ما تزال تحول دون التطبيق ، ولعل النفوذ الأجنبى هو أقوى هذه المعوقات فضلا عن عقبة التعامل بالنظام الاقتصادى الإسلامى مع الغرب الذى يسيطر عليه النظام الربوى العالمى الذى تتحرك فيه البلاد العربية والإسلامية ، والذى يتطلب إيجاد مخارج قانونية لتحقيق قيام النظام الاقتصادى الإسلامى ، وعلماء المسلمين ما زالوا دائبين على (الاجتهاد) فى هذا المجال على النحو الذى يحقق لهم وجوداً إسلامياً صحيحاً ويفتح فى نفس الوقت أبواباً مشروعة من التعامل مع الاقتصاد الغربى .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد فتحت الدعوة الإسلامية أبواباً كثيرة من العمل الإسلامى وخاصة فى مجال تحفيظ القرآن الكريم وإنشاء المؤسسات الملحقة بالمساجد لعلاج فقراء المرضى وجمع الزكاة التى بلغت فى السنوات الأخيرة أكثر من ١٥ مليوناً وزعت على الفقراء ورعاية اليتامى والمحتاجين .

هذا فى مجال البر والصدقات وكذلك اتسع نطاق التأليف فى مجال فقه الإسلام والعبادات كما اتسع نطاق المدارس والمعاهد الفكرية الإسلامية وتكوين أبناء المسلمين الفقراء والمحتاجين .

كما تأسست فى مختلف أنحاء البلاد الإسلامية جمعيات البر لرعاية أبناء المسلمين فى بلاد الأقليات الإسلامية ودعوة المسلمين القادرين على التبرع باحتضان يتيم أو عدد من الأيتام .

وقد دعت هذه الجمعيات الخيرية إلى مساهمة المسلمين القادرين على التعاون فى بناء المدارس وإقامة مراكز تحفيظ القرآن الكريم وبناء معاهد وجامعات إسلامية .

وتركز هذه الجمعيات الإسلامية الخيرية جهودها فى المناطق المصابة : (كشمير فى الهند ، والبوسنة والهرسك ، والفلبين ، وألبانيا) ، والعمل على إلحاق الشباب المسلم فى الجامعات الإسلامية وخاصة جامعة إسلام أباد والجامعة الإسلامية فى أوغندا ورعاية الشباب الإسلامى فى فرنسا وألمانيا وأمريكا ، كما اتسع نطاق المصارف الإسلامية التى تقوم بأعمال البنوك من غير أسلوب الربا الذى تعمل به البنوك الربوية ، وقد حققت التجربة نجاحاً كبيراً مما دعا إلى التوسع فيها .

كما اتسع نطاق الملابس الإسلامية النسوية المصممة على أساس الحجاب والحماية من التكشف وفق مفهوم الإسلام فيما يصف أو يشف من الملابس وأغطية الرأس وغيرها ، وذلك بعد أن تأكد وضع المرأة المسلمة فى المجتمعات الحديثة على نحو صحيح .

أما المراكز الإسلامية التى تشكلت فى عواصم وحواضر البلاد الغربية فقد بلغت قدراً كبيراً (فى إحصاء أخير : كذا ألف مركز) .

وهى منارات حافلة بالتوجيه والثقافة والدعوة إلى الإسلام فى مناطق مختلفة فى بلاد الغرب تعنى أول ما تعنى بالأجيال الجديدة من الشباب وترد على تساؤلات المسلمين الجدد وترفض شبهات المضللين وترعى الوجوه الإسلامية الجديدة فى الغرب بقوة وإيمان ويبقى بعد ذلك التغيير الواسع العميق الذى تحقق للمجتمع الإسلامى والتحول الخطير الذى يتنامى ويتشكل فى بطن المجتمع المسلم فى ثلاث مجالات :

١ ـ التحول من المصارف الربوية إلى منطلقات بعيدة عن الربا .

٢ ـ تحول المرأة من اللباس العصرى المكشوف إلى الحشمة .

٣ ـ صلاة العيد فى الخلاء وتجمع مئات الألوف لشهودها .

٤ ـ صلاة الجمعة فى قلب الشوارع المزدحمة وتوقف المرور .

وفى مسجدين كبيرين سجلت صلاة العيد حدثاً خطيراً (أقصد القاهرة) مسجد محمود فى المهندسين ومسجد عمرو بن العاص فى مصر القديمة حيث تخرج جموع المسلمين رجالا ونساء بعد صلاة الفجر لأداء صلاة العيد تشق تكبيراتهم عنان السماء ، وسرعان ما امتلئت الساحات والميادين بملايين المصلين يفترشون الأرض فى مشهد جليل إحياء لسنة رسول الله ﷺ ، وقد أصبحت الصلاة فى الخلاء أمراً واقعاً بعد أن كانت تواجه المعارضة فى السبعينات ، ولكن المد الإسلامى الجارف حقق لها الاستمرار والقبول وقد أكدت صلاة العيد فى الخلاء صحوة الأمة الإسلامية .

وغير هذا فقد تحقق تحول كبير فى أحشاء المجتمع المسلم يتمثل فى الأصالة التى طرأت على أجيال الشباب الجديدة المسلمة من الجنسين ، المؤمنة بالله تبارك وتعالى وبالإسلام شريعة ودستوراً ، والتحول الخطير فى محيط المرأة المسلمة أكبر وإن كان لا يزال فى الصورة الظاهرة لم يصل إلى الأعماق ، كذلك فإن التحول فى التعامل مع الاقتصاد الربوى إلى الاقتصاد الإسلامى (انظر رأى الدكتور أحمد النجار) ستكون له نتائج كبيرة فى القريب .

ونحن مطالبون أن ننمى هذا الفهم الجديد : الفهم للإسلام فى أصالته والتحرر من التبعية للفكر الغربى فى مختلف مؤسساته التعليمية والاقتصادية والقانون والمحكمة والمدرسة والمصرف جميعاً .

هنالك ستكبر القاعدة المؤمنة بالشريعة الإسلامية وتحقق وجودها فى الاختبارات السياسية والاجتماعية والتشكيلات النقابية العامة كما يكون للبيت المسلم الذى تشكلت فيه المرأة على مفهوم الإسلام الصحيح نتاجه الأصيل حيث تخرج الأم : الرجل المجاهد والمرأة المؤمنة .

كذلك فإن العمل الحقيقى والإنجاز الباقى إنما يتمثل فى العطاء الذى حققه الفكر الإسلامى فى مجال كشف زيف الفكر الغربى وسقوط نظرياته وعجزها عن العطاء (أولاً) ثم تقديم البدائل الأصيلة للفكر الإسلامى : هذا التأصيل هو العمل الحقيقى الذى نحاول أن نقدمه فى هذا البحث .

ثانيا : المسلمون فى العالم المعاصر
التحديات وعبرة التاريخ والأحداث

أولت الصحف العالمية الكبرى وكثير من الهيئات العلمية والثقافية الاهتمام بشأن المسلمين فى العالم المعاصر فى العقود الأخيرة التى تتقدم نحو القرن الحادى والعشرين الميلادى من بين أهم ما توليه اهتماماً وذلك نتيجة لعدة عوامل أساسية أهمها :

الموقع الجغرافى الخطير بين القارات العالمية الثلاث ، وامتلاك عدد من الخلجان والبواغيز التى تتحرك من خلالها الثروة الاقتصادية للعالم كله ، فضلا عن تنامى المسلمين فى منطقة غنية بكل المواد الأولية التى لا تستغنى عنها الصناعة العالمية خاصة وأن تعداد المسلمين أخذ يتنامى حتى بلغ حسب آخر الإحصائيات ألف وثلاثمائة مليون يمثلون ثلث تعداد العالم = (١٤٠٠ مليون مسلم عام ٢٠٠٠ حيث يصبح سكان العالم ٦ مليارات) .

وهم موزعون على مسافة عريضة تمتد من أرخبيل الملايو إلى الدار البيضاء ، هذا العالم الإسلامى الذى تشكل خلال ثمانين عاماً من بعثة الرسول محمد ﷺ والذى اقتحم أوربا من ناحيتين : من أسبانيا وجنوب فرنسا فى الجولة الأولى ومن بلاد البلقان حتى وصل إلى أسوار فينا خلال تاريخ حافل امتد أربعة عشر قرناً .

وقد تنامى الإسلام فى دائرتين :

أولاً : من خلال الأزمات الكبرى حيث استطاع أن يزحف سلما فى أشد أوقات أزماته وبعد سقوط الخلافة العباسية حيث امتد إلى جنوب شرق آسيا وإلى قلب القارة الإفريقية على أيدى التجار والدعاة المتجردين ، بل لقد استطاع أن يقتحم إمبراطورية التتار المغولية وأن يسيطر عليها فتتحول إلى الإسلام كاملة .

ثانياً : أما الدائرة الثانية فهى تمثل قدرة الإسلام على تصحيح مسار المسلمين إذا انحرفوا عن الطريق من خلال رفضه لكل ما يتعارض مع تكوينه القائم على التوحيد الخالص ، وفى أكثر من موقف استطاع الإسلام بقدرته الذاتية أن يستعيد المسلمين إلى

الأصالة وإلى النهج القرآنى الأصيل بعد أن تنحرف بهم الطرق وحين تعرض عليهم التبعية للأمم الغازية والمسيطرة .

ومن أبرز عوامل الاهتمام بالعالم الإسلامى المعاصر : تلك الإحصائية التى أذاعتها منظمة الأمم المتحدة والتى تكشف عن أن المسلمين اليوم يشكلون ثلث سكان العالم وأن الدول التى ما زالت تقاوم الاستعمار هى : كشمير وفلسطين وأريتريا والصومال والفلبين ، وأن عدد الدول التى تسكنها أغلبية مسلمة هى أربعون دولة ، أما الدول التى يتراوح فيها عدد المسلمين من ٣٠ إلى ٤٠ فى المائة من السكان فهى ١٥ دولة ما عدا روسيا (الاتحاد السوفيتى سابقاً) والتى يبلغ عدد المسلمين فيها أكثر من أربعين مليونا ، والهند (٧٠ مليونا) وفى كل من يوغسلافيا وتايلاند وبورما (٣ مليون) والفلبين (٤ مليون) .

وفى دراسة قام بها مجموعة من خبراء الأمم المتحدة نشرت تحت عنوان (الأرقام المتوقعة) لسكان العالم عام (٢٠٠٠) أمكن استخلاص هذه المعلومات التى تفيد المشتغلين بدراسات العالم الإسلامى فى العصر الحديث .

أولاً : يبقى الدور الذى تقوم به الدول النامية فى الزيادة الحالية لسكان العالم على وضعه حتى نهاية القرن الحالى ، إذ أنها تساهم بـ ٨٥٪ من مجموع الزيادة السكانية للفترة من ١٩٦٠ ـ ٢٠٠٠ على أية حال من الأحوال .

ثانياً : الزيادة السكانية الحاصلة فى البلدان النامية هى أكثر من الزيادة الحاصلة فى بقية العالم المنظور .

ثالثاً : الحجم الكلى لسكان البلاد النامية فى خلال القرن الحالى وحتى نهايته سيتراوح عدد السكان فيها من ثلاثة أرباع إلى أربعة أخماس مجموع سكان العالم ، أى أن البلدان النامية (وهى لا تدخل ضمن النظام الرأسمالى أو الشيوعى) تضم حوالى ثلثى سكان المعمورة .

هذا وقد وضعت فى يد العالم الإسلامى ثلاث قوى كبرى وهى :

١ ـ التفوق البشرى .

٢ ـ الثروة المادية .

٣ ـ الطاقة وصولا إلى التكنولوجيا الإسلامية .

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن تميم الدارى قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ليبلغن هذا الأمر ــ أى الإسلام ــ ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ، أو يذل ذليلا ، عزا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر ، أما الذين يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما الذين يذلهم الله فيدينون لغيره » .

وقد جاءت الأديان كلها قبل الإسلام تمهيداً للدين الخاتم الذى يمثل عصر رشد الإنسانية ، فقد جاء الإسلام حداً فاصلاً بين عصر وعصر ، مما يصدق مقولة بعض الباحثين الغربيين المنصفين عن (الانقطاع الحضارى) فقد جاء الإسلام علامة على مرحلة حديثة تمر بها البشرية لها طابعها الخاص المتميز بالرحمة والإخاء البشرى والسماحة والانفتاح على العصر وتقبل كل العناصر والأديان والثقافات فى محيطه وصهرها فى بوتقته حيث يستصفى فيها من منهجه الجامع خلاصة الدين الإلهى المنزل ليشكل ثقافة عالمية خالصة .

ومن هنا فإن هذه المرحلة القائمة الآن : مرحلة الضعف والتخلف التى يمر بها العالم الإسلامى هى مرحلة عارضة وليست تطوراً طبيعياً وقد مرت هذه الأمة مرات من قبل بمثل هذه الأزمة ، فى مواجهة التتار والصليبيين والفرنجة شرقاً وغرباً عندما اجتمعت عليها كل القوى لاحتوائها وتدميرها ولكنها كانت تعرف أن الإسلام سيستردها ويبتعثها مرة أخرى من تخلفها إذا ما رجعت إليه والتمسته منهجاً لحياتها ومنطلقاً لوجودها ولقد اعترف الفكر الغربى فى العقود الأخيرة بمجموعة من الحقائق لصالح الإسلام :

أولاً : اعترف بأن أول التاريخ الحديث هو ظهور الإسلام وليس سقوط الدولة الرومانية .

ثانياً : اعترف بعطاء حضارة الإسلام للبشرية .

١ ــ المنهج التجريبى .

٢ ــ منهج المعرفة ذى الجناحين .

٣ ــ قوانين قيام الأمم والحضارات وسقوطها .

ثالثاً : دخول السلام أوربا سلما وامتداده إلى أمريكا وأستراليا وتقديم منهج الإسلام فى صورة مجتمع جديد .

ولقد عاش المسلمون حياتهم خلال أربعة عشر قرنا بين عاملي الاستجابة والتفريط متطلعين إلى المثل الأعلى الذى رسمه القرآن ، وطبقه الرسول الكريم ﷺ على طريق إقامة منهج الله تبارك وتعالى على الأرض .

ولكن تجربتهم البشرية كانت تصيب وتخطىء وتهتدى فى مسيرها أو تنحرف كان إغراء عدوهم لهم بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها يخرجهم عن السبيل فيأمنون عدوهم ، وقد كانت القوى الخارجية لا تغفل عنهم ، فقد ولد الإسلام فى قلب التحدى من خلال مخططات معدة تطمع فى تدميره والقضاء على أهله وقد أنذرهم القرآن الكريم وحذرهم فى أكثر من موضع من أن يأمنوا عدو الله وعدوهم فى مواجهة التحديات أو أن يتخذوا بطانة من دونهم أو أن يغفلوا عن ثغورهم ومقدراتهم وفى أكثر من موقف خلال تاريخهم ، كان العدو بسبب مخالفتهم ذلك قادراً على اقتحام ثغورهم وتدمير قواهم وتفريق وحدتهم .

﴿ وَدَّ الذين كفروا لو تَغْفلُون عَنْ أَسْلحَتكُمْ وَأَمتعَتكُم فَيَميلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحدَةَ ... ﴾ ثم قال ﴿ وخُذُوا حذْرَكُم﴾ [النساء ١٠٢] .

ولقد عمل المسلمون على إقامة مجتمعهم الربانى وحشدوا فى سبيل ذلك كل قواهم ومقدراتهم ، ولكن التجربة كانت فى حاجة إلى الصبر والثبات فى وجه الأحداث ولكن المسلمين سرعان ما كانوا يغفلون ويأمنون فتجتاحهم الأخطار وتستولى على ما فى أيديهم ولم يكن العيب فى هذا راجع إلى المنهج ، فقد كان المنهج ربانيا سليما محذراً من الترف والأمن الخادع ومطالباً بالإعداد والحشد والقدرة على الردع ، ولو وعى المسلمون مقولة الرسول ﷺ من أن جند المسلمين فى هذه المنطقة هم فى رباط إلى يوم القيامة لعلموا أنهم يجب أن يحتشدوا ويرابطوا ويكونوا دائما على تعبئة كاملة .

ولو علم المسلمون من ميراثهم الخالد : (القرآن والسنة) أن التماسهم منهج الله تبارك وتعالى هو دائما المخرج من الأزمات الكبرى التى تتجمع فيها قوى البغى لاجتثاثهم أو محاولة صهرهم فى بوتقة الأممية ، وأن الإيمان والاستشهاد وبيع الأنفس لله تبارك وتعالى هو المعادل الحقيقى لقوة العدو المحتشدة ، لو علموا ذلك لالتقوا على وحدة الكلمة .

وتكشف صفحات التاريخ عن هذه الحقائق فى بيان ناصع وتعلن فى صدق واضح :

أن الأزمات تأتى نتيجة تفريط المسلمين فى القوة والاستسلام إلى دواعى الترف والتحلل واللذات العاجلة ، وعندها يحتشد العدو ليضرب ضربته الفاصلة ، كما حدث فى سقوط بغداد وسقوط غرناطة وسقوط القدس الأخيرة الذى شهدناه فى النصف الثانى من هذا القرن العشرين .

إن أوضاع المسلمين فى العالم اليوم فى حاجة إلى التماس عناصر جديدة غائبة عن المسلمين أهمها :

العودة إلى العزائم والتماس أسباب التمكين وامتلاك أدوات التقدم وتصحيح كثير من الأوضاع الاجتماعية التى دفعتهم إليها الحضارة الغربية وهى التطلع إلى الترف والمادة والتماس مصادر الحرام والنزوع إلى الإسراف فى المتعة المادية وتجاهل الخطر المحدق الذى يعمل على احتواء المسلمين ومحاصرتهم والحيلولة دون تمكينهم من امتلاك إرادتهم وبناء مجتمعهم الربانى وتوجيه ثرواتهم نحو بناء قوة اقتصادية إسلامية تكفل لهم استغلال مواردهم ، فيستقل قرارهم ولا يخضعون لمن يفرض عليهم وجهته ، ولا يتأتى هذا إلا بالعمل على إقامة وحدة جامعة بين كل العناصر الإسلامية الفاعلة فى الجسد الإسلامى : عربية وفارسية وتركية وهندية تستمد مقوماتها من المنهج الإسلامى الذى يجمع ولا يفرق .

وكذلك فالمسلمون فى حاجة إلى تأكيد الهوية الجامعة بين الهويات القومية والوطنية فى دائرتها الكبرى ، حتى لا يجد خصوم الإسلام ثغرة ينفذون منها وليأخذوا من التاريخ الطويل عبرة وعظة .

إن غاية ما يقال أن للمسلمين منهجهم الأصيل وأسلوب عيشهم الخاص وأن حاجتهم من الفكر الغربى تقف عند العلوم التجريبية وحدها ، هذه العلوم التى شاركوا فى نشأتها أولا وعلى أن ينصهر ما يستقدمونه فى دائرة الفكر الإسلامى ، حتى لا يتعارض مع مفاهيم الإسلام وقيمه ، وخاصة ما قرره الإسلام حول مهمة الإنسان فى الأرض من خلال المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والبعث والحساب والجزاء الأخروى وما يتصل بتوزيع الثروة وبناء الأسرة وعلاقة الرجل والمرأة .

إن كتابات المفكرين الغربيين الأعلام الذين درسوا الإسلام فى الغرب وآمنوا به تكشف

تماما عن حاجة البشرية إلى (نور جديد) وليس ذلك فى غير القرآن وأى منهج جديد ، وليس غير الإسلام : منهج الله : المنهج الباقى الخالد الذى يستطيع أن يعطها على مدى العصور وفى مختلف البيئات وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يعطيها أمان الحياة وأشواق الروح وراحة الضمير .

إن المسلمين مطالبون بالعودة إلى منهج الله وتجاوز كل العقبات التى تعترض طريقهم فإذا عادوا مَكَّنَ الله تبارك وتعالى لهم فى الأرض وإن تقاصروا فسوف يلقون أشد الأزمات ، وأسوأ التحديات حتى يعودوا إلى الحق أو يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه .

* * *

ثالثاً : المسلمون فى مواجهة تحديات الماركسية والقومية والعلمانية

ماذا حققت الصحوة خلال هذه المرحلة من السنوات (١٩٦٧ ـ ١٩٩٠) من تغيير نفسى وفكرى وعقدى على طريق الوصول إلى مفهوم الإسلام الصحيح .

كانت النكسة قد كشفت حقائق كثيرة : أهمها فساد المذاهب والأيدلوجيات التى تصاعدت خلال المرحلة السابقة وكان أخطر ما قد تكشفت عنه مخالفته للوجدان الإسلامى ومعارضته لأصول العقيدة الإسلامية : تلك الأيدلوجيات الثلاث الكبرى والأساسية العاملة فى أفق الأمة الإسلامية منذ سيطرة القوى الغربية الغربية : وهى (القومية والماركسية والعلمانية) والتى حاولت أن تفرض وجودها عن تقديم مصطلح إسلامى خادع على النحو الذى قدمه البعض فيما سمى بالعدل الاجتماعى فى مقابل الاشتراكية والشورى فى مقابل الديمقراطية .

ولقد عملت الدعوة الإسلامية على كشف وجوه الخلاف بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم الفكر الغربى المستمد من الوثنية اليونانية والفلسفة المادية الرومانية ومفاهيم المسيحية الغربية (والتى قدمها بولس والتى تختلف عن المسيحية المنزلة) ، وكان الفكر الغربى قد تجاوز مفهوم العقيدة الدينية على أثر خلافه مع الكنيسة وخلافها مع مفاهيم الفلسفة المادية التى سيطرت فى الغرب باسم العلمانية والتنوير .

وكان النفوذ الأجنبى قد عمد إلى طرح هذه المفاهيم التى تتمثل فى نظرية دارون وماركس وفرويد وسارتر والليبرالية والفكر الرأسمالى والفكر الماركسى والفكر القومى فى أفق الإسلام .

وقد استطاع النفوذ الأجنبى فرض هذه المفاهيم عن طريق نفوذه المسيطر على المحكمة والمدرسة والمصرف حيث حجبت الشريعة الإسلامية عن التعليم وفرض القانون الوضعى فى

التعامل وسيطرت المعاملات الربوية ، غير أن الدعوة الإسلامية استطاعت أن تثبت وجودها بعد سقوط الخلافة وأن تستعلن المفاهيم الصحيحة للإسلام مع كشف زيف النفوذ الأجنبى الذى كان يطمع فى أن يقدم الإسلام على أنه دين لاهوتى قائم على الصلاة والعبادة مع تجاهل وإنكار وحجب منهج الإسلام فى الاقتصاد والسياسة والتربية والاجتماع .

ومن هنا فقد كان للصحوة أثرها الواضح فى التقدم خطوة نحو الأصالة وذلك بتجاوز مرحلة الدفاع عن الإسلام وكشف زيوف معارضيه ورد اتهامات خصومه إلى عمل يتمثل فى بناء البدائل وتقديم التأصيل الإسلامى للمفاهيم المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى .

وقد كشفت دراسات علماء الإسلام على أن المنهج الغربى بكامله لا يجد قبولا فى الوجدان الإسلامى ، أو العقل الإسلامى ، ولا يستطيع أن يحقق أشواق الروح أو آفاق المجتمع لأنه رأى المنهج الغربى يختلف اختلافا واسعاً وعميقاً مع الفكر الإسلامى والعقلية الإسلامية وتختلف أساساً مع قمة هذا الفكر وملاذه ، وهو التوحيد الخالص .

ومن هنا فإن التجربة التى حدثت منذ حملة نابليون واحتلال الغرب للوطن الإسلامى خلال أكثر من قرنين كاملين قد أكدت عجز هذا المنهج عن العطاء وأن المسلمين قد اكتشفوا أنهم لم يحققوا ما كانوا يأملون فيه من تقدم أو تحرر أو أصالة ، وإنما كان المنهج الغربى بكل مفرداته عاملاً خطيراً من عوامل التبعية والاحتواء يحول دون وحدة المسلمين الجامعة وتطبيق المنهج الإسلامى فى مجتمعهم . لقد فشل المنَظّرون من دعاة القومية أو الاشتراكية أو العلمانية أن يحققوا للأمة الإسلامية منهجا جديداً يجد قبولا منها ويحقق لها مطامحها وأشواقها بالرغم من الفرص الواسعة التى أتيحت لهم عن طريق الحكم والسلطان وتبين أن لدى المسلمين منهجاً كاملاً جامعاً يختلف تماماً مع القومية (الغربية) والاشتراكية والعلمانية يتميز بمصدره الربانى وقدرته على العطاء فى مختلف العصور والبيئات لمرونته وجمعه بين الثوابت والمتغيرات ، ومن سعة هذا المنهج وسماحته أنه لا يحتاج إلى أيدلوجيات غربية .

أما الشريعة الإسلامية التى حجبها النفوذ الأجنبى وحاول بعض التغريبيين والعلمانيين توجيه النقد إليها فى وطنها بينما كانت المؤتمرات العالمية لرجال القانون فى مختلف عواصم الغرب تكشف عن عالمية هذه الشريعة وأصالتها واستقلالها عن القانون الرومانى

وسعة عطائها .

ولقد كان الإسلام سابقا لهذه الأيدلوجيات مختلفا عنها ، فقد أخذت البشرية فى أديانها الأرضية بوجه من وجوه الأمر وغفلت عن الوجه الآخر ، فظهرت دعوات تعلى من شأن الروح والوجدان وحجبت المادة ، كما ظهرت دعوات تعلى من شأن الفرد وتنكر الجماعة ، ودعوات تعلى من شأن الجماعة وتنكر الفرد وظهرت دعوات تبحث عن الثبات الدائم فى نظام الكون ودعوات تتحدث عن التطور الدائم .

فجاء الإسلام مخالفا لذلك كله : جامعا بين الروح والمادة والجماعة والفرد والتطور والثبات.

لقد عجزت هذه الأيدلوجيات الثلاث التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى عن العطاء وانكشفت عن أنها نبت غريب لا ينبت فى بيئة الإسلام ، بل لقد حقق مخاطر كثيرة حالت دون توحد العالم الإسلامى أو تقارب عناصره بل حققت الصراع والدمار .

هذا بالنسبة للقومية ، وكذلك الأمر بالنسبة للتطبيق الاشتراكى فقد حدث نفس الاضطراب بالرغم من المقولات التى حشدت لتصور الماركسية قريبة ومتقابلة مع العدل الاجتماعى الإسلامى .

أما العلمانية فقد أعلن الفكر الإسلامى أنها قصة غربية تتصل بالخلاف بين المجتمع الأوربى والكنيسة ، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والدولة كما لا يقبل الفصل بين الروح والمادة ، والعلم والعقل ، والدنيا والآخرة .

وهذه ميزة الإسلام الجامع المترابط بين عناصر متلاقية هى فى الفكر الغربى متصارعة تتسم بالانشطارية .



واجهت أقطار الوطن الإسلامى بعد الحرب العالمية الثانية تياراً جديداً يتمثل فى النظم العسكرية التى قدمت بعض رجال الجيش إلى سدنة الحكم ، فى سوريا ومصر والسودان

وليبيا واليمن والعراق ، وكانت أرضية الحكم هى النظام الفردى العسكرى الذى يعتمد منهجاً يربط بين القومية والاشتراكية ، ويقوم على أساس العلمانية فى السياسة والمجتمع .

ويرى الإسلام بوصفه دينا لاهوتيا وينكر عليه مفهوم الحكم والتطبيق فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية ، وقد أعلى هذا النظام من شأن الفكر القومى على المفهوم الغربى المفرّغ من الأصالة الإسلامية والقائم على أساس الترابط بين مفهوم الاشتراكية والماركسية والعلمانية ، فقد كان المذهب فى أساسه من صناعة الغرب وقامت به جماعات ليست مسلمة أساساً ولكنها تجمع بين المسيحية واليهودية ومفاهيم المذاهب الباطنية القديمة .

وكأنما كان هذا الكادر السياسى مفروضا على الوطن الإسلامى فى مواجهة السيطرة الصهيونية على فلسطين وعملها على تثبيت وجودها حيث أخذ الغرب يتحدثون عن أسلوب للمواجهة يختلف عن أسلوب الإسلام ويجعل قضية فلسطين قضية عربية قومية خالصة لا صلة لها بالدول الإسلامية ولا بالإسلام نفسه .

ومن هنا اختفى الصوت الإسلامى القائم على تحرير فلسطين ، بل إن حدث نكسة ١٩٦٧ قد غيرت هذا المفهوم تغييراً كبيراً حيث سقطت القدس نفسها فى هذا العام بأيدى الصهيونية كما سيطرت الصهيونية على الجولان وعلى صحراء سيناء والضفة الغربية .



وكانت تجربة الماركسية فى عالم الإسلام حدثاً خطيراً أخذ أول الأمر صورة الخداع بإعطائه صورة (العدل الاجتماعى) ومحاولة الحصول على بعض النصوص التى تجعله مقبولا بالنسبة للرأى العام وكانت هناك خدعة بالنسبة لعلماء الدين عندما كشفت الماركسية عن مادتها ومعارضتها التامة للدين وحربها العميقة للألوهية والمنهج الربانى والدين المنزل .

ومن هنا بدأت تسقط اجتماعيا وداخلياً ولم يبق منها إلا وضع السلطان فى فرضها وتجربتها .

ولكن سرعان ما انهارت بعد أن تبين فشلها وفسادها على نفس الأسلوب الذى سقطت به الليبرالية والقومية .

فقد استطاع الوجدان الإسلامى أن يستعيد قدرته على الأصالة وأن يرى أن هذه الأطروحات كلها عاجزة عن العطاء .

ومن هنا فقد سقطت الماركسية فى بلاد الإسلام قبل أن تسقط الشيوعية فى بلادها .

لقد عملت الشيوعية خلال سبعين عاما على أن تفرض على المجتمعات البشرية هذا النظام الزائف وبالرغم مما حشدت لذلك وكتبت وتحدث محدثوها وأتباعها ودعاواها العريقة فى الحرية والعدل وتحرير الأوطان من النفوذ الاستعمارى وما تحدث محدثوها وأتباعها ، ذلك أنها كانت تتطلع إلى منهج عالمى أشبه بالدين بل لقد أعلنت أنه دين جديد بديل للمسيحيين ومحارب للإسلام ولكن هذا الغرور سرعان ما حطمها .

ولقد كان سقوط الشيوعية مدويا وإن كانت خدعة الفكر الغربى ما زالت تحاول أن تؤكد وجودها وحدها فى العالم وذلك بتغليب نفوذ الرأسمالية والليبرالية ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً .

فإن انهيار الشيوعية لا يعنى انتصار الرأسمالية .

ولكنه يعنى أن سقوط الجزء يعنى أن الكل معرض لخطر عظيم .

ولقد تحدث المؤرخون والباحثون طويلا عن أزمات الرأسمالية والتحديات التى تواجهها ولطالما طالبت أمم الغرب منذ وقت طويل بنظام جديد بديل وكان وما زال المستقبل للإسلام والدين الحق .

وإن سقوط النظام الشيوعى فى الحقيقة هو جزء من أزمة الحضارة الغربية ككل ـ ولا يعنى انتصار الكتلة الرأسمالية وبالتالى أصبح البحث عن رؤية إسلامية حضارية وعالمية أمراً واجباً خاصة وأن المتغيرات الجديدة تطرح مراحل وعناصر يستطيع الإسلام والمسلمون أن يعملوا فيها لخدمة البشرية ، فعلى المستوى الثقافى من الذى يدافع عن حقوق الفقراء ، هنا تبرز العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

وعلى المستوى الاقتصادى لم يعد الإشباع المادى وحده هو الكفيل بتحقيق سعادة البشرية ، وإنما أصبحت هناك حاجة للإشباع الروحى والأخطار التى نتجت عن إطلاق

الحرية الفردية بلا قيود ، مثل تزايد معدلات الإجهاض والإصابة بالإيدز ، التى أعادت مرة أخرى الاهتمام بالضوابط الدينية والأخلاقية فى الغرب .

إن سقوط النظام الشيوعى هو جزء من أزمة النظام الغربى وليس سقوط الشيوعية فى الكتلة الشرقية يعد انتصاراً للكتلة الأخرى .

إن هناك أزمة بالطبع ملازمة لهذا النظام وللحضارة التى أنجزته ولقد كان النظام السوفيتى إفرازاً للحضارة الأوربية وليست الحل الأمثل مع سقوط الاتحاد السوفيتى أن يكون البديل هو النظام المماثل له ، فلو استطاع المسلمون أن يقدموا بديلا لأنفسهم أولا وللعالم ، فإن العالم فى حاجة إلى بديل ينقذه من أزمته (فؤاد أبو حطب) ولقد كان سقوط الاتحاد السوفيتى باعتباره أبرز المتغيرات لم يكن مفاجأة لأن النظرية اختلفت ، لها طريق لم تسر فيه بالشكل الذى صورته وسقطت دون أن يقع للإنسانية عموماً .

ولن تستطيع الشيوعية أن تقوم بما يقوم به الإسلام الذى بعث لحماية الفقراء والطبقات الدنيا ولن تستطيع الشيوعية أن تنهض بهذه الرسالة التى يتشاغل العالم كله الآن عنها .

* * *

رابعاً : النفوذ الأجنبى خلال مائة سنة (١٨٨٢-١٩٨٢)

فيما يقابل : القرن الرابع عشر الهجرى

فى عام ١٨٨٢ استولت بريطانيا على مصر – يوافق هذا العام مطلع القرن الرابع عشر الهجرى (١٣٠١) وكان احتلال مصر نهاية جولة واسعة لبريطانيا فى السيطرة على العالم الإسلامى حيث سيطرت على الهند وأسقطت الحكم الإسلامى بها (الإمبراطورية المغولية) واستولت على مداخل الخليج ، ومن مصر استولت على السودان .

وكانت تعتبر السيطرة على مصر هى موقفها الثابت من حيث أنها مفتاح الطريق إلى الهند .

وكان الزحف الاستعمارى الأوروبى قد بدأ خطته فى محاصرة (عالم الإسلام) فى نفس الوقت الذى سقطت فيه آخر معاقل الأندلس حيث أخذت (أسبانيا والبرتغال) تزحفان لحصار البلاد الإسلامية من خلال الجزائر وتونس وامتداداً إلى خليج فارس ثم ورثت بريطانيا وفرنسا هذه البلاد بعد مائة عام من احتلال أسبانيا والبرتغال لها ، وأزالت الإمبرطورية المغولية الإسلامية فى الهند .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل امتد من خلال الحلف الذى قام بين دول أوربا وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا وألمانيا إلى إنفاذ المؤامرة الواسعة التى كانت ترمى إلى إسقاط الخلافة وتمزيق الدولة العثمانية التى كانت قد سيطرت على البلقان ووصلت إلى أسوار فيينا واستمر حكمها لأوربا إلى عام ١٩١٥ (١٥١٥ – ١٩١٥) أربعمائة عام كاملة .

وقد واجهت الدولة العثمانية أخطر محاولات تمزيقها وعزل القسم الأوربى عنها عندما تحركت مؤامرات تدعو إلى استخلاص البلقان من أيدى المسلمين فى نفس الوقت الذى قامت فيه روسيا القيصرية بالهجوم والحرب المستمرة على أطراف الدولة العثمانية حيث استطاعت أن تستولى على الدول الخمس الإسلامية القائمة فى قلب آسيا وضمها إلى الإمبراطورية الروسية ثم ما قامت به روسيا الشيوعية بعد سقوط العنصرية منذ عام ١٩١٧ إلى ما بعد ذلك .

وكانت الحرب العالمية الأولى قد اتخذت :

١ ـ لتمزيق الدولة العثمانية المسلمة .

٢ ـ وإسقاط الخلافة .

٣ ـ وتمكين اليهود من السيطرة على فلسطين .

وقد تحققت الأهداف الثلاثة وكان لبريطانيا الدور الأكبر فى الوقيعة بين العرب والترك وإعلان الشريف حسين والى مكة الحرب على الدولة العثمانية من خلال تعاقد مع بريطانيا بإقامة دولة عربية بعد انتهاء الحرب وهو ما لم ينفذ فكان خدعة كبرى .

وما إن هزمت الدولة العثمانية فى الحرب العالمية (وكانت فى صف ألمانيا) حتى نفذ مشروع تقسيمها بين فرنسا وإنجلترا : العراق لبريطانيا وسوريا لفرنسا والمغرب (تونس ـ الجزائر ـ المغرب) لفرنسا أيضاً ، وفلسطين لوعد بلفور .

ثم كانت حركة كمال أتاتورك التى حطمت الدولة العثمانية الإسلامية تماماً وأقامت الدولة التركية العلمانية التى حجبت نفسها عن اللغة العربية والشريعة الإسلامية والتراث الإسلامى كله ، حين كتبت لغتها بالحروف اللاتينية .

وفى خلال هذه الفترة من١٨٨٢ إلى بداية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ كانت بريطانيا تسيطر على :

(مصر ـ السودان ـ العراق ـ أجزاء من الخليج) .

وتفرض نفوذها الفكرى والثقافى والاقتصادى على هذه المناطق جميعاً ، وذلك لسيطرة اللغة الإنجليزية والثقافة اللاتينية والنفوذ التعليمى الغربى وحجبت الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعى .

وكان للدور الذى قام به كرومر ودنلوب وزويمر أثراً كبيراً فقد وضع الخطط الأساسية لعملية التغريب والغزو الثقافى التى امتدت من التعليم إلى الثقافة إلى الصحافة إلى المصرف إلى المحكمة حيث حجبت الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعى .

وأفسح الطريق أمام الإرساليات التبشيرية التى تمثل البروتستانت والكاثوليك كما فتحت الطريق أمام البعثات الخارجية إلى بريطانيا ، حيث ظهر عدد من المستشرقين والمبشرين الذين وضعوا ركائز لهدم الفكر الإسلامى ممثلة فى :

١ ـ الكتاب الذى ألفه مرجليوث عن انتحال الشعر الجاهلى .

٢ ـ الكتاب الذى ألفه مرجليوث عن أن الخلافة والحكم بالشريعة ليس من الإسلام .

٣ ـ الكتاب الذى ألفه (هاملتون جب) : وجهة الإسلام .

٤ ـ الكتاب الذى ألفه (جولد سيهر) عن أن القرآن منه قرآن مكى جاف وقرآن مدنى مرن متأثر باليهود .

ولقد أمضى لورد كرومر خمسا وعشرين عاماً فى سلك الحكم فى مصر معلناً أنه لن يترك مصر إلا بعد أن يؤسس جيلاً يحل محل البريطانيين ويعمل بعقلية الغرب فى مختلف المجالات وكان من نتائجه :

سعد زغلول ـ التعليم .

لطفى السيد ـ الصحافة .

عبد العزيز فهمى ـ القانون الوضعى .

وقد عمل الاستعمار البريطانى على إعلان صيحة (المصرية) التى يقصد بها الانسلاخ الكامل عن الثقافة الإسلامية وعن الوجود العربى ومن القرآن والسنة والتاريخ واللغة العربية والتراث .

كما عمد الإنجليز إلى حجب اللغة العربية والدعوة إلى العامية ، وجعل اللغة الإنجليزية اللغة الأساسية فى العمليات التجارية والسياسية .

وأعلنت بريطانيا خلال أكثر من مائة عام فى الهند ومصر والسودان الحرب على القرآن والتراث والتاريخ والشريعة ، وأدخلوا الربا إلى البلاد والقرى ، وفرضوا عمليات التعامل الربوى عن طريق المحاكم المختلطة التى استطاعت أن تنتزع من أهل البلاد أكثر من نصف ثرواتها فى خلال السنوات العشر الأولى للاحتلال .

وقد جعلوا فى أوائل كل قرية : المرابى وبائع الخمور ، وشجعوا الناس على الفساد بما أرسلوه من راقصات ومغنيات وفنون وفساد ، مما لا تزال آثاره قائمة إلى الآن .

* * *

كانت مصر قد وقعت فى أسر الديون منذ عهد إسماعيل وكانت الديون مقدمة لسيطرة الغرب عليها وكان حفر قناة السويس مدخلاً لهذه السيطرة التى تمت على وجه كامل بدخول الإنجليز مصر عام ١٨٨٢

وكان الغرب قد عمد إلى وضع نظام اقتصادى سياسى غربى قائم على القانون الوضعى والربا والسيطرة الاقتصادية قبل الاحتلال البريطانى ، وفى ظل الاحتلال تشكلت الأحزاب السياسية على النمط الغربى .

كانت تمثل ثلاثة أوجه :

أولاً : الحركة الوطنية المرتبطة بالإسلام وبدولة الخلافة .

(الحزب الوطنى : مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، وآخرون) .

ثانياً : حزب الأمة المرتبط بالنفوذ البريطانى والداعى إلى الالتقاء مع بريطانيا والغرب فى منتصف الطريق .

(حزب الأمة : لطفى السيد ، وسعد زغلول ، والمعد للحكم فيما بعد) .

ثالثاً : حزب الإصلاح المرتبط بالخديو عباس وصاحب الولاء له بقيادة الشيخ على يوسف .

وقد عمل الاستعمار على محاصرة الحركة الوطنية وتصنيفها قبل قيام الحرب العالمية الأولى وخلالها ، فهاجر محمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، وكثيرون .

ثم أعد المسرح لولاية المستعمر بعد أن أمضى لورد كرومر خمساً وعشرين سنة يعد الأجيال المصرية للولاء البريطانى خاصة والغربى عامة ، ومن خلاله كانت ثورة ١٩١٩ قد تحركت فى هذا الإطار .

ثم تشكل الوفد فى أحضان النفوذ الاستعمارى بمفهوم حزب الأمة للالتقاء بالإنجليز فى منتصف الطريق على مفهوم العلمانية التى تقدم به إلى الأمة الإسلامية : أتاتورك ، وأعدت العدة لحياة سياسية على النمط الغربى بقيادة سعد زغلول الذى تشكل فى المحافل الماسونية وشكل المنشقون على الوفد حزب الأحرار الدستوريين ، وكان الوضع كله علمانياً على نمط الحكم فى تركيا الكمالية وامتد هذا التيار من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٥٢ حين أسقطت حركة الجيش هذا النظام بكل عوامله (الملكية والأحزاب) .

وبدأ نظام جديد امتد من عام ١٩٥٢ فى ثلاث مراحل على المحيط العربى حيث استعلنت ظاهرة (الانقلابات العسكرية) التى ارتبطت بالنظام الماركسى فى مصر وسوريا والسودان واليمن والجزائر وليبيا والعراق تحت عنوان القومية والاشتراكية من خلال منطلق علمانى يحجب الإسلام سواء بوصفه الشريعة التى عاشت الأمة فى حضانتها أم من حيث أنه رباط الوحدة الجامع للأمة .

وفى خلال هذه الفترة استعلنت الفكرة القومية وعلا شأنها ، وارتبطت بالماركسية وتحركت من خلال الخلاف مع الغرب والارتباط بالنظام الماركسى اللينينى بوصفه منطلق تحرير الوطن العربى من نفوذ الاستعمار المتمثل فى الولاء البريطانى الفرنسى والأمريكى فى الآخر .

فإذا أخذت تستعرض أحداث القرن الرابع عشر الهجرى : (١٣٠١ هـ ـ ١٨٨٢ م إلى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م) تجد مجموعة من الأحداث العالمية :

أولاً : إسقاط الخلافة والدولة العثمانية وتمزيق العالم الإسلامى وإقامة الدولة القومية فى دول تستمد وجودها من ماضيها السابق على الإسلام .

ثانياً : إقامة إسرائيل ، وأثر ذلك على الوطن العربى ومنذ ذلك الوقت ، وهى مصدر كل الأزمات والأحداث المتراجعة حتى الآن .

ثالثاً : تقسيم البلاد العربية واستعمارها ، وتعطيل الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامى جملة ، وفرض النظام الغربى العلمانى .

(إيطاليا تستولى على طرابلس ، فرنسا على سوريا وتونس ، وإنجلترا على العراق) .

رابعاً : قيام حركات المقاومة للنفوذ الاستعمارى .

المهدى فى السودان ـ عرابى فى مصر ـ عمر المختار فى ليبيا .

* * *

الصورة كلها تعطى مفهوما واضحاً : أن الغرب حين أراد أن يزرع إسرائيل فى قلب الوطن العربى أعد لذلك العدة الكاملة لهدم الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة وإقامة النظام الشمولى بحكم الفرد وجعل خلفية ذلك فلسفة القومية العربية بمفهومها الوافد من الغرب المفرغ من الإسلام ومن الوحدة الجامعة فى أسلوب أشبه بالصراع العرقى أو إقامة العنصرية.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد اشتعلت من أجل إسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية فإن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) قد اشعلت من أجل فرض (رأس جسر) من الصهيونية العالمية فى قلب الوطن الإسلامى وفى فلسطين بالذات بموقعها الاستراتيجى الخطير وموقعها الإسلامى الأشد خطورة بوصفها مقر (بيت المقدس) أولى القبلتين وثالث الحرمين حيث يمكن عن طريقها السيطرة على المنطقة الإسلامية كلها من أرخبيل الملايو إلى رباط الفتح ولقد كان واضحاً أن الإسلام قد حدد المواقف بالنسبة للعدو المقتحم الذى يحاول السيطرة على أرض الإسلام وقد جاءت فريضة الجهاد بكل أساليبها وأبعادها لمقاومة هذا الخطر وللاستعداد له (وأعدوا) قبل وقوعه وإلى القدرة الدائمة على حشد الثغور والمرابطة فيها والقدرة مع الردع .

وهذا هو ما فقدته الأمة الإسلامية بعد الاحتلال حيث حجبت عن المسلمين أموراً كثيرة أهمها .

١ ـ الشريعة الإسلامية وتطبيقها فى مجال الاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة .

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله .

غير أن النفوذ الغربى الوافد ـ الذى تشكل بعد الحرب بالنفوذ الماركسى أيضا ـ قد أحدث تحولات خطيرة حجبت مفاهيم الإسلام ، وأفسحت الطريق لمفاهيم التغريب التى حاولت أن تدعى بأن الإسلام لم يطبق إلا فى عصر الراشدين وكان للتجربة الغربية وتطبيقها فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع وحجب الشريعة الإسلامية وفرض القانون المدنى الغربى وقانون العقوبات أثرهما البالغ فى تدمير المجتمع وفتح الطريق إلى الربا والزنا والخمر والميسر ونشر وسائل الهدم والتحلل والخنوثة وفساد الأخلاق .

لا ريب كان نظام حكم الفرد (الذى جاء مع حركات الجيش) بديلا عن النظام الديمقراطى الغربى على عيوبه عاملا هاماً فى دعم وجود إسرائيل وجعل مجال الحركة فى

الداخل من أجل شغل القوى الإسلامية والعربية عن التغلغل الصهيونى والتمكن والسيطرة على أرض فلسطين كلها بعد أن رفض العرب قرار التقسيم .

ولقد كان إرهاب القوى الحاكمة ضد الإسلاميين عاملا هاماً فى التمكين لإسرائيل وللنفوذ الغربى والماركسى .

ولم يتكشف هذا إلا بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ : هذه الهزيمة المروعة لنا جميعا حتى قال موشى ديان على أثرها :

(إن ما حققناه من نصر أكبر بكثير مما تمنيناه) .

لقد كان حصاد ١٩٥٢ ـ ١٩٦٧ خلال خمسة عشر عاماً أخطر من كل ما كان متوقعاً .

* * *

الباب الأول

تصحيح مفهوم الإسلام
وإقامته على منهج أهل السنة والجماعة
من خلال الوحدة الإسلامية الجامعة

كان من أكبر معطيات الصحوة الإسلامية تصحيح مفهوم الإسلام وتحريره من مفهوم الدين اللاهوتى الذى فرض على الفكر الإسلامى منذ الحملة الفرنسية والاحتلال الغربى وفرض القانون الوضعى بديلا للشريعة الإسلامية المحتجبة .

لقد كان هذا هو العمل الواسع الذى شغل كل مفكرى الإسلام فى هذه المرحلة إيماناً بأن الشريعة الإسلامية هى المنطلق الوحيد لتجديد حياة الأمة الإسلامية اليوم بعد أن حجبها النفوذ الغربى خلال أكثر من قرنين (منذ وصول الفرنسيين إلى مصر ١٧٩٨ والاحتلال البريطانى ١٨٨٢) حيث طرحت فى أفق الفكر الإسلامى مفاهيم خاطئة تتركز أساساً على إثارة الشبهات حول تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجتمع الإسلام خلال العصور المختلفة والتشكيك فى ختام رسالات السماء بنزول القرآن وبعثة محمد ﷺ والإدعاء بأن هناك نبوات أخرى على نحو البهائية والقاديانية .

وقد امتدت هذه الشبهات إلى القرآن الكريم والسنة النبوية .

الفصل الأول

القـــرآن الكـريـم

حقق القرآن الكريم قدراً كبيراً من العطاء كاشفاً عن كثير من أسراره ومفاهيمه التى استطاعت العلوم الحديثة أن تعرض لها ، وفى خلال هذا القرن العشرين بالذات اكتشفت حقائق علمية حول حال الكون والخلق تتفق مع ما ورد فى القرآن كما شهدت الأعوام الماضية مؤتمرات الإعجاز العلمى للقرآن وكان آخرها فى مقر الحزب الشيوعى فى موسكو الذى حضره ٦٠٠ عالم من خبراء الجيولوجيا .

وقد تبين أن فى القرآن الكريم ٤٦١ آية تتناول علوم الأرض وقد ورد فى هذه الآيات إشارات علمية حول مختلف جوانب الأرض بدءاً من أمر نشأتها وحتى نهايتها ومنها إشارات لعلوم الأرض والحديد وبأسه الشديد .

فقد أشار القرآن فى آياته الكريمة إلى الكون والعديد من مكوناته مثل السماء والأرض وما بينهما من صور الأحياء والجمادات فضلا عن الظواهر الكونية المختلفة .

وتأتى هذه الإشارات فى مجال الاستدلال على القدرة الإلهية التى لا تحدها حدود وأيضاً على العلم والحكمة البالغين فى إبداع الكون وذلك فى معرض محاجة الكافرين والمشركين والمتشككين والرد عليهم لإثبات حقيقة الألوهية لرب العالمين .

ومن هنا فإن الآيات الكونية التى تضمنت إشارات علمية فى القرآن لم تأت من قبل الإخبار العلمى المباشر لسببين :

أولهما : أن القرآن الكريم هو أساساً كتاب هداية أى كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ، هى القضايا التى لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصورات صحيحة بجهده منفرداً وإنما يحتاج ذلك منها إلى الهداية الربانية .

ثانيهما : أن التعرف على الكون واستقراء سنن الله تبارك وتعالى فيه وتوظيف تلك المعارف والسنن فى عمارة الأرض أمور تركت لاجتهاد الإنسان عن طريق ملاحظاته المنتظمة واستنتاجاته للمنطق مع فترات طويلة من الزمن ولكن إذا كان القرآن الكريم هو

كتاب هداية وليس كتاب علوم وإذا كانت المعرفة العلمية قد تركت لاجتهاد الإنسان فما تفسير وجود العديد من الإشارات العلمية فى القرآن الكريم .

يقول الدكتور زغلول النجار : إن القرآن الكريم هو كلام الله (تبارك وتعالى) الذى أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته ولما كان من المحال أن يتعارض واقع الخليقة مع حديث الخالق فكان لابد أن تحتوى الآيات القرآنية التى تتعرض للكون ومكوناته على الحقائق الثابتة والتى لو استفاد بها المسلمون لكان لهم السبق فى اكتشافها .

ويقول الدكتور زغلول النجار إن الآيات القرآنية التى تناولت الأرض وبلغ عددها ٤٦١ آية موزعة على عدة مجموعات .

المجموعة الأولى : آيات تأمر الإنسان بالسير فى الأرض والنظر فى كيفية بدء الخلق وهى أساس المنهجية فى دراسة علوم الأرض .

المجموعة الثانية : آيات تشير إلى شكل الأرض وحركتها وأصلها ومن أمثلة تلك الآيات التى تصف كروية الأرض وتلك التى تشير إلى دورانها وفيها ما يشير إلى حقيقة الكون بجرم واحد (مرحلة الرتق) ثم انفجار ذلك الجرم (مرحلة الفتق) .

المجموعة الثالثة : آيات تتحدث عن حقيقة تكريم الجبال وأوصافها ووظائفها وصفاً دقيقاً فقد بلغ الإعجاز العلمى للقرآن أن تكون هذه الأمور فى كلمتين فقط ﴿ **والجبال أرساها**﴾ [سورة النازعات : الآية ٣٢] .

هذا التعبير الموجز يفسر نظرية تكوين الجبال ووظائفها ، ذلك أن العلم قد كشف مؤخراً أن الجبال تشبه الأوتاد التى تدق فى الأرض حيث تبين أن الشكل الخارجى للجبل (داخل جوف الأرض) الجزء الأكبر منه .

ويشير هذا الوصف أيضاً ﴿ **والجبال أوتادا**﴾ [سورة النبأ : الآية ٧] إلى الوظيفة الأساسية للجبال وهى تثبيت الغلاف الصخرى ، وهو ما يتأكد فى (٢٢ آية) قرآنية أخرى والتى أشارت إلى عدد من الصفات والوظائف للجبال مثل دورانها مع الأرض أو دورها فى شق الأودية والفجاج أو فى سقوط الأمطار وجريان السهول والأنهار .

المجموعة الرابعة : آيات تشير إلى نشأة كل من الغلافين المائى والهوائى للأرض حيث تصف الطبقة الرجعية الوقائية لغلافها الغازى ﴿**والسماء ذات الرجع** ﴾[الطارق : الآية ١١]

إذ تؤكد حقيقة ظلام الفضاء الكونى ، أو تناقص الضغط الجوى مع الارتفاع عن سطح الأرض .

المجموعة الخامسة : آيات تتحدث عن عدد من الظواهر البحرية الهامة مثل تمايز المياه فى بعض البحار والمحيطات حيث لا تختلط اختلاطا كاملا وهو ما يتجلى فى الفصل بين الكتل المائية فى حالة التقاء المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار .

المجموعة السادسة : آيات تشير إلى رقة الغلاف الصخرى للأرض وإلى تشويه سطحها وإلى تمهيده وإلى تناقص الأرض عند أطرافها .

المجموعة السابعة : آيات تؤكد إسكان ماء المطر فى الأرض بما يشير إلى تجمع المياه حول الأرض وفى داخل صخورها .

المجموعة الثامنة : آيات تؤكد أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة .

المجموعة التاسعة : آيات تصف نهاية الأرض والسموات وما فيها (الكون) بعملية متعاقبة لعملية الخلق الأولى .

وهناك من الآيات التى تتضمن إشارات علمية أخرى وحقائق حول الكون بما فيه ومن فيه ، وغالبية هذه الحقائق لم تكن معروفة للإنسان قبل هذا .



وفى مجال علوم القرآن ومناهجه استطاع العلماء أن يقدموا عدداً من المناهج :

الأول : التوحيد ويمثل ثلث الكتاب ولذلك قيل إن العقيدة تحمل ثلث الإيمان .

الثانى : (مائتى آية) الأحكام المسماة علم الفقة والدين وهى تنقسم إلى (١) ، (٢) .

١ ـ العبادات : وتمثل العلاقة بين الخلق وبين الله تبارك وتعالى وتضم الصلاة والزكاة وما يتصل بها من تعاليم .

٢ ـ المعاملات .

الثالث : الفقه وتقدم أنواع الحلال والحرام والكفالة والمضاربة وتقدم كل ما يتعلق بالمعاش .

الرابع : المعاملات وهى قسم الحدود التى تعاقب السارق والزانى ، وبه حد الزنا وحد الخمر وحد القتل وحد الردة .

الخامس : ينظم العلاقة بين المرأة والرجل والحى والميت (وهو قسم الأسرة) .

السادس : هو الذى ينظم العلاقة بين الأمة الإسلامية وغيرها وهو قسم المعاهدات بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن ناحية أخرى فالقرآن يضم الأقسام الآتية :

أولاً : العقائد التى يجب الإيمان بها : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ثانياً : الأخلاق التى تهذب النفوس وتصلح من شأن الفرد والجماعة .

ثالثاً : التدبر فى خلق السموات والأرض للتعرف على أسرار الله تبارك وتعالى فى كونه .

رابعاً : قصص الأولين أفراداً وأمماً للإرشاد إلى سنن الله تبارك وتعالى فى الأمم والحضارات .



وقد ركز الباحثون فى هذه المرحلة إلى إبراز الحقيقة الأساسية المرتبطة بالقرآن الكريم ، وهى أنه رسم المنهج الأصيل للبشرية والقادر على توجيهها إلى طريق الله تبارك وتعالى حيث رسم القرآن حقيقة التوحيد الخالص ومسئولية الإنسان والتزامه الخلقى ومهمته الحقيقية فى هذا الكون وهى عبادة الله تبارك وتعالى من خلال السعى والعمل وتعمير هذا الكون من خلال مفهوم خلقى أصيل ويقيم الحضارة الربانية على أسس العمل الصالح .

كذلك فقد رسم القرآن الكريم للإنسان والبشرية كلها نظام المجتمعات من حيث التعارف والتعامل فى مجالات الأسرة والمجتمع والاقتصاد ، وقدم كل ما يتعلق لسياسة الأمم وتربيتها وبنائها على منهج الله تبارك وتعالى .

وكان البحث فى ذلك كله منطلقاً من تصحيح مفهوم الإسلام التى حاولت القوى الغربية من الاستشراق والتبشير والتغريب قبول تصور مغلوط يجعل الإسلام ديناً لاهوتياً منفصلاً عن المعاملات ومفاهيم السياسة والاقتصاد والاجتماع .

لقد حرص علماء الإسلام أن يؤكدوا حقيقة منهج القرآن ومسئولية المسلم بدحض مقولة أن القرآن كتاب دين وأخلاق وليس كتاباً فى معاملات المجتمعات .

ولقد كان القرآن منهجاً جامعاً منذ نزوله ، يحرك المجتمعات ويوجهها وهو أساس نهضة المسلمين ، ولقد كانت نظمه وآياته مصدر القوانين الأساسية التى بنيت على حضارة الإسلام وكان هذا الفقه الواسع العريض مرجع علماء الغرب ومصدر كثير من القوانين التى عملوا بها .

وكان من أبرز مقررات الإسلام عن الإنسان أن له أفعاله الاختيارية وإرادته وعليها تقوم المسئولية الفردية ، وأن إرادة الإنسان هى مصدر حسابه وجزائه ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ [سورة النجم : الآية ٣٩] .

وقد دعا القرآن المسلمين إلى التعرف على سنن الله تبارك وتعالى فى الآفاق لتسخيرها وحسن التعامل معها ، وكذلك سننه فى الأنفس لتربيتها وتوجيهها صوب الهدف الإسلامى الأصيل .

وقد كشف الباحثون عن ترجمات المستشرقين لمعانى القرآن وكيف أنها ملئت بالدس والتحريف والتشويه والأخطاء ، ودعا الباحثون إلى أن الترجمة ليست للقرآن أساساً ولكنها ترجمة لمعانى القرآن وحذرت من أن تؤدى ترجمة القرآن إلى ضياع النص الأصلى وكشف عن أن الترجمة لا تحمل الإعجاز الموجود فى النظم العربى ، بل ولا تحمل معانى النظم العربى جميعاً ، ولن تحمل المعانى التى فهمها المفسرون .

وقد تبين من كتابات المستشرقين عن القرآن بروز وجهة نظرهم المسيحية واليهودية وتبين خطأ الوجهة التى يتجه إليها المترجمون المسيحيون فى جعل القرآن مؤيداً للإنجيل ، أو تابعاً له ، وهم (المستشرقون اليهود والنصارى) يترجمون القرآن على أنه من وضع النبى ﷺ ، وهم يبرزون فى تراجمهم عقيدتهم وآرائهم .

وتتميز ترجمات أهل السنة بالأصالة (ترجمة محمد حمد الله إلى الفرنسية ، وعبد الله يوسف على إلى الإنجليزية) .

كذلك فليس فى كتب العهد القديم والجديد ما يشير إلى وجوب قراءتهما بلغة معينة أما القرآن فقد نزل بلسان عربى مبين وأكد الحق تبارك وتعالى عربيته فى مواضع شتى ، ولقد أكد العلماء والفقهاء على عدم جواز الصلاة إلا بالعربية (قراءة القرآن) إلا عند الضرورة ، وقال المالكية : إن من لا يحسن قراءة الفاتحة يجب عليه أن يتعلمها .

وأن على المسلم أن يؤمن بالإعجاز القرآنى فى نصه الربانى المنزل باللغة العربية ويرى محمد بهاء قطب : أن القرآن ككل كلام عربى بليغ (معان أصلية) وهى ما يستوى فى فهمه كل من عرف مدلولات الألفاظ المقررة وعرف وجوه إعرابها من فاعله ومفعوله وحاله وإضافته كما أن للقرآن معانى ثانوية ، فالمعانى الأصيلة التى هى مظهر بلاغته وملاك إعجازه ـ من غير الميسور ترجمتها ، إلا أن توجد لغة توافق اللغة العربية فى دلالة ألفاظها على هذه المعانى المسماة عند علماء البيان (خواص التركيب) .

قال الزمخشرى فى الكشاف : إن لكلام العرب خصوصاً القرآن من لطائف المعانى ما لا يستقل بأدائه لسان .

وليس فى هذا إنكار أن يكون فى اللغات الأخرى بلاغة ، ولكن فى تعذر ترجمة ما يحمله اللفظ العربى من دقائق المعانى فإن هذه أو بعضها مما لا يشير إليه اللفظ المرادف له من اللغة الأجنبية .

أما الذى يمكن نقله من لغة إلى لغة فإنما هو معانيه الأصلية حيث لا تقصر اللغات الأجنبية عن تأديتها .

والمعروف أن ترجمة القرآن ليست قرآنا ، إذ القرآن هو هذا النظم المعجز الذى وصفه الله تبارك وتعالى بكونه عربيا ، وبالترجمة يزول الإعجاز .

ويرجع الخلل الذى تشترك فيه الترجمتان الحرفية والمعنوية ، إلى أن يكون اللفظ ذا معنيين أو معان تحتملها الآية فيضطر المترجم إلى أن يضع بدلا من اللغة الأجنبية اللفظ الموضوع لما يختاره من المعنيين ، أو المعانى ، حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربى احتمال تلك المعانى المتعددة .

ومن هنا يجوز نقل معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية ، على أنها تفسير ، لا على أنها ترجمة مطابقة للأصل .

ذلك لأن الآيات المحتملة لوجوه متعددة ، لا يمكن نقلها من لغة إلى أخرى إلا على وجه واحد ، وهذا ليس بترجمة ، وإنما يصح أن يسمى تفسيراً .

الفصل الثانى

اللغة العربية والقرآن الكريم

عقد كثير من الباحثين خلال مرحلة الصحوة أبحاثا مستفيضة عن أثر القرآن الكريم فى عالمية اللغة العربية وكشفوا عن عمق ظاهرة سيطرة اللغة العربية على لغات البلاد التى دخلها الإسلام وتغلبت على اللهجات التى كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية حتى يقول ماسنيون : أن استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهرى للسلام بين الأمم فى المستقبل .

ويرى دكتور عبد العزيز بن عبد الله أن العربية كانت لغة أدب وشعر منذ أعرق عصور الجاهلية ، ولكن سرعة انتشارها يرجع إلى الثمار المادية والروحية التى جنتها من الإسلام ومن لغة القرآن ، حيث بدأ انحلال مركز الثقافة اليونانية فى الشرق الأدنى خلال القرن الثانى الهجرى ، حيث بدأت شعوب عريقة فى الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص وعوائدها ، لتنصهر فى ثقافة القرآن ولغة القرآن .

وقد وضح جوستاف لوبون أن العربية لغة القرآن أصبحت اللغة العالمية فى جميع الأوطان التى دخلها العرب حيث خلفت تماماً اللهجات التى كانت مستعملة فى تلك البلدان ، كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية .

وانتشرت العربية فى أنحاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة وقد قضت حتى على اللاتينية لا سيما فى شبه الجزيرة الليبيرية (أسبانيا والأندلس) حيث ندد الكاتب المسمى (الفارو) من رجال القرن التاسع بجهل مواطنيه باللاتينية ، فقال : إن المسيحيين يتمثلون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ، وقال وزير من أهل الذوق من الأسبان : إن الأسبان بهرتهم بضاعة الأدب العربى واحتقروا البلاغة اليونانية ومضوا يكتبون بلغة العرب الفاتحين .

وإن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر فى أسبانيا إلى عام ١٥٧٠ ذلك أن العربية قد اكتسبت منذ فجر الإسلام معظم مقوماتها بفضل أثر الفكر القرآنى .

نعم إن اللغة العربية التى بلغت مبلغاً كبيراً من المرونة والثروة فى العهد الجاهلى أدركت فى القرن الرابع الهجرى إبان تبلور الفكر القرآنى أوج كمالها .

وقد وصفها فيكتور بيرار بأنها كنز يذخر بالمفاتن وتفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز وروعة التصوير ، حتى أصبح نفوذ اللغة العربية بعيد المدى ، وحتى اضطر رجال الكنيسة إلى تعريب مجموعاتهم القانونية ليسهل قراءتها فى الكنائس الأسبانية .

قال الرحالة بوكارد : وقد علمنا القرآن كيف نقتبس من مختلف اللهجات أجود مصطلحاتها فى مختلف المجالات فكان عدد هذه المصطلحات فى القرآن مائة مصطلح ، وفى الحديث ثلاثمائة ، ونتج عن ذلك ذيوع العربية كلغة للفكر والحضارة ، ومن ثَمَّ أصبحت العربية فى العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون ـ لغة دولية للحضارة ، ثم أخذت الدول الأوربية فى تدريس اللغة العربية (السويد ١٦٣٦م ـ روسيا ١٧٦٩ م) .

ودخلت إلى اللغات الأوربية كثير من المصطلحات العربية من الأكسير ـ والجبر واللوغرتم .

واستمد الأسبان حسب ما يقول ليفى بروفتسال معظم أسماء الرياحين والأزهار من العربية إلى مصطلحات العلوم الطبيعية .

بل إن الإصلاح الخاص بالكنيسة تأثر إلى حد كبير بالطابع العربى ، وقد اعترف البارون رادون مؤلف فكرة الإسلام بأن الإسلام علم المسيحية منهاج التفكير الفلسفى ، وهو ثمرة عبقرية أبنائه الطبيعية .

ويقول ماسنيون : إن العربية استطاعت بقيمها الجدلية والتفسيرية والصوفية أن تضفى سربال الفتوة على الفكر الغربى .

وقد أشارت عدة أبحاث ظهرت فى هذه الفترة عن الحملة المركزة على القرآن الكريم ، فهى متصلة ، حتى تؤكد الدكتورة زينب عبد العزيز أن ترجمات معانى القرآن منذ القرن السابع عشر وحتى الآن بأقلام مستشرقين كبار لهم أسماء رنانة ، ولم تكن فى حقيقتها إلا تحريفاً لمعانى القرآن متستر وراء أردية علمية ومنهجية حتى جاء المفكر الفرنسى الكبير جاك بيرك ليرفض انتمائه إلى حركة الاستشراق ويتمسك بأنه دارس للتاريخ ومؤرخ ، ولكنه حين

أصدر ترجمته لمعانى القرآن التى صدرت فى فرنسا ١٩٩٠ كشف عن وجه آخر فقد برر اهتمامه بتقديم معانى القرآن مشوهة للغرب (لأن الكثير من الناس والمفكرين الذين ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ويرفضون مجتمع الاستهلاك ، هذا المجتمع المادى الأرضى ويفضلون عليه المدنية المعاصرة) : مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها فكأنه أراد أن يقول للمفكرين الغربيين الذين أصبحوا يرفضون حضارة الغرب الآن ويرون أنها على وشك الانهيار لأنها فقدت الأساس الروحى ، يريد أن يقول لهم : هذا هو الإسلام أيضاً ملىء بالخرافات والتناقضات إلى آخر الاتهامات القديمة المعروفة التى تتردد كثيراً .

وهناك مستشرق آخر هو (رجيس بلاشير) الذى استشهد به جاك بيرك كثيراً والذى يقول فى مقدمة كتابه عن القرآن : متحدثاً عن الصورة المشوهة التى قدمتها أوربا عن الرسول ﷺ وإلى ترجمات معانى القرآن منذ القرن الخامس عشر فيقول : إن هذه كلها تمثل عنصراً أساسياً فى الصراع القائم ضد الإسلام .

وجملة ما أورده جاك بيرك يتمثل فى المحاور الأساسية الآتية :

أولاً : التشكيك فى نزول وترتيب وتجميع القرآن .

ثانياً : تأثر القرآن بالشعر الجاهلى وبالفكر اليونانى القديم .

ثالثاً : التشكيك فى أن القرآن تأثر بمزامير داوود .

رابعاً : احتواء القرآن لخط أسطورى ميثولوجى .

خامساً : إن مفهوم (الله) تبارك وتعالى فى القرآن يثير الخوف فى نفوس المؤمنين (ويغفل أن الله هو الرحمن الرحيم السلام الودود) .

سادساً : التناقض بين الإشارة إلى أهمية العقل فى القرآن وبين الإيمان بالغيب الذى يعنى عنده مساحات من الظلام .

(ويغفل أن الغيب هو ما يمثل علم الله وإرادته المطلقة وغير المحدودة بينما علم الإنسان وإرادته لهما حدود بحكم طبيعته النسبية) .

سابعاً : إن التشريع الإسلامى مرجعه الفقه ، وهو تراكمات قضائية غير واردة فى القرآن الذى لا يتضمن إلا حوالى خمسمائة آية تتضمن الأحكام .

ونقول : إن أقل ما يمكن أن يقال هو أن القرآن لا يتضمن آية قرآنية بالمعنى المفهوم لا

فى العبادات ولا فى مفهومها ، ثم ينتقد غوامض التعبيرات فى الأحكام ويناقض الشريعة ويتهم بعض المفسرين الكبار بتحريف معانى بعض الآيات كما يحاول الادعاء بأن مفهوم (الله ـ جل شأنه) فى القرآن هو ترديد لتراث لذات المفهوم فى الفكر اليونانى .

ويردد جاك بيرك نفس الأكاذيب عن عدم قدرة الإسلام على الحياة فى عالم يعيش ثورة التكنولوجيا وإنجازات العلوم الحديثة ويواجه تحديات من نوع جديد وينتهى إلى تساؤل أقرب إلى التشكيك فى قدرة الإسلام على التأقلم مع ضروريات المستقبل .

وقد أعدت « الدكتورة زينب عبد العزيز » دراسة صافية تحت عنوان (ترجمات القرآن إلى أين) نبهت فيها إلى خطورة الأخطاء والمغالطات فى كتابات جاك بيرك فى وقت يشهد فيه الغرب حملة شعواء ضد الإسلام ، حيث احتوت مقدمة جاك بيرك على العديد من المغالطات عن الإسلام ومصدره الأساسى وهو القرآن الكريم ، وأخطر هذه المغالطات زعمه بأن القرآن الكريم لا يتضمن أصول التشريع الإسلامى ، وأن الفقه الإسلامى الحالى مكون من تراكمات قضائية غير واردة فى القرآن الكريم ، ويدعى أن الإصلاح القانونى الذى أجراه الإمبراطور جوستنيان قد انتقل بفضل التجار إلى العرب ، وهى مغالطة قديمة رددها عشرات المستشرقين ، ورد عليها علماء الإسلام ودحضوا كذبها ، بل لقد كشفوا عن أن القانون الرومانى هو مأخوذ فى الحقيقة من القرآن والشريعة الإسلامية .

ولا ننسى فى هذا المجال أن نذكر موقفا كريما للدكتور مراد هوفمان الذى اهتدى إلى الحق ، حيث يقول : إن القرآن ليس آخر الكتب المنزلة فحسب ، بل هو أهمها على الإطلاق إن لم يكن هو الأصل الأوحد للإسلام .

والمسلم يؤمن بأن القرآن كلمة الله ، وأنه ليس مخلوقا من المخلوقات ، وأن الله أوحاه إلى محمد ﷺ بلسان عربى مبين فى تلك الفترة الزمنية المحددة ، وهو معجزة الإسلام الوحيدة ، والدليل القاطع والبرهان الساطع على نبوة محمد ﷺ .

ليس القرآن إذن كالعهد القديم أو الجديد حيث يقص فيهما شخص ما حديثاً غير مباشر عن شخص أو شيء أو عن الله (تبارك وتعالى) أما القرآن ، فإن القاص الذى يقص أحسن القصص هو الله تبارك وتعالى مباشرة سبحانه ، يخبر الله فيه عن من يشاء أو عما

يشاء ، كما يعلمنا أن ننزهه عن الجنس والنظير والشبيه فيخبر عن نفسه بضمير الفرد المتكلم وضمير المتكلم الجمع وضمير القالب المفرد لكى نظل واعين بمسألة تنزيهه سبحانه عن التجسيد أو التشخيص ، وقد يشك غير المسلم فى موثوقية الوحى وأصالته ، ولكنه لا يستطيع الشك فى أصالة القرآن وموثوقيته وأصالة نصوصه ، فلقد تحداهم الله تبارك وتعالى كما تحدى غيرهم من المفكرين أن يثبتوا العكس فعجزوا مع ما هو متوافر لديهم من وسائل الدرس والنقد والمقارنة وبصر باللغة وعلومها ، ولا يزال هذا التحدى قائما ولا يزال عجزهم بيناً .

ويروى مراد هوفمان موقف الدكتور موريس بوكاى من القرآن وهو المسيحى الغربى الذى درس القرآن ليهاجمه فآمن به .

يقول : كان بوكاى قد قام فى أول الأمر بتعداد الحالات الكثيرة التى يوجد فيها تناقض بين الكتاب المقدس (التوراة) والحقائق الثابتة مثل تسلسل الخلق ونسب المسيح وتواريخ بعض الأحداث التاريخية المتعلقة به ، كذلك كرر تعداد التناقضات الشهيرة بين الروايات الإنجيلية المختلفة ، مثل القيامة وسر العشاء الربانى .

وبعد أن انتهى من التوراة والإنجيل انتقل إلى القرآن وهو متوقع أن يكتشف نقاط ضعف فى القرآن مماثلة لما اكتشفه من نقاط ضعف فى الإنجيل ، وكان هدف بوكاى من تلك الدراسة أن يجد الفرصة لمهاجمة القرآن من خلال تعداد المتناقضات التى كان يتوقع أن يجدها فيه ، ثم يقارنها مما قام بتعداده من المتناقضات فى الإنجيل ، وكان يأمل فى نفس الوقت أن يجد من المتناقضات فى القرآن أكثر مما وجد فى الإنجيل لكنه ظل متلبساً بالدهشة وهو يدرس القرآن ، لأنه لم يعثر على أى تناقض على الإطلاق مما انتهى به إلى الإيمان بأن القرآن لا يمكن أن يكون سوى وحى معصوم من الله العلى القدير سبحانه لم تعبث به يد بشر ، وهى نفس الحقيقة التى قال فيها جل شأنه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [سورة الحجر : الآية ٩] .

ويقول هوفمان معلقاً على موقف بوكاى من القرآن بعد دراسته له :

يعترف بوكاى بأنه قد أصيب بالدهشة الشديدة عندما اكتشف لأول مرة عدم إمكانية

النيل من صحة القرآن على أساس نقاط ضعف مماثلة أو قريبة (مما وجده فى الإنجيل) ، كما أدهشه أن يعلم على النقيض من ذلك ، أنه لا يوجد بيان قرآنى واحد لا يمكنه الصمود بصلابة للتمحيص العلمى ، سواء تعلق هذا البيان بالحقائق الكونية أو الروائية أو الأبحاث التى تجرى فى أعماق البحر بل إن القرآن قد أثبت مصداقيته بالنسبة لما جاء فيه من تفصيلات حول نمو الجنين كما نعرفه اليوم ، والتى لم يمكن التحقق منها إلا أخيراً بفضل استخدام مجهر فحص داخل الرحم ، ويعلق على انتهاء بوكاى من دراسته للقرآن التى جعلته يتحول من مخاصمته القرآن عن جهل به إلى مصالحته وصحبته والإيمان اليقينى به ، (هذه هى الحقيقة التى دفعت بوكاى) إلى أن يؤكد (إيمانه اليقينى بالقرآن) ومن ناحية أخرى فإن وقوف (بوكاى) حتى على العديد من الأحاديث الضعيفة المليئة باللغو الطبى والمنسوبة إلى النبى ﷺ فإنها لم تزد اعتقاده إلا يقيناً .

* * *

الفصل الثالث
حجيــة الســُّـنَة

يقول الدكتور يوسف القرضاوى : تنقسم السنة النبوية إلى قسمين :

القسم الأول : ما أمر الرسول ﷺ بتبليغه ونزل فيه قول الله تبارك وتعالى ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ . [سورة الحشر : الآية ٧] ويدخل فى هذا الجانب أخبار الجنة والنار وجميع الأمور السمعية والغيبية والعبادات .

القسم الأول : ليس من باب تبليغ الرسالة وقد جاء الحديث :

إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر ، والخطأ الذى يقع فيه البعض هو أنهم خلطوا بين الأمرين ولم يفرقوا بين ما نحن مأمورون بتنفيذه وبين ما نحن غير مأمورين به من أفعال الرسول ﷺ .

ويحاول البعض إخراج أحاديث كثيرة للرسول ﷺ من دائرة التشريع اعتماداً على قول الرسول ﷺ : « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** » فكيف نحدد ما يدخل تحت هذا الحديث وما لا يدخل ؟ .

عندما يقول الرسول ﷺ قولاً فى أمر من أمور البيع والشراء أو الوكالة أو الرهن أو الكفالة فلا يجوز العدول عنه ، إنه من المهم تحديد ما هو من الدنيا وما هو من أمور الدين مع خطأ محاولة إخراج الأحاديث التى قيلت من ميدان المعاملات وهذه الأحاديث هى معظم الفقه الإسلامى ولا تدخل تحت حديث « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** » .

فالفقه فى جمهرته قائم على السنة فلو أخرجنا السنة من هذا المدار ما بقى لنا فقه ولا بقى لنا تشريع .

قال الدهلوى : اعلم أن ما روى عن النبى ﷺ فى كتب الحديث على قسمين :

أحدهما : ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة ومنه قوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ . [سورة الحشر : الآية ٧] .

ومنه علوم المعاد وعجائب المكتوب ، وهذا كله مستند الوحى وهى السمعيات وما

يتعلق بها ، ومنه شرائع وضبط العبادات والإنفاقات وبعضها يستند للوحى وبعضها يستند إلى الاجتهاد ، واجتهاد النبى ﷺ بمنزلة الوحى لأن الله عصمه .

القسم الثانى : ما ليس من باب تبليغ الرسالة .

ومنها قوله ﷺ « **إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر** » وتدخل شرعية التداوى بصفة عامة فى باب التشريع . « **إن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام ولا تتداووا بخبيث** » .

ذلك أن الله لا يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم وللرسول ﷺ جانبا بشريا مثلنا تماما ، أى أن له طبيعة وجبلة تدفعه لحب شىء أو الإعراض عنه ، فهل نحن مكلفون بإتباع الرسول ﷺ فيما يصدر عنه كبشر بجانب ما يصدر عنه نتيجة الوحى .

للرسول ﷺ الجانب البشرى المماثل لسائر الناس ، والبشرية لها مقتضاها من المأكل والمشرب والمعاشرة وغير ذلك .

وقد جاء أن الرسول ﷺ كان يحب القرع وهذا جانب بشرى وليس من السنة أن نحب القرع فحبه والإعراض عنه أمور جبلية .

والرسول ﷺ بشر ممتاز من الناس وبحكم امتيازه البشرى له خبرة بالبيئة وبالناس وليس كل شىء يوحى إليه وإنه ليس له من عمل إلا التبليغ وقد بين النبى ﷺ الفرق بين ما هو وحى وما يصدر عنه كبشر .

فموضوع الأكل على الأرض أو غيره لا يظهر فيه قصد التشريع وإنما هى عادة العرب وحكم بينهم .

أما الأكل باليمين فأمره يختلف ، فإن هناك أحاديث زاخرة أمرت بالأكل باليمين « **لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله** » والسنة قد تكون تشريعا أو لا تكون .

جاء ذلك كله رداً على محاولات الاستشراق والتغريب من الطعن فى حجية السنة والادعاء بأن السنة لا تعدو أن تكون توجهات ومصالح وآداب عامة غير ملزمة للمسلم ولا واجبة الاتباع .

ولقد أكد العلماء حجية السنة وأنه لا نزاع فيها بين المسلمين ، وأنها ضرورة دينية فاستبعدت أن يكون ما قاله أصحاب هذه الدعوة حقاً ، والواقع أن المسلمين القدامى لم يختلفوا فى حجية السنة ولو كانوا قد اختلفوا لنقله العلماء فقد كانوا شديدو العناية بنقل الخلاف بين السلف والخلف وقد تأكد من الدراسات الجادة ما يأتى :

أولاً : مساواة السنة للكتاب (القرآن) فى الحجية .

ثانيا : استقلال السنة بالتشريع .

ثالثا : عصمة الأنبياء هى العمدة فى إثبات حجية السنة .

وإليها تستند الأدلة الأخرى على هذه الحجية فهى الدعامة الأولى والكبرى التى يقوم عليها مفهوم حجية السنة .

وفى توجه استشراقى آخر يجرى الاهتمام بالسنة وترك القرآن وذلك من باب شغل المسلمين بالفرع دون الأصل .

حيث تأتى السنة بعد القرآن وحسن فقهها يجىء من حسن الفقه فى الكتاب نفسه .

قال الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل .

ويحذر العلماء من التأليف فى الفروع وإثارة معارك فى هذه الميادين عن طريق (فقهاء الفروع) الذين خدعوا العوام وأوهموهم بأنهم يشرحون كتاب الله .

والطريق الصحيح هو شرح الحقائق الثابتة من كتاب الله تبارك وتعالى وما صدق من حديث رسوله ﷺ فحسب .

* * *

الفصل الرابع

الشـريعـة الإسـلامـيـة

كان البحث حول الشريعة الإسلامية قائما على عدة عمد أساسية :

أولاً : عالمية الشريعة وعظمة عطائها الربانى .

ثانياً : استقلالية الشريعة وعدم ارتباطها بأى فقه وقانون آخر .

ثالثاً : استمرار تطبيقها خلال عصور الإسلام المختلفة .

رابعاً : إن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم ومنهج مجتمع .

خامساً : إن الإسلام على طول تاريخه لم يعرف الدولة الثيبوقراطية ولم يعرف ما يسمى رجال الدين وإنما يعرف علماء الدين الذين ينصحون الحكام ولا يتولون الحكم .

وكانت مقولة أن الشريعة الإسلامية لم تطبق إلا فى عهد الخلفاء الراشدين ثم غلبت عليها مفاهيم القبلية مما ردده الدكتور طه حسين وجماعة العلمانيين والغربيين ، هذه المقولة لم تصدق أبداً ، فقد أكدت المراجع التاريخية أن الشريعة الإسلامية كانت مطبقة وقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصر ١٧٩٨ وقد أشارت إلى ذلك كتابات الفرنسيين أنفسهم (فى كتاب وصف مصر) وفيما سجله المؤرخ الكبير الجبرتى والواقع أن الشريعة الإسلامية ظلت هى النظام الحاكم حتى دخل الاستعمار فى القرن التاسع عشر الميلادى البلاد التى اقتطعها من الدولة العثمانية فأدخل فيها قوانينه وأقام المحاكم المختلفة وأخذ فى حجب الشريعة حتى قضت حركة الجيش على القضاء الشرعى ١٩٥٦ .

وهذا يعنى أن الشريعة هى الحاكم فى المجتمع الإسلامى خلال ثلاثة عشر قرنا وليست أمراً تاريخياً انتهى من فترة بعيدة .

ومع ذلك وخلال هذين القرنين اللذين حجبت فيهما الشريعة عاش المجتمع الإسلامى فى ظل النظام الإسلامى يتشكل عقديا وسلوكا ولم يشهد الانحراف التربوى إلا بعد تطبيق القانون الوضعى مما جعل المناداة بتطبيق الشريعة غريباً لأن المفاهيم التى نشأت عليها الأجيال الأخيرة منقطعة الصلة بالشريعة الإسلامية (دكتور سيد درش) .

ويناقش الدكتور محمد سليم العوا مقولة خصوم الإسلام فيقول :

لقد ظل الإسلام على مدى التاريخ دينا ودولة والقرآن كله شريعة وليس مجرد عقيدة لا يتحقق الإيمان إلا بها .

﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ [سورة الجاثية : الآية ٨]، **﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس .... ﴾** [سورة النساء : الآية ١٠٥]

والواقع أن الصحابة لم يختلفوا على الخلافة ولكن على الخليفة .

إن الغرب يتخوف الآن من أن تكون (الحاكمية الإسلامية) باباً يدخل منه الاستبداد باسم الدين ، ونحن نقول : هل ترون فى تاريخ الإسلام نفس المنهج الذى كان عليه الحال فى تاريخ أوروبا الكنيسى فى تلك الفترة ، نحن ندعو أن يكون حكامكم منكم وأن يكون الحكام محكومين بالإطار الذى حكم به النبى ﷺ .

نحن نقود الأمة إلى الأمام ، نريد أن نخرجها من هذه التبعية إلى قمة الاستقلال ، نخرجها من الاستبداد الأجنبى لتصنع لنفسها مأكلها وملبسها وسلاحها فكيف يرد علينا بأننا نجرها إلى الماضى .

نحن ندعوا أن تلتزم الأمة بكل نص تفصيلى من الكتاب والسنة وتقيم اجتهادها خارج النصوص التفصيلية على القواعد الكلية الواردة فى الكتاب والسنة وهى لا تزيد على ٥٠٠ آية وحديث .

أما ما عدا ذلك من نظم المجتمع وسياسته واقتصاده وتعاليمه وحربه وسلمه فكله متروك للناس يقيمونه على ما يرضى الله تبارك وتعالى ، إن العقيدة الإسلامية لا ترد إلى الوراء من يبغى التقدم ، ولكن القعود والهوان والذل الذى فى النفوس هو الذى يجعلنا كما نحن الآن وهل يصح الإيمان الدينى مع إنكار الشريعة الإسلامية ، وهل يكتمل الإسلام مع تعطيل الشريعة ، وهل ثوابت الشريعة صالحة لكل زمان ومكان .

وهل أنت على بقاء مواد الدستور الدائم الذى ينص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وأن مبادىء الشريعة هى أساس التشريع .

ويؤكد الدكتور محمد سليم العوا إن الصعوبات التى أدت إلى إقصاء الشريعة حتى اليوم فى بلدان إيران وباكستان والسودان ومصر وماليزيا وسوريا والمغرب وأندونيسيا تعود كلها

إلى الوضع الاقتصادى لهذه الدول وحاجتها الدائمة إلى الاعتماد على المعونة الأجنبية .

علينا أن نعيش الشريعة وأن ندع المطالبة بتطبيق الشريعة فلا أحد يعارضنا فى تطبيق الشريعة على أنفسنا وأسرنا ، وأن هذه هى الخطوة الأولى التى ستقود إلى تطبيق الشريعة بشكل عام .

إن سبيلنا الآن أن نعيش الإسلام كأفراد ومؤسسات حتى يسود الإسلام فى علاقتنا بعضنا ببعض ، وأن نعيد تربية أنفسنا على أساس من الشريعة الإسلامية .

إن مسئولية الأفراد فى الانحراف عن تطبيق الشريعة لا تقل عن مسئولية المؤسسات ، وأن الإسلام لا يسمح لنا بإلقاء العبء كله على الدولة وحدها .

لا نريد أن نكرر أى نموذج سابق ولكننا نريد إسلام محمد ﷺ كما نزل به القرآن ليصبح نبراساً هاديا لنا فى الحياة .

لقد كان التخلى عن الشريعة معياراً للتخلف والتراجع الحضارى الذى شهدته بلادنا فى عصور عسكرة الدولة التى اقترنت باختراق مشروعية الشريعة الإسلامية .

وقد جرت أبحاث كثيرة حول الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى حيث يدور التشريع الإسلامى حول الإنسان ـ وطبيعة الإنسان لا تتغير بتغير الزمان والمكان كما يقول الدكتور محمد شاق ـ فقد يتغير مظهره الخارجى ولكن لا يتغير مخبره ، فطبيعة الإنسان باقية كما هى على الرغم من اختلاف العصور وتفاوت مجتمعاتها ثقافةً وتعلماً ، حيث لا تتغير متغيرات الزمن والبيئة وتطورها لا يغير الركائز الثابتة الأساسية للشخصية الإنسانية .

ولا شك أن وصف الشريعة الإسلامية بالقصور عن متطلبات العصر وتلبية الاحتياجات الجديدة ، هذا القول يمكن أن يوجه لغير الشريعة الإسلامية من القوانين والشرائع القديمة ، أما الإسلام فإن الشريعة هى من صنع الله تبارك وتعالى .

أما ما يمكن أن يوصف بالقصور فهو الفقه الذى يتجدد مع الزمن والذى يتخذ نبراساً للفتوى مع العمل على مقابلة متغيرات الزمن وفق قاعدة الإسلام فى الثوابت والمتغيرات .

أما بالنسبة لمقولة أن العصر الحديث لا يقبل الأحكام القاسية فى العقاب ، فهناك مندوحة من الحاكم ، فقد وضع الحق تبارك وتعالى للشريعة قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور وتتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليه الحياة من الاستقرار أو تتفق مع جميع الأجناس البشرية ، ومع ذلك فقد تركت التفصيلات والتفريعات لعقل الإنسان يشخصها حسب عصره وبيئته ومتطلبات الظروف المحيطة به ودون أن يخرج عن الخط الرئيسى الذى

رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع فالقضايا الكلية فى الإسلام هى قواعد التشريع الأساسية التى تصلح لكل شعب وتلبى احتياجات كل المجموعات البشرية على اختلاف ألوانها وأجناسها .

وقد ذخر الفقه بالفروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة .

وهذا دليل على سعة الفقه الإسلامى وصلاحيته لمواجهة الأحداث المتغيرة .

وهناك مجموعة من الحقائق التى يجب أن تكون تحت أبصارنا ونحن ندرس الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى .

أولاً : الشورى :

وقد أثيرت شبهات كثيرة حول الشورى وهل هى ملزمة أم غير ملزمة والشورى هى ركن هام من أركان الإسلام وهى التى تمثل البرلمان فى العصر الحديث فلابد للحاكم من أن يرجع إلى البرلمان وأن يكون رأى البرلمان ملزما للحاكم والشورى ملزمة ، ويجب أن تقوم وحدة المسلمين أولا ثم الحكم الإسلامى ثانيا .

وقد كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم يراجع أصحابه ، وقد قبل ما عرضه الحباب بن المنذر فى بدر فى تغير المكان وروجع عمر .

ثانياً : الاجتهاد :

أقر الإسلام الاجتهاد لمواجهة متطلبات العصر ، على ألا يتعارض مع النص بل يكون مبنياً على النص .

والفقه هو مجموع اجتهادات ونصوص وبعضه قياسى .

فالمصادر هى القرآن والسنة والإجماع والقياس والأخذ بالمصالح التى يتمسك بها لمصالح المسلمين العامة ، وشروط المجتهد أن يكون إماماً فى النحو والفقه .

ثالثاً : الخلافة :

لم تكن حالة الخلافة مدعاة لإسقاطها ولكن كان يمكن إصلاحها وقد خسر العالم الإسلامى خسارة كبيرة بزوال الخلافة العثمانية ، وإذا كانت الخلافة العامة مستحيلة الآن فالمطلوب اتحاد الكلمة بين رؤساء المسلمين ، وقد وضعت عدة أبحاث لإيجاد بديل للخلافة تحقق أهدافها وتتمشى مع العصر (عبد الجليل شلبى) .

الفصل الخامس

الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى

ترددت مقولات المبتشرقين ومن تابعهم من التغريبيين والعلمانيين حول ما سمى بتأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى .

يقول الدكتور صوفى أبو طالب : كان لتلاقى الشرع الإسلامى مع القانون الرومانى فى أرض البلاد الإسلامية حجة ووسيلة للطعن فى الإسلام حيث زعموا أن الشرع الإسلامى ليس إلا تعديلاً للقانون الرومانى وقد جاء ذلك فى محاولة بث رسالة غير مباشرة للشعوب الإسلامية تشكك فى الشرع الإسلامى وتدعو إلى غض الطرف عن أية قوانين أو أحكام تتعارض أو تصطدم به ، وحجتهم فى ذلك أنه إذا كانت الشريعة الإسلامية ليست إلا تعديلا للقانون الرومانى فى قواعدها ومادتها وأحكامها ، فإنه لا تثريب على المشرع فى البلاد الإسلامية من الاقتباس والنقل من القوانين الوضعية المأخوذة من القانون الرومانى حتى ولو لم تتفق مع الشرع الإسلامى فى بعض الجزئيات لأن الأصل أو الأساس لكل منهما هو القانون الرومانى وقد جاء هذا الادعاء بدعوى أن انتشار المجتهدين المسلمين فى البلاد التى فتحها المسلمون مكنهم من الاطلاع على قواعد القانون الرومانى الذى كان مطبقاً فى هذه البلاد (وأهم مدارس القانون الرومانى كانت فى بيروت والإسكندرية) حيث استمر تدريس القانون الرومانى بعد الفتح الإسلامى .

هذه الحجج تصطدم بواقع التاريخ والحقائق العلمية الثابتة فمدرسة بيروت لم يبق منها إلا الحوائط عام ٥٥١ م وعندما فتح المسلمون الشام عام ٦٣٥ م لم تكن موجودة فكيف يتسنى للمسلمين دراسة القانون الرومانى أو الاطلاع عليه فى مدرسة بيروت التى زالت قبل فتح بيروت بأكثر من قرن من الزمان .

ونفس القول ينطبق على مدرسة الإسكندرية فقد أغلقها الإمبراطور جوستنيان عام ٥٣٣ م قبل فتح العرب لها بأكثر من قرن من الزمان .

وربما قيل إنهم اطلعوا على كتب القانون الرومانى فى مكتبة الإسكندرية حيث ذهب

البعض إلى أن عمرو بن العاص قد أحرق مكتبة الإسكندرية بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب .

والواقع أن العرب لم يكن فى مقدورهم الاطلاع على كتب القانون الرومانى عن طريق مكتبة الإسكندرية لسبب أنها لم تكن موجودة عند فتح العرب لمصر وبالتالى لم يحرقها عمرو بن العاص .

إذ أن المؤكد تاريخياً أن مكتبة المتحف قد حرقت عام ٤٨ ق . م عندما حرق يوليوس قيصر أسطوله فى ميناء الإسكندرية أما مكتبة السرابيوم فقد أحرقت عام ٣٩١ عندما أحرق نيوفيلوس معبد السرابيوم .

ولقد كانت مكتبة الإسكندرية موجودة عند فتح العرب لها لما أغفل ذكر حرقها (حنا النيقوس) الذى كان قريب العهد بفتح مصر وكتب عنه ، ولما أغفل المقوقس الوالى الرومانى النص عليها فى شروط الصلح على تسليم الإسكندرية ، نخلص من ذلك أن مدارس القانون لم يكن لها أى أثر فى تكوين عقلية الفقهاء المسلمين .

ولماذا لا يتأثر الفقه الإسلامى بحركة الترجمة .

ذلك أنه لم يتح للمسلمين فرصة دراسة أو معرفة الشريعة الرومانية فى مدارس القانون بالشرق كما زعم المستشرقون وسبب ذلك كان لهدم تلك المدارس بفضل الزلزال قبل الفتح الإسلامى .

والسؤال هو : ما مدى تأثر الفقه الإسلامى بنتاج حركة الترجمة التى قام بها المسلمون للكتب الأجنبية ، كانت فى عصر يزيد بن معاوية وازدهرت تلك الحركة فى عهد المأمون فى الدولة العباسية .

فقد عدد (ابن النديم) فى كتابه (الفهرست) أسماء الكتب التى ترجمت والمترجمين ولم يذكر بينها كتابا واحداً فى القانون .

وفى الوقت الذى أثمرت فيه حركة الترجمة ثمارها فى محيط الفلسفة والأدب والعلوم وانتقلت فيه الزعامة العلمية إلى مدرسة المعتزلة كان الفقه الإسلامى بمنأى عنها .

فإذا سألنا عن الأسباب التى جعلت ميدان الفقه الإسلامى بعيداً عن التأثر بحركة الترجمة نقول : إن هناك عدة أسباب ساهمت فى تحقيق هذه النتيجة :

السبب الأول : هو أن موضوعات الفقه الإسلامى كانت قد تحددت منذ النصف الأول من القرن الأول الهجرى ، فقد انصرف المسلمون الأوائل كلية طيلة العصر الأموى الأول إلى العلوم النقلية التى تعتمد على القرآن الكريم سواء تفسيره أو استخراج الأحكام الفقهية منه ، أما العلوم العقلية كالطب والرياضية فهى لم تزدهر إلا منذ القرن الثانى أيضاً فقد خلف الصحابة ومن جاء بعدهم ثروة ضخمة من الأحكام والحلول القانونية التى وضعوها للمسائل التى عرضت عليهم فى مختلف فروع القانون .

وقد كانت هذه الأحكام من الكثرة والدقة بحيث أمكن منها القول بأن مضمون الفقه الإسلامى قد تحدد من الوجهة الموضوعية منذ النصف الأول من القرن الهجرى الأول مما جعل قواعد التشريع الإسلامى بمنأى عن التأثر بأى قانون أجنبى لأن تلك القواعد وضعت بمناسبة حالات وقعت فعلا فى المجتمع الإسلامى فى ذلك القرن ، ولسبب آخر هو عدم تأثر الفقه الإسلامى بحركة الترجمة لسبب جوهرى هو اكتمال فقه مدرستين من أهم مدارس الفقه الإسلامى وهى : المدرسة الحنفية والمدرسة المالكية ، أيضاً عدم ترجمة أى كتاب فى القانون الرومانى إلى لغة معروفة عند العرب قبل القرن الثالث عشر الميلادى .

ولما كان الفقه الإسلامى يعتمد أساساً عى الكتاب والسنة فإنه من ثم يمتنع على الفقهاء المسلمين استعارة أى مبدأ قانونى أو قاعدة قانونية من تشريع أجنبى .

أما كتب المنطق والفلسفة التى ترجمت فقد كان لها أمر آخر ، وهو صقل عقلية فقهاء القرن الثالث وتمكينهم من الإفادة من دراسة المنطق وطريقة تقديم الحجج والبراهين أو ترتيب الأقطار المتشابهة ولم تكن أصول الشريعة الإسلامية تسمح للفقهاء بالبحث عن أصول القواعد القانونية من غير الأدلة الشرعية والمعروفة فى أصول الفقه ، ولذلك كان أثر المنطق الإغريقى على الفقهاء المسلمين محدوداً لأن القياس ـ وهو أهم مجال لأعمال المنطق ـ كان معروفاً منذ القدم .

أما تأثر الفقهاء بالكتب المترجمة عن اللغة السريانية والتى كانت سائدة فى الشام قبل فتح المسلمين لها فرغم همة تلك اللغة وأثرها فى محيط الأدب والفلسفة فلم يكن لها أدنى أثر فى مجال القانون .

لقد خضع نصارى الشرق لأحكام الإسلام باستثناء بعض مشاكل الزواج والطلاق حيث كانوا يطلقون القانون الكنسى الذى اعتمد أساساً على الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة أ . هـ .

الفصل السادس

اختلاف وجهات النظر بين الإسلام والفكــر الغربى وتميـز الإســلام

ما يزال الإسلام وسيظل قادراً على تقديم نفسه هدى وبشرى للإنسانية فى كل عصر وجيل وكلما أدلهمت الخطوب وأظلم الطريق وتعددت صيحات الظالمين الذين يظنون أنهم قد حقق لهم التقدم المادى قوة يستطيعون بها إطفاء نور الله تبارك وتعالى ومن قلب هذه الظلمات ومن صميم هذه الأحداث يكشف الإسلام عن جوهره ويظهر الله تبارك وتعالى نور رسالته الخاتمة التى جاءت لتهدى البشرية إلى الحق وتخرجها من الظلمات :

١ ـ **وأخطر ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربى** عدم الفصل بين سلوك الإنسان وحياته الخلقية حيث لا يقبل الإسلام من الرجل المسئول أن يكون موصوماً بأى وصمة تتعلق بالأخلاق أما فى الغرب فإنهم لا يفرقون بين الحياة العامة والحياة الخاصة أو الرشوة .

ويقرر الإسلام خطأ المحاولة الفاشلة لفصل الحياة العامة عن الحياة الشخصية خاصة للفرد وبالتالى للمجتمع ، وكذلك خطأ مقولة أن حياة السياسى الخاصة لا تؤثر على حياته العامة ، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان غير أمين فى بيته وأميناً فى دائرة عمله .

ومن أخطر ذلك قبول تعدد العشيقات وعدم قبول تعدد الزوجات .

٢ ـ **لا توجد دولة دينية فى الإسلام** أو حكومة دينية فالحكومة نابعة أساساً من الإرادة الشعبية لتطبيق القرآن والسنة .

والحاكم ليس رجل دين لأن تطبيق الشريعة واجب على الحاكم إذا أداه فاز ورشد وإن لم يؤده خاب وندم .

أما العلماء فواجبهم هو توجيه النصح للحاكم ولا يشترط فى الحاكم فى الشريعة الإسلامية أن يكون عالماً وإنما عليه الاسترشاد برأى العلماء وتطبيقه .

٣ ـ **واقعية الإسلام** تتمثل فى نظرته إلى حياة الإنسان ككل متكامل ، وفهمه

العميق لحياة الإنسان (والاهتمام بالجوانب المادية والجوانب الروحية معاً) وأن يسلك سلوكاً وسطاً بين الشدة واللين فى تشريعاته .

ومن أخطاء النحل الغالبة ما حمل البعض عليه أنفسهم كالثنوية من الخصاء والوجاء وما فعله نساك الهند من إحراق الأجساد وما فعله النصارى من التردى من الجبال وترك عمارة الأرض ، وما عرفته الرهبانية من هجران المناكح والانفراد فى الصوامع وترك طيبات الرزق .

ومن ذلك الأديان البشرية التى تحرم على أهلها اقتضاء المال وتحثهم على اعتزال الناس.

ومن هنا صدق قول القائل : إن أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين مما يتفق مع ذوى الطبائع المختلفة ، حيث تجمع بين خيرى الدنيا والآخرة .

٤ ـ **يقوم الإسلام على مفهوم الوسطية** وهى تختلف عن مفهوم الفكر اليونانى وغيره فالوسطية كما عرفها أرسطو هى الفضيلة بين رذيلتين ، حيث تصور أرسطو الوسطية على أنها موقف بين نقيضين ، وأنها نقطة رياضة فى الوسط ولا علاقة لها بالنقيضين .

وهذا يختلف عن معنى الوسطية فى الإسلام فهى عندنا تمثل موقفا ثالثا يختلف عن النقيضين ، ولكنه غير مستقل عنهما فالموقف الوسطى هنا يجمع ما يمكن جمعه من النقيضين .

فالكرم وسط بين البخل والإسراف ولكنه ليس مغايراً للصفتين وإنما فيه من تدبير البخيل وعطاء المسرف .

وهنا يأتى التميز للوسطية الإسلامية فى نظرتها لمكان الإنسان فى الكون فهو ليس الحقير الفانى وليس سيد الكون ، وإنما هو الخليفة السيد فى الكون فى إطار سيادة الشريعة وليس سيد الكون ، ومن هنا يأتى خطأ الترا ث الهندى القديم الذى يرى أن الإنسان هو الحقير الفانى الذى لا خلاص له إلا باحتقار المادة وتعذيب الجسد وإدارة الظهر للدنيا .

أما الفكر الغربى فيرى الإنسان سيد الكون لدرجة أنه قد ألهته منذ جاهليتها اليونانية حيث جعلت الأبطال آلهة .. وأطلقت العنان لحرية الإنسان حيث يحل الحرام ويحرم الحلال ويقهر الطبيعة .

وتلك مذاهب باطلة تسللت إلى حضارتنا تحت عباءة التصوف الفلسفى ، فوسطية الإسلام تتمثل فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ [سورة الفرقان : الآية ٦٧] .

وقال ﷺ : « الوسط العدل ـ جعلناكم أمة وسطاً » .

ويشير الحديث هنا إلى خاصية الجمع والتأليف فى الوسطية الإسلامية كما يمكن جمعه وتأليفه من القطبين المتناقضين .

ومن هنا كانت وسطية الإسلام هى الفطرة حيث تختلف عن المنهج الأحادى الذى لا يرى سوى جانب واحد من الحقيقة وحيث ترى الظاهرة (طبيعية ـ أو إنسانية ـ أو فكرية) فى جوانبها المتعددة فتجمع ما يمكن جمعه من الأقطاب المختلفة .

٥ ـ الوسطية فى مفهوم الاقتصاد الإسلامى : يقدم المنهج الإسلامى الوسطى على أساس أن المالك الحقيقى للثروة والمال هو الله تبارك وتعالى ، وللإنسان فى هذا المال ملكية مجازية هى الوظيفة الاجتماعية ، وحيازة الإنسان للمال مقيدة بضوابط الشريعة التى وضعها المالك الحقيقى ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ [سورة الحديد : الآية ٧] .

٦ ـ حرية الرأى فى الإسلام ألا يكون مخالفاً لما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا معارضا لنص شرعى صريح ولا لحديث ، أى غير متناقض مع القواعد العامة للشريعة .

وفكرة حرية العقيدة لها فى الإسلام مفهوم يختلف عن المفهوم الغربى .

فليس من حق الإنسان بعد أن يدخل فى الإسلام أن يبدل عقيدته ، والمسلمون لا يقرون حرية العقيدة بالمفهوم العلمانى الغربى الذى يرمى إلى الدفاع عن ما يدعونه من حق المرتدين من الملحدين والبهائيين وغيرهم فى تبديل عقيدته .

٧ ـ ضرورة التفرقة بين الثوابت ممثلة فى الأصول الإسلامية حسبما وردت فى القرآن والسنة لتحكم مختلف أوجه النشاط البشرى ، وبين المتغيرات ممثلة فى الاجتهاد فى التفاصيل وإعمال النصوص الشرعية وكيفية تطبيقها ، فالشورى حقيقة أساسية أما تطبيقها ففيه مجال للاجتهاد حسب ظروف الزمان والمكان .

٨ ـ صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول ذلك أن صحيح المعقول ، (أى

الثابت المحكم المفسر من النصوص وهو كل ما فى كتاب الله تعالى وما ثبت وصح رفعه إلى رسول الله ﷺ) لا يمكن أبداً أن يعارض صريح المعقول وأن التعارض إن وقع فإنه لا يمكن أن يمثل أزمة فكر أو أزمة دين ولا يخرج عن أن يكون واحداً من ثلاثة :

أ ـ إما أن يكون تعارضاً ظاهريا وهو ما يحتاج كشفه إلى إعادة تفسير النص الدينى أو الحقيقة العلمية .

ب ـ أو أن تكون الحقيقة العلمية ليست إلا واقع حال عارض فى مسيرة العلم تمثل حلقة من حلقات السعى للمعرفة دون أن تمثل الحلقة النهائية الحاسمة من تلك المعركة .

جـ ـ أو أن يكون النص المنقول غير صحيح فى نسبته إلى النبى ﷺ أو أن يكون النص القرآنى محتمل التأويل يحمل من المعانى ما يخالف المتبادر إلى الذهن من ظاهره .

٩ ـ القيم الإسلامية : تختلف القيم الإسلامية عن القيم الغربية من عدة جوانب أهمها أنها تجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

وحضارة الإسلام حضارة أخلاقية تجمع بين الفكر والعمل وهى لا تقدس الفكر وترفعه فوق العمل كما هو الشأن فى الحضارة اليونانية القديمة .

وهى تجمع بين المادة والروح ، وترى أن المجتمع المتكامل السليم هو المجتمع الذى لا يهمل الحوافز الروحية إلى جوانب الحوافز المادية فى حركة الحياة ، لهذا كانت الأمة الإسلامية الآخذة بهذه الحضارة أمة وسطاً .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

[سورة القصص : الآية ٧٧]

وقيم الإسلام الدافعة إلى التقدم الحضارى ليست معانى مجردة مستغنية عن العمل (كمثل أفلاطون) بل هى قيم ذات فعالية إيجابية فى واقع المجتمع ويظن بعض أصحاب الفلسفات المادية فى عصرنا أن القيم الإسلامية ـ قيم دينية ـ ولذلك فهى تعوق التقدم الحضارى للمجتمع .

ومعنى الحضارة مجموع الفكر والعمل وليست الحضارة هى التقدم المادى وحده ، ولا شك أن قيم الدين أكثر فاعلية فى النفس وفى تقدم المجتمع من تلك القيم التى تستند على العقل وحده .

إن قيم الأخلاق فى الإسلام تخاطب الفطرة السليمة .

وإن أخلاق الدين قادرة تماماً على هداية السلوك وتقدم الشعوب والمجتمعات بما تمنحه من طاقات روحية هائلة .

ولابد أن ترتبط الحضارة بالقيم الخلقية ، أما الحضارة المادية وحدها فهى تفقد صفة الأخلاقية ولا تسعد بها الشعوب .

١٠ ـ خطأ التعميم بين القيم : هذه أخطر دعوة تحملها اليوم أقلام العلمانيين والماركسيين وأتباع الفلسفة المادية بهدف طعن الدين فى مقتل ودفع المجتمعات بعيداً عن ضوابط الدين وثوابت القيم الأخلاقية .

فهناك القيم الثوابت والقيم القابلة للتغيير .

والإسلام لا يفرض الجمود ولا الثبات الدائم ولا يقف أمام التطور والتغيير فى القيم الجزئية ، أما الدعوة الخطيرة المسمومة التى تقودها الماسونية والعلمانية والفلسفة المادية والإلحاد فهى الدعوة إلى التغيير الدائم دون تقدير للثوابت ومنها نظرية النسبية للأخلاق أيضاً .

ويعتبر الإسلام تلك الثوابت أسساً دائمة مستمرة غير قابلة للتطور أو التغيير ولكن يمكن تطوير أساليبها ووسائلها .

إن الإسلام يؤمن بحق العقل فى النظر فضلا عن أنه مناط التكليف ولكن بمفهوم مختلف عن مفهوم الغرب .

أولاً فهو ليس مقدسا وثانيا أنه ليس مفرداً فالإسلام يجمع بين العقل والوحى ويجمع بين العقلانية والوجدانية .

ويقدم الوحى على العقل فهو نور العقل وضياؤه .

وقد اعترف الإسلام بأن للإنسان أهواء ومطامع لا يستطيع تجنب اختلاطها بالرأى ومحاولتها تبرير الهوى وتحييده .

وتقوم المعرفة الإسلامية على قاعدتين هما الغيب والعقل فكيف يمكن إنكار الوحى والنبوة والغيب وهم شطر المعرفة فإذا حذفنا أحدهم تصبح المعرفة ناقصة منشطرة بعيدة عن الاستجابة الحقيقية للإنسان المشكل أساساً من عنصرى الروح والمادة .

١١ ـ اختلاف مفهوم الدين فى الغرب عن الإسلام : إن التعريف الذى وضعه الفكر الغربى للدين اليوم على أنه (عبادة) أو رهبانية ووصف رجل الدين فى الفرنسية بأنه Reigaicnx ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس كذلك فإن كلمة دين تطلق فى الفكر الغربى على أنه مسألة وجدانية ونفسية وروحية محضة منفصلة تماماً عن عناصر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فإذا ما أطلق هذا المفهوم على الإسلام كان قاصراً عن فهم التصور الإسلامى لمصطلح الدين وهو مصطلح يجمع بين العلاقتين :

أ ـ العلاقة مع الله تبارك وتعالى .

ب ـ والعلاقة مع المجتمع .

والدين فى الإسلام يجمع العناصر الثلاثة :

العبادات والشرائع والأخلاق ، ويقوم على أساس التوحيد الخالص وإسلام الوجه لله تبارك وتعالى ، وقد جاءت عقيدة التوحيد مع الدين من أول البشرية وامتدت فى دعوات جميع الأنبياء والرسل .

وقد كان التدين فطرة قائمة على أساس الطبيعة البشرية فلا يستطيع إنسان أن يعيش بغير دين كما لا تستطيع جماعة أن تعيش بغير عقيدة ، والدين فى المجتمع الإنسانى يمثل ضرورة لا غنى عنها .

وقد جاءت الأديان السماوية لتوجه الإنسان إلى الحق وإلى الخير ، وتكشف له الطريق فى نظام متماسك من العبادات والمعاملات .

وقد فتح الإسلام بمفهومة الجامع ومنهجه المتكامل آفاق النظر فى الكون والسعى فى الأرض والعمران والحضارة ، ومن آيات القرآن الكريم انطلق علماء المسلمين إلى إنشاء المنهج العلمى التجريبى وإقامة منهج المعرفة ذى الجناحين (الروح والمادة) .

ولما كان الإسلام هو الذى فتح أمام المسلمين أبواب العلم والتجريب فإنه لم يقف ضد حرية البحث بل كان لها قائداً ودافعاً ، وقد أقام نظاماً سياسياً واجتماعيا واقتصاديا مرناً قادراً على العطاء فى كل العصور ومع كل البيئات ، وقد أضاء هذا النظام العالم كله خلال أكثر من ألف عام من حدود الصين إلى حدود نهر اللوار وأقام حضارة عظيمة واستطاعت

أوربا فى عصر النهضة أن تأخذ به وتقيم مجتمعها المعاصر .

ومن هنا يتقرر أن مفهوم الدين فى الغرب يقوم على أساس مفاهيم الفكر الإغريقى والفكر الرومانى والمسيحى الوافد من الشرق (وهى غير الدين المنزل على السيد المسيح) ولما كانت أوروبا قد وجدت فى المسيحية (الغربية) منهجاً لاهوتيا خالصاً أقامت لنفسها منهجاً اجتماعيا واقتصاديا وسياسياً وضعياً .

فما مدى انعكاس هذه المقولات على فكر المسلمين إذا كان هذا كله جزءاً من معركة قامت فى أوربا وتقررت فيها هذه المفاهيم ، فإن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً بالنسبة للإسلام الذى يمثل منهجاً مختلفاً تماماً بوصفه دينا متكاملاً جامعاً بين العقل والفكر والروح والمادة والدنيا والآخرة .

وقد نقلت هذه المعركة بكل أبعادها إلى محيط الفكر الإسلامى ظلماً وعدواناً فالإسلام أساساً لا يفرض أى قيد على العلم التجريبى .

وعقيدة الإسلام ثابتة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد أقر الإسلام حرية الاعتقاد وحرية الفكر وحرية التملك والتصرف ، وأقام مبدأ الشورى ورسم خطة التعامل بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب .

وهكذا يمثل الإسلام فى مجموع مقاصده حركة اجتماعية واسعة هى فى جماعها : دين الإسلام .

١٢ ـ تحرير العقل المسلم من هيمنة الثقافة الغربية . إن أكبر الأخطاء التى يقع فيها المسلمون هو عدم التنبه إلى الفرق بين مفهوم العلم وبين النظريات الفلسفية حيث يأخذون المناهج الغربية فى العلوم الإنسانية الغربية على أنها علوم وليست نظريات وفروض بشرية تخطىء وتصيب ، وقد حجبت عنا مناهجها الإسلامية فى العلوم والثقافة والسياسة والاقتصاد ، وقبلت نظريات الغرب وهى فى أغلبها تتعارض مع عقيدتنا وإن كان علماء الغرب ألبسوها ثوب العلم والموضوعية زوراً إذ هى فى حقيقتها وسيلة من وسائل الغزو الثقافى فى سبيل تركيز التبعية لثقافة الغرب وفلسفته فى الحياة وما يتبع ذلك من تبعة سياسية واقتصادية تحقق للغرب أهدافه ومصالحه .

إن اجتياز حاجز التخلف الحضارى والتحول بالأمة الإسلامية نحو النهضة لن يتأتى إلا

بالتحرير من هيمنة الثقافة الغربية التى تبين أنها متحيزة للإنسان الغربى والحضارة الغربية .

وعندما يصف الغرب بضاعته الفكرية بصفة العموم والإطلاق والحياة والموضوعية ويسميها ثقافة عالمية إنما يريد أن نفقد هويتنا وخصوصيتنا لنسير خلفه مغمضى العيون وندور فى فلكه كأتباع .

إن دعوى عالمية الفكر الغربى معناها نفى ثقافة الأمم الأخرى .

وإن القول بأن العلم لا وطن له ولا دين ، وإن العلم للعلم والفن للفن ، هذه كلها شعارات روجها الغرب لتتنازل الشعوب عن ثقافتها وحضارتها ، إن التبعية الثقافية والفكرية هى فى النهاية تخدم الأهداف السياسية والاقتصادية للغرب ، ومفاهيم الغرب عن حقوق الإنسان تفصل بين التطبيق على الغرب وبين التطبيق على المسلمين فهى ليست مبادىء أخلاقية مطلقة والشرعية الدولية عندهم ذات وجهين يطبق على الغرب غير ما يطبق على غير الغرب إعلاء للدم الأبيض والعنصرية .

وكذلك كانت الديمقراطية تطبق فى اليونان على السادة الحاكمين ولا تطبق على غيرهم من الطبقات .

واليوم تطبق حقوق الإنسان عندما يتعلق بإنسان من الغرب أما غير الغربى والمسلم على وجه الخصوص فانتهاك حقوقه مباح ومشروع وتلتمس له الأعذار .

فنحن مطالبون بضرورة التحرر من المفاهيم الاقتصادية والاجتماعية الغربية وما تقضى إليه من نظريات وسياسات كان لها أسوأ الأثر فى مجتمعنا ، فقد فشلت محاولات التنمية على أساس النظريات الغربية (اشتراكية أو ليبرالية) والتجربة تؤكد أنه من الخطأ قبول عشرات أحكام وقيم التراث الغربى النابع من ثقافته الخاصة فى نظرتهم إلى الإنسان وإلى المجتمع ، إن فلسفات الغرب وعلومه الاجتماعية والإنسانية التى ندرسها فى مدارسنا وجامعاتنا على أنها حقائق علمية ، هى تصورات فكر مادى وردود أفعال لأوضاع اجتماعية غربية ، وهى ليست علوماً بمفهوم العلم ، وإنما هى أقرب إلى المذاهب والمدارس الفكرية لا تتصف بالحيدة وتختلط فيها الميول والأهواء .

وقد تأكد أن العلوم الاجتماعية والإنسانية ليست عالمية وليست مطلقة ومنحازة مما يؤكد كذب مقولة الثقافة العالمية .

ولا ريب أن إسلام المعرفة وإعادة صياغة مناهج الفكر والمعارف الإنسانية هى التى تتعلق بالإنسان بحيث لا يتعارض مع الوحى الإلهى والغيب وقيم الإسلام العليا .

١٣ ـ إقرار مفهوم الذاتية الخاصة : أصبح من الأمور الثوابت التى أقر بها جماعة المثقفين الغربيين أن الإسلام هو المنقذ الوحيد للبشرية من أزمات الحاضر ، وأن القرآن الكريم هو الوثيقة الوحيدة القادرة على مواجهة كافة الأزمات فى هذا العصر لأنه الكتاب السماوى الذى لم يصبه تحريف .

وقد اعترف بهذا علماء الغرب فى ظل ما عرف بأزمات التاريخ ، إن الإسلام هو القادر على حل أزمة الغرب النفسية والاجتماعية ، وإن أعظم المحاذير التى تواجه الإسلام والمسلمين اليوم : هو الاستسلام إزاء الذاتية الخاصة التى صنعها الإسلام والتميز الخاص الذى صنع للمسلمين وجودهم وكيانهم وتاريخهم ، وأنه لابد من تربية روح النضال والمقاومة فى ضمير الأمة حتى لا تقبل منهجاً وافداً من شأنه أن يقضى على كرامتها وعزتها ويجعلها تابعة وذيلا للأممية العالمية أو الحضارة الغربية وقد أعلى الإسلام شأن الفكر والعقيدة على العناصر والدماء والأجناس حتى قامت جامعة الإسلام على وحدة الفكر القائمة على الإيمان بالله تبارك وتعالى وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض عى أسود إلا بالتقوى .

١٤ ـ الثوابت والمتغيرات فى الإسلام : هما نوعـــان :

النوع الأول : حقائق ثابتة راسخة قد ضربت جذورها إلى أقصى حدود المكان والزمان فهى لا تتغير ولا تتبدل .

النوع الثانى : يمثل شطراً آخر من الحقائق الإسلامية عرضة للتغيير والتبديل .

وكلا النظريتين داخل فى بنية الإسلام ، أحدهما ثابت لا يتبدل والآخر متبدل ولا يثبت.

الثوابت :

١ ـ العبودية لله تبارك وتعالى .

٢ ـ دينونة الإنسان لألوهية الله تبارك وتعالى .

٣ ـ الأحكام السلوكية .

٤ ـ الأخلاق من القيم الثوابت .

٥ ـ العدل : ميزان العدل حقيقة ثابتة .

عدالة الإنسان مع نفسه وعدالة الإنسان مع مجتمعه وبنى جنسه ، وتختلف أساليب الحوار بين مكان ومكان وقطر وقطر ، بمعنى ثبات الدعوة واختلاف الأنشطة .

والدين فى قيمه من الثوابت ويمكن استخدام أساليب حديثة لتجديده وتقديمه إلى العصور المختلفة دون أن يغير ذلك قيمه الأساسية .

١٥ ـ خصوصية الإسلام : تتمثل خصوصية الإسلام فى عدة عوامل أساسية :

● جاء الإسلام بمذهب جامع يختلف تماما عن الرأسمالية والجماعية وهو خير منها جميعاً .

● ألغى الإسلام العنصرية والإقليمية وجعل القومية حلقة من حلقاته بعيداً عن الاستعلاء بالدم أو العرق .

● هاجم الإسلام الدهرية والعبثية والعدمية ، وحارب مقولات الاتحاد والحلول والفناء ووحدة الوجود ، وأنكر شيوعية الملك والنساء والأولاد .

● قدم مفهوم المعرفة الجامع بين العقل والوحى معا ، وأنكر مقولة تقديس العقل .

● أنكر نظرية التعدد والتثليث ونظرية أزوريس وهدم الأساطير القديمة وعلم الأصنام والوثنية بكاملها والمشاعية والنظام العائلى .

● حطم الإسلام الرق وعبودية الإنسان للإنسان .

وكان أرسطو يقول إن الحضارة لا تقوم بغير الرقيق والعبيد وكذلك سيشرون ويوليوس قيصر حاول إدخال بعض التعديلات ولم ينظر الرومان بعين العطف إلى الفقراء والعبيد .

فقد كان الرقيق ملكاً للسادة من كبار القوم يسومونهم العذاب ولا فرق بينهم وبين

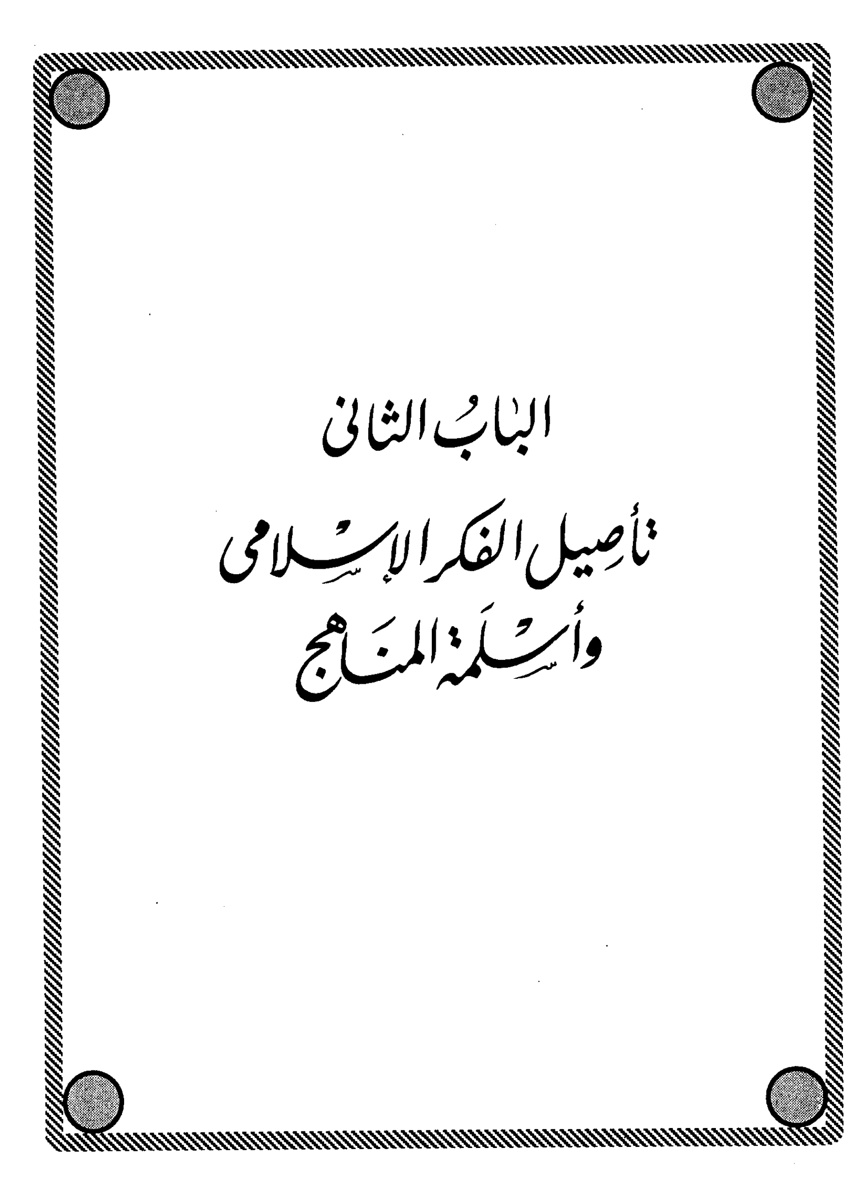
الماشية وامتلأت صدور العبيد بالحقد والكراهية فلما قاموا بثورتهم قبل منهم الملايين وجاءت المسيحية فأيدت السادة فى مفهوم الرقيق فلما جاء الإسلام وضع القاعدة لتصفية العبودية .

وأقام الإسلام الحضارة الإسلامية على الإخاء البشرى وجعله منهجاً قائماً على الوحدانية فى المعرفة ومنهجها العلمى التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة ومن الشريعة الإسلامية أخذ الغرب القانون الرومانى الجديد .

وكانت المرأة فى المجتمعات الرومانية والإغريقية محرومة من كل الحقوق وأهمها حق الإرث حتى جاء الإسلام فأعطاها حق المساواة وامتلاك إرادتها وحرية التصرف فيما تملك .

وحرم الإسلام على المسلم التوجه الوثنى فى مظاهر الفن والحياة وحارب التوجه الهابط المثير للغرائز والمعلى لبواعث الإثم والمعادى للسمو الخلقى .

* * *



الباب الثانى

تأصيل الفكر الإسلامى وأسلمة المناهج

الفصل الأول

التغريب والغزو الثقافى

كانت ظاهرة تأصيل الفكر الإسلامى وأسلمة المناهج من أكبر معطيات الصحوة الإسلامية فقد تحول كُتّاب الإسلام ومفكروه من مرحلة الدفاع عن الإسلام وكشف زيوف وأخطاء قوى التبشير والاستشراق والتغريب الذين كانوا يقفون من الإسلام ، وهو الدور الذى حرص النفوذ التغريبى على التركيز عليه ، حتى لا ينتقل المسلمون إلى مرحلة التأصيل وأسلمة والمناهج .

ولقد كان تركيز النفوذ الأجنبى شديداً على التاريخ والتراث والفصحى فى محاولة لإخراج أجيال من شباب الإسلام لا تعرف شيئاً عن تاريخها الذاخر بالمواقف الحاسمة والمعطيات الإيجابية ، وإذا عرفت ، فلا تقدم منها إلا جوانب الخلاف والصراع والهزائم ومراحل الضعف ، بينما تقدم لهم صور باهرة من تاريخ الغرب وبطولاته .

جاء تأصيل الفكر الإسلامى وأسلمة المناهج إذاً تطورا طبيعياً لموقف الفكر الإسلامى من التغريب والغزو الثقافى وعملا إيجابياً للخروج من دائرة الحصار التى فرضها النفوذ الأجنبى على الفكر الإسلامى ، والتى كانت قد جرت خطوات واسعة فى سبيل تركيز مفهوم العلمانية التى تفصل بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع على النحو الذى عملت القوى الاستعمارية لفرضه على معظم بلاد الأمة الإسلامية ، والذى بدأ بخطوات أتاتورك بإلغاء الخلافة الإسلامية وفتح الطريق أمام القانون الوضعى بديلا للشريعة الإسلامية ، وامتد إلى اللغة والتاريخ والتراث جميعاً .

كان منطلق الغزو الثقافى هو الدعوة إلى ما يسمى ثقافة عالمية تشمل كل الأمم وتنصهر فيها ثقافات الأمم المختلفة وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية .

وكانت هذه الخطة ترمى إلى محاصرة الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى المستمد من القرآن الكريم والسنة ومن الإسلام بوصفه منهج حياة جامع عالمى (أما بالنسبة للغرب فقد كانت ثقافات الأمم الغربية كلها مهما اختلفت لغاتها وأعراقها تلتقى على أساس ثقافى قديم منذ اللغة اللاتينية والفكر اليونانى والقانون الرومانى ومفهوم المسيحية الغربية) .

ولذلك فإن هذه المؤامرة كانت تعدّ أساساً للقضاء على أصالة الفكر الإسلامى الصادر عن مفهوم التوحيد الخالص ، والتى تختلف فى مواقف كثيرة مع الفكر الغربى جملة ، وإذا كانت الثقافة الغربية تختلف اليوم بين ثقافة فرنسية لاتينية وثقافة سكسونية وثقافة أمريكية ، بينما الأساس واحد فكيف لا تختلف مع الفكر الإسلامى المختلف لغة وعقيدة وثقافة .

وإذا كانت مؤامرة التغريب قد انطلقت منذ وقت بعيد وتبين خطرها فى الثلاثينات حينما ترجم كُتَّاب المستشرقون الخمسة وعلى رأسهم هاملتون جب (وجهة الإسلام) الذى كشف لأول مرة عن أبعاد مخطط واسع لتغريب عالم الإسلام ، حيث كان الهدف حبس كل قطر عربى أو إسلامى فى دائرة مغلقة تقوم على أساس تاريخ إقليمى وثقافة خاصة ، حتى تتمزق وحدة الثقافة الإسلامية ويصبح كل قطر بمثابة كيان واحد كمقدمة لهدم الوحدة الإسلامية الجامعة الذى شكلها القرآن الكريم ومفاهيم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

ثم جاءت المرحلة الجديدة خلال مرحلة الصحوة التى تؤرخ لها اليوم حيث ظهر كتاب سيرج لانوش (تغريب العالم) بالإضافة إلى مؤتمر (كلوردوا) الذى تشكل من عشرات المنظمات التبشيرية تحت عنوان (تنصير العالم) يقول اللواء أحمد عبد الوهاب عن هذه الظاهرة :

نحن أمام حقيقة هائلة وشاهد من أهله من بلاد الغزو الثقافى نفسه حيث يقول (سيرج لانوش) تحت عنوان : انتقام الصليبيين بعد معاهدة فرنسا واقتسام غنائم الإمبراطورية البريطانية فقد قدم الجنرال غورو إلى دمشق يؤكد استيلاء فرنسا على سوريا ودخل مسجد الأمويين حيث يرقد جسد صلاح الدين قاهر الصليبيين العظيم ثم يدس رجله صائحاً (يا صلاح الدين ها نحن قد عدنا) يقول سيرج لانوش بالحرف الواحد :

إن حركة تغريب العالم فى المقام الأول حرب صليبية وقديما جاء الاستعمار ليأخذ التوابل والعبيد والذهب والخامات وينزح المواد ويحتل الأرض وهو إذن يعود الآن مرة أخرى بذكاء وفطنة ليحتل العقول والقلوب بأسلوب آخر هو العلم والتكنولوجيا والاقتصاد والفن والفلسفة ، وفى سوق الإعلام وتحت شبكة احتكار لأربع وكالات أنباء (اسوشيتدبرس ، يونتيدبرس ، رويتر ، فرانس برس) ومحطات تليفزيونية وأفلام سينمائية وإذاعات .

ويعلق الدكتور مصطفى محمود على الظاهرة فيقول :

لقد فرض النفوذ الثقافى الغربى ممثلا فى محطات تليفزيونية سوف تعرض عليهم نوعاً من السيادة والتبعية حيث العقول المستقلة أسيرة لون واحد من المعلومات يأخذ إلهامها من نبع محدود بقدر ما يزيد السادة الكبار الذين يخططون لتشكيل تلك العقول من وراء الكواليس .

إن الغرب يحاول السيطرة اليوم على عالم الإسلام تحت شعارات حضارية وتحت غطاء مشروعات للتنمية وقروض ومنح وبعثات مجانية ولكن يظل الهدف واحد وهو طمس الهوية ومحو الأعراف والتقاليد المحلية وتذويب البنية العقلية السلوكية فى مقابل تكنولوجيا براقة ودمى ألكترونية وحبات من الإباحة الجنسية والحرية العبثية ، وسوف تكشف البلاد النامية بعد فوات الأوان أنها ما أخذت فى مقابل روحها التى أعطت إلا كومة من البضاعة الخردة سوف يعلوها الصدأ ، ثم يقولها سيرج لانوش بصراحة :

ليس وراء هذا التغريب الثقافى إلا نفس محاولات التبشير القديمة : هذا كلام سيرج لانوش بحروفه وليس كلامنا ، ومسيحية الغرب فى هذا السياق تقف ضد مسيحية الشرق وكنيسة الغرب تقف ضد كنيسة الشرق ، وبين الكاثوليك والأرثوزكس من الخلافات ما هو معلوم .

والحق أننا اكتشفنا بالفعل وبعد فوات الأوان أننا لم نكسب منذ الستينات إلا أفكاراً خردة ، هى البطالة الاشتراكية الخاسرة التى أعلن أصحابها فى الكرملين بوارها وخسارها وأننا هدمنا بيتنا الاقتصادى على رؤوسنا بلا مقابل .

وقد سكنت هذه الكتيبة المقاتلة من أقلام اليسار التى كانت تملأ الساحة فى الستينات بالألفاظ الطنانة الرنانة ، ففقدت البوصلة والمؤشر والاتجاه وصدمتها النهاية المفاجئة التى كانت أشبه بالشلل فانهارت فى مكانها .

وما زلت أذكر كيف كان الدكتور لويس عوض يجمعنا حوله فى الأهرام يعلمنا كيف نفكر ماركسياً ، وشروحه ومقالاته فى الصراع الطبقى والمادية الجدلية والاشتراكية العلمية ، وكيف أنها أمل العالم فى التقدم والرخاء والعدالة .

وأذكر أننى سألت الدكتور لويس ذات مرة : ماذا تظن سوف يبقى من الإنسان بعد موته فأجاب فى ثقة عجيبة : لا أكثر مما يبقى من حمار نافق يتعفن فى حارة .

وسألته رأيه فى الكتب السماوية فقال فى يقين :

هى أشعار بعضها جيد وبعضها ردىء ، وكان كلامه استمراراً لدعوة سلامة موسى منذ خمسين سنة حينما أجاب على نفس السؤال قائلاً : جميع الكتب المقدسة سواء عندى ويستوى معها عشرات المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب ، إنه تيار واحد من الغزو الفكرى ظل يعمل فى تغريب العقل المصرى ويشككه فى مقوماته وأديانه ومقدساته منذ أجيال ، ما جمعوا لنا إلا الشوك وما زرعوا فى عقولنا إلا الحسك ، وما كان دورهم الثقافى إلا ظلاما ، وما كانت تقدميتهم إلا هدما أتى على اقتصادنا من القواعد .

ولقد استهوتنى هذه الألفاظ فسرت خلفها وكتبت كتابى (الله والإنسان) الذى اختار الشك طريقا ، والذى استقبله الرفاق بالأحضان ، وكتب محمود أمين العالم ساعتها أن هذا الكتاب يبشر برائد فكرى عظيم فلما خرجت من القافلة وانشققت عن الصف رجمونى بالحجارة وقالوا : هو درويش مخبول .

إن تاريخنا يؤكد أن الغزو الثقافى حقيقى كان موجوداً بقيادة سلامة موسى وشبلى شميل فى الماضى ثم تسلمت الراية كتيبة اليسار بقيادة محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس .

وبعد أن سقطت راية اليسار تسلمت القيادة تيارات عبثية وسوريالية وعدمية وعلمانية ، ثم انفتحت الأبواب والنوافذ على تيارات سياسية وفكرية صهيونية وأمريكية ثم بدأ يبهر عليها طوفان نفاق من الأقمار الصناعية واحتلت الشوارع أفلام الجنس والعنف والدسكو ، لا أدعو إلى العزلة والانغلاق ولا ادعو لرفض الحضارة ، ولكن لابد أن نضع على عقولنا مصفاة ناقدة ترشح وتنقى وتجادل وتناقش كل ما يلقى عليها لابد أن تعيش ثغورنا فى رباط .

ويرى بعض الباحثين أن الغزو الثقافى ليس قاصراً على الفكر الإسلامى فحسب ولكنه يهدد الشخصية القومية أيضاً فيقول (مصطفى طيبة) :

إن هدف الشركات المتعددة الجنسية تستهدف تحرير إنسان العالم الثالث من إرادة الفعل الحر الاختيارى ومن انتمائه لوطنه وتراثه وجذوره القومية ، إنها تريد تنميطه داخل حدود الأنماط الاستهلاكية فى الغرب عن طريق محاصرته إعلامياً وإعلانياً وثقافياً ليدخل فى نطاق نموذج فكرى تم إعداده بمهارة ينجذب نحو السلع الاستهلاكية التى تنتجها هذه الشركات ، حتى لو استهدفت ثروات وطنه وحطمت صناعته الوطنية .

إن الهدف هو توحيد الأنماط الاستهلاكية والذوقية لشعوب العالم الثالث وفقاً للنموذج الغربى .

كيف يتم ذلك :

إن ٨٠ فى المائة من الأنباء والمعلومات التى توزع فى العالم الثالث نابعة من وكالات الأنباء العالمية فى مجال هذا الاحتكار لأجهزة الإعلام الدولية ، وهذا يعنى سيطرة الاحتكارات الغربية على مصادر الطاقة والمواد الخام والتجارة الدولية وسيطرتها على أسعار المواد المصنعة التى تصدرها والمواد الخام التى نستوردها .

كذلك فإن هذه المواد الإعلامية الترفيهية المبثوثة لشعوب العالم الثالث لا تستهدف الترفيه البرىء .

فالأمر أخطر ، إنها عملية مخططة تخدم نفس الأهداف الاستراتيجية الغربية القديمة عن طريق نموذج الإنسان الغربى وتصدير أنماط استهلاكية وطريقة تفكيره وغير ذلك من القيم الذى يجرى زرعها فى عقول ووجدان الشعوب ، وهناك مئات الأقمار الصناعية تطوق الأرض (وتركز على المنطقة العربية) وتبث معلوماتها دون اكتراث بقواعد أخلاقية أو حدود قومية) .

ومن هنا يتشكل التغريب فى صورته الجديدة التى تعمل على مواجهة الصحوة الإسلامية .

ويعنى التغريب كما يصوره مصطفى طيبة : التيار القائم على الانبهار بالغرب بكل ما يحمله من فكر وسلوك وثقافة ويرى أن القضاء على التخلف لن يتحقق إلا بترسم خطى المتقدمين واستيراد أساليب سلوكهم .

وهذا التيار يقوم على احتقار الموروثات الثقافية النابعة من التراث الوطنى والذى يرى أن الموتى لا يجب أن يشغلوا عقول الأحياء ، وأن على الدول النامية أن تربط فكرها بالغرب وتمتزج بثقافته إذا هى أرادت التقدم الحقيقى .

وهذه دعوة مضللة مرفوضة تماماً لأن العرب والمسلمون لا يقدسون تاريخهم ولا تراثهم ولكنهم يستهدون بضوئه فى ظل حركة الحياة والمجتمعات نحو التقدم الحقيقى (المترابط بين المادة والروح) .

ومن هنا فنحن فى أشد الحاجة إلى التركيز على أصالتنا وحماية هوية الأمة التى تميزها ثقافياً وعقدياً وفكرياً عن سائر الأمم .

ولم يرفض المسلمون والعرب يوماً (دراسة تجارب الأمم والإفادة منها وأخذ الصالح منها وصهره فى دائرة فكرهم دون أن يكون لهذا الوافد أى تأثير على ثوابت القيم الأساسية للإسلام فالانفتاح على الثقافات فى تقدير الإسلام هو الانتفاع بتجارب الأمم فى مجال التنظيمات والوسائل ، دون التأثير على النظام وثوابته الأصيلة التى قررها القرآن والسنة الشريفة فى إيمان أكيد للمحافظة على الذاتية الإسلامية حتى لا تكتسحها دعاوى اللحاق بالحضارة الغاربة .

*** * ***

إن هناك مداخل كثيرة للغزو تتمثل فى التعليم وفى الفن وفى الثقافة مما يستدعى منا نحن المسلمين أن نحتاط وأن نقف من معطيات الثقافة الغربية الوافدة والتى تغمر مناهجنا الفكرية والتعليمية موقف الحذر ، ذلك أن هذه النظريات كلها منذ دعا إليها هيجل وديكارت ونيتشه إنها تصدر عن مفاهيم لاهوتية كنسية نقلها الغربيون من الثقافات اليهودية والمسيحية والإغريقية والرومانية وكلها اختلطت بالتعدد والتثليث وبالأساطير القديمة التى عرفتها بابل وعرفها الفراعنة فى مذاهبهم (إيزيس وأزوريس وحورس) إن مناهج العلوم من

النفس إلى الأخلاق إلى الاجتماع والعلوم الإنسانية والاجتماعية مستمدة من الفلسفة المادية الوثنية الإغريقية والغنوصية .

وإننا حين نتساهل فى تقبل مفاهيم الغرب ظناً منا أننا قد نستوعبها وأنها لن تؤثر فى أصالة مفهومنا ، نكون قد وقعنا فى خطر التبعية وآثارها التى تترتب عليها ويعلق عليها المبشرون اليوم أهمية كبرى فى أنها تكون مداخل للتنصير (المتمثل فى خداع المسلمين بالكلمة والمقولة والصداقة والتكرار والمتابعة فى محاولة لإيقاع المسلم فى المصيدة) وهو ما أطلق عليه إخفاء مخالب الصياد .

* * *

الفصل الثانى

مؤامرة التبشير والاستشراق

تتابعت فى سنوات الصحوة مخططات التبشير وعقدت مؤتمرات عالمية كان من أخطرها مؤتمر كولورادو الذى جمعت فيه عناصر عالمية حيث كان شعار المؤتمر (العمل ليس فقط على خلق أفضل للإسلام ، والتعامل النصرانى مع الإسلام وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام) يجرى هذا فى الوقت الذى يتحدث فيه الغرب عن الحوار المسيحى مع الإسلام ، وتقام من أجل ذلك المؤتمرات والندوات التى عقدت وتعقد فى عواصم مختلفة من بلاد الإسلام ، وفى الوقت الذى يؤكد فيه الغرب رغبته فى اللقاء مع المسلمين فى مواقف كثيرة تتوالى تلك المواقف الصادمة للمشاعر من حيث الدعوة إلى ما يسمى (أنجلة العالم الإسلامى) أو (تنصير الأمة الإسلامية) من جاكرتا إلى الدار البيضاء ، وتوضع الخطط لهذا العمل حيث تدرس خطط جديدة ترمى إلى احتواء المسلمين فى فكرهم وعقيدتهم ، ويبدو فى الوضع الأخير براعة المحاولة ومكرها الفائق الذى يرمى إلى عدم مصادمة المسلمين فى مشاعرهم بإخراجهم من الإسلام ولكن بالعمل على إيجاد ما يسمى (المسلم المتنصر) وإقامة كنائس خاصة لهذا النوع فى محاولة خطيرة لاستغلال علامات فى المجتمع الإسلامى توحى بالضعف والتفرقة والفقر ليكون عاملا فى إدخال المسلمين إلى النصرانية أو بعبارتهم المستخدمة (كسب المسلمين إلى يسوع) .

وواضح تماماً من قراءة النصوص المنشورة أن هناك هجمة على المسلمين فى ظرف من أشد الظروف ضعفاً وحاجة وفقراً حتى تجد أحد العناوين (وما هى الاحتياجات الملحة التى يمكن تلمسها للناس الذين نسعى لتنصيرهم) والعجيب أن يدعى المسلمون للإيمان بالسيد المسيح اليوم وهم يؤمنون به منذ أربعة عشر قرناً على مفهومه الحقيقى وصورته الصحيحة إنه رسول الله وكلمته وليس على أنه إله أو ابن الإله .

وهل يمكن أن تخدع هذه الوسائل والإغراءات المسلمين مهما بلغت أو تخرجهم عن مفهومهم الأصيل للإسلام حيث كان الإسلام منذ نزوله مسيحية وزيادة ، وخاصة بعد أن

تكشفت فى عديد من بلاد العالم تلك المحاولات التى دارت بين علماء المسلمين وبين الرهبان حول مفاهيم المسيحية الغربية المستمدة من مفاهيم الوثنية القديمة ، وإذا كان الغربيون اليوم يعلنون فى كل آن أنهم لا يفهمون المسيحية بعقولهم لأنها تستعصى على الحل فيما قدمته من مفاهيم (الصلب ـ التثليث ـ الخطيئة) بينما يجدون الإسلام يقدم مفهوما سمحاً سهلاً مبسطاً مستمداً من الفطرة ليس فى حاجة إلى مراجع لأن الطبيعة الإنسانية تقبله وتطمئن إليه ، فكيف يمكن لهذا الذى ذاق حلاوة الإيمان أن يخدعه الرهبان بسيئاتهم مهما بلغ من الذكاء أو الخداع .

إذن فليس هناك قبول لهذه الدعوة الجديدة التى تتطامن إلى هدف باطل ومطمع خادع ، وهو إدخال كل مسلمى العالم فى المسيحية اليوم .

إن ملايين النسخ من الإنجيل التى تطبع وتوزع وعشرات الإذاعات الموجهة التى تنطلق منها كلمات (المسيح هو رب الجميع) لن تخدع أحداً ومع الأسف فهم ﴿ **ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون** ﴾ .

[سورة الأنفال : الآية ٣٦]

والواضح تماماً أن مؤامرة التبشير ومخططاته لم تتوقف منذ بدأ هذا العمل واستشرى فى قلب العالم الإسلامى وكانت مؤتمراتهم جميعا تؤكد عجزهم عن تنصير المسلمين وكان قائدهم (زويمر) يغرى أصحابه ويقول لهم : نحن لا نريد إدخال المسلمين فى المسيحية ولكنا نريد إخراجهم من الإسلام ، وأن كل الذين دخلوا المسيحية كانوا أحد رجلين : رجل يريد أن يطلق زوجته أو يلتمس مصدراً من الرزق .

وقد انتهز التبشير ومؤسساته أحداث كبيرة ليقتحم المجتمع الإسلامى وخاصة فى مناطق التصحر والمجاعات حيث فرص توزيع معوناته عن طريق الادعاء بأنها ليست من عند الله تبارك وتعالى ولكنها من الكنيسة ، وأن بعض السذج والفقراء والمحتاجين اضطروا إلى قبول ذلك وهو موقف مؤقت ، ولكن التبشير استطاع أيضاً أن يحتضن بعض الأطفال سواء فى معارك لبنان أو الفلبين أو البوسنة الأخيرة بنقلهم حيث ينصرون ، هى الضرورة إذن والموقف المتأزم فى بعض البلاد العربية والإسلامية نتيجة الفقر وسوء توزيع الثروة وسيطرة النفوذ الأجنبى هى العامل الحقيقى لانتشار التبشير والتنصير .

ولقد جاءت الصحوة الإسلامية فى العقد الأخير ١٩٧٩ ـ ١٩٨٩ لتهز قوائم التبشير والاستشراق جميعاً لتدفعهم فى عنف شديد إلى تجديد الحملات على الإسلام والبحث عن أساليب جديدة لخداع أهله وإخراجهم من دينهم بوسائل الإغراء وليس بالإقناع فى محاولة قوامها الخداع والتآمر الخفى وظاهرها محاولة الإغراء المادى (وكذلك كانت كل وسائل الدعوات الهدامة التى سلطت على المسلمين منذ ظهور الماسونية والبهائية والشيوعية وغيرها فقد قامت كلها على الإغراء بالمال والمرأة فى أفخاخ براقة زائفة سقط فيها الكثيرون) .

لقد أذهلت الصحوة العاملين فى حقل الفكر العالمى حتى إنهم تخلوا مرة واحدة عن كل الخطط التى كانوا يبشرون بها ومن المصالحة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية ومنها خطة الالتقاء بين شمال البحر المتوسط وجنوبه ، ومنها خطة أن عالم الإسلام جزء من العالم اللاتينى ومنها خطة تراث إسلامى ومعاصرة غربية : كل هذه دعوات طالما تشدق بها التغريبيون وكان أخطر ذلك ما يسمى بالحوار الإسلامى المسيحى أو العربى الغربى ، وقد دعاهم المسلمون أن يوقفوا عمليات التبشير فى سبيل إيجاد مدخل إلى المصالحة بين الفكر المسيحى والفكر الإسلامى ، ولكن الصحوة أذهلت عقول هؤلاء الدعاة فحطموا كل مشاريعهم وأقبلوا يدعون إلى عملية إزالة كاملة للوجود الإسلامى وهو أمر مستحيل ولن يتحقق ولن يستطيعوا أن يصلوا إليه مهما بذلوا من أموالهم وجهودهم ، فالعالم كله اليوم يتجه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد على النحو الذى قدمه منهج الإسلام ، وأن فكرة التثليث التى يدعو إليها الغرب هى فكرة معقدة ولن تنامى المنهج العلمى فى العالم ، سيباعد بين العقول والقلوب وبين هذه المفاهيم الوثنية التى يتبناها مسيحيو الغرب (ولم تكن من أصول المسيحية المنزلة) أبداً .

وفى ضوء التحدى الجديد : الصحوة الإسلامية ، ظهرت تطورات خطيرة فى أساليب التبشير وقد أسفرت المؤتمرات التى عقدتها جماعات التبشير الغربية فى السنوات الأخيرة عن تطورات خطيرة فى الأساليب والمفاهيم فى محاولة زاحفة لاحتواء الصحوة الإسلامية واختراقها وتدميرها من الداخل ، وتمثل هذه الخطوة خطراً جديداً يواجه الأمة الإسلامية التى ما تزال لم تستوعب الأخطار السابقة أو تسقطها أو تكشف زيفها ، بل إن الناظر إلى محاولات التغريب التى يجرى التحرك فى دائرتها فى العقود الأخيرة من علمانية ومادية

وإباحية ، ودعوة إلى تدمير (ثوابت الإسلام) تحت اسم القديم والتراث والغيبيات والسلفية ، ظناً أن هذه المحاولات الجديدة كلها ترمى إلى فتح الطريق أمام الأساليب الجديدة فى التبشير التى تحاول أن يحتوى طبقة العامة من المسلمين وإدخالهم فيما يسمونه (الإسلام المسيحى) أو المسلم العيسوى (على حد تعبير مؤتمر كوالوردو) حيث تركز هيئات التبشير الجديدة على الدعوة إلى ألوهية المسيح وليس إلى النصرانية كدين بما يسمونه (إقامة علاقة شخصية مع المسيح) كجزء أساسى للتنصير ، أى بمعنى أن الهدف لم يكن المسيحية كدين ، بل الدعوة إلى تقديم السيد المسيح رسول الله إلى المسلمين على أنه إله ، وهو ما لا يقبله أقل المسلمين ثقافة وأضعفهم إيماناً ، لأن مفهوم (التوحيد) الذى قدمه الإسلام يمثل التوحيد الخالص البعيد عن كل عوامل الشرك أو الثنائية أو التثليث .

وعندما يقول المبشرون (إبلاغ الكتاب المقدس) يكون واضحاً أنهم يعلمون أن الكتاب المقدس كان مرحلة فى دين الله وأنه أبلغ عن التوراة لنبى الله موسى والإنجيل لنبى الله المسيح وأنه كان مقدمة للدين الخاتم وأن عيسى عليه السلام هو الذى أعلن بشارة رسالة محمد ﷺ الخاتمة : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ [سورة الصف : آية ٦]

فهل يمكن بعد أربعة عشر قرنا من تبليغ القرآن أن تكون عودة إلى الكتاب المقدس إلا فى حدود مرحلته وأثره .

* * *

الفصل الثالث

انكشاف وجهة الاستشراق فى تدمير الفكر الإسلامى

كان من أكبر معطيات الصحوة الإسلامية المعاصرة الكشف عن مصادر الاستشراق الضالة وغايته الخفية فقد تبين من كتابات متعددة لمفكرين منصفين أن الاستشراق ليس علماً ولكنه طريقة مستمدة من المطامع والأهواء معاً ، يراد بها ترويج تصورات معينة ومخططة أريد إقرارها ومحاولة تقديم نصوص تؤيدها أو تشكك فى الحقائق الثابتة .

فهذه التصورات قد وضعت قواعدها مسبقا ثم جرى البحث عن نصوص لتأييدها .

وكان دافع الاستشراق خدمة النفوذ الأجنبى وتقديم الوسائل التى تمكنه من السيطرة والاستمرار ، من هنا عمل الاستشراق على إنكار الحقائق الأساسية الروحية والاجتماعية .

وقد أكد كثير من الباحثين أن الاستشراق كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الإسلامى والغرب بل هو يمثل الحلقة الفكرية لهذا الصراع ، فقد كان له أكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوربية عن الإسلام وعن تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة .

وكان اليهود وراء السيطرة على الاستشراق وكان أوائل المستشرقين يهوداً ، ثم جاء مستشرقون من الماسونية أكثر خطراً من اليهود أنفسهم .

ولقد كان القرآن الكريم هو هدفهم الأول والأكبر وكانت حربهم مركزة على سيرة النبى ﷺ وتاريخ الإسلام واللغة العربية ، وقد ساندت البابوية الرومانية خطوات الاستشراق واحتسبتها من داخل مخطط التبشير العالمى .

وكان الاستشراق هو أداة العمل فى مدارس الإرساليات والصحف ، وهو الذى أعطى المبشرين المادة الوفيرة التى شككوا بها فى الإسلام ، وخاصة ما حاوله اليهود وتابعيهم من إثبات ما يزعمونه من فضل اليهود على الإسلام بدعوى دور وهمى لهم فى الجزيرة العربية قبل الإسلام (وهو ما تصدى له طه حسين وغيره) .

ولما كان دافع المستشرقين ليس علميا ولا خالصاً لوجه الحقيقة ، فإننا لا نجد فى كتاباتهم إلا صورة مشوهة للإسلام ، وقد كان ذلك بباعث من التعصب الراسخ العميق بأسلوب الدس الخفى وبتر النصوص وإثارة الشكوك .

وقد كان للتاريخ الإسلامى خاصة تاريخ الدولة العثمانية مكان كبير فى سموم الاستشراق ومغالطاته .

ويرى بعض الباحثين أن للمستشرقين دافعين أساسيين :

الأول : الدافع الدينى فى حجب الأوربيين عن الإسلام وحجب الإسلام الصحيح عن الأوربيين .

الثانى : الدافع الاستعمارى فى إضعاف روح المقاومة الروحية والمعنوية وبث الوهن عن طريق التشكيك بفائدة ما فى أيدينا من تراث ، فنفقد الثقة بأنفسنا .

وكان من أعظم معطيات مرحلة الصحوة الكشف عن المصادر المغلوطة التى استند إليها المستشرقون فى كتاباتهم المضللة وبيان الروايات المردودة والمصادر غير العلمية فضلا عن تحريف النصوص وإساءة الفهم .

يقول الدكتور محسن حاسم الموسوى فى مقدمة كتابه (الاستشراق فى الفكر العربى) إنه لا يمكن تجاوز التأثير الفعلى لصدمة الاستشراق فى الفكر العربى ، وإنه بغض النظر مثلا عن دافع مشاركة المستشرقين فى تأليف المناهج الجامعية فى مصر ، فإن حضورهم لم يكن أقل شأناً من السياسة فى صياغة الأفكار ، وهى صياغة حملت فى داخلها بذور النجاح والإخفاق معاً ، وأتت بآليات ونظرات مثالية ودافعة كان لها أصداؤها فى الفكر العربى السياسى والمجتمعى فى آن واحد ، وكان من نتائجها أيضاً فى الحياة العربية المعاصرة أن تشكل الفكر العربى فى بعض مصادره من مرجعيات مختلفة فرنسية وأنكلوساكسونية وألمانية وأخذت تتسع وتتوالد وكلها بعيدة عن جوهر الفكر الإسلامى .

ولقد كان للدكتور إدوار سعيد فى هذه المرحلة أثره البالغ فى كشف حقائق التبشير ومما أورده فى بحوثه المختلفة هذه الحقائق :

١ ـ إن دراسة التاريخ تدلنا على أن الإسلام كان يمثل على الدوام إزعاجاً خطيراً

للغرب وليس هناك حديث عن أى دين آخر غير الإسلام على أنه يمثل تهديداً للحضارة الغربية وهناك من الكتب موضوعها الرئيسى الحديث عن الهمجية الإسلامية .

ويتحدثون عن التناقض فى الإسلام ، فهو مؤيد للرأسمالية وللاشتراكية على السواء وللنضال والغيرية والشمولية العالمية والانتقالية الضعيفة وللعنف والسلام .

ويرجع هذا الخلط الشديد فى الفهم إلى أن الإسلام أصبح كبش الفداء لكل ما يروه المفكرون الغربيون من أنماط سياسية واجتماعية .

فهو بالنسبة لمفكرى اليمين فى الغرب يمثل الهمجية وبالنسبة لمفكرى اليسار يمثل الثيبوقراطية فى العصر الوسيط . . أما بالنسبة لمفكرى الوسط فإنه يمثل نوعاً من المواقف والأفكار الغربية .

ما هو معروف عن الإسلام حتى الآن يتعارض مع قيم الحضارة الغربية وما يعتبر ذا قيمة فى الإسلام هو أساساً عداوته للشيوعية .

٢ ـ إن الدارسين للإسلام فى الغرب منذ البداية ينتمون إلى الإدارات المسئولة فى المستعمرات وكان التعاون وثيقاً بين البحث العلمى للإسلام وبلاده وشعوبه والفتح الاستعمارى والعسكرى المباشر ، فهناك المستشرق الهولندى سلوك هيرجرونج الذى استغل الثقة التى أعطاها له المسلمون لتخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد المسلمين الآندونيسيين فى سوماطره .

٣ ـ إذا لم يكن أكثر ما كتب عن الإسلام فى الغرب مشوباً بسوء الفهم أو سوء القصد وإذا لم يكن باطلا كله أو بعضه فهو على الأقل متأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية التى ينشأ فيها وهى أوضاع لا تسعى إلى الدفاع عن الإسلام أو إنصافه وليس فى أهدافها تنقية الفكر الإسلامى مما علق به من شوائب ليست من طبيعته .

٤ ـ منذ القرن ١٨ وكتاب الغرب ينظرون إلى الإسلام على أنه كتلة واحدة ولا يستطيعون تبين ما فى هذه الكتلة من تمايز وتعدد واختلافات ، وكثير من مفكرى الغرب لا يدركون الفوارق بين السنة والشيعة أو بين المذاهب وبين المدارس الفكرية السوية والمدارس المنحرفة ولا بين الاتجاهات المعتدلة والحركات السرية والباطنية وينشرون أفكارها على أنها جميعها مستمدة من الفكر الإسلامى .

٥ ـ لم أعثر على فترة فى تاريخ الغرب درسوا الإسلام فيها متجردين من الهوى والتحيز وهدفهم أن يجعلوا من بلدان العالم الثالث مبنى أمريكياً .

٦ ـ لماذا العداء لتلك الحضارة التى أنشأها المسلمون والعرب تحت لواء الإسلام بالذات رغم أن العالم شهد أيضاً حضارات سابقة لعل أكبرها حضارة الصين والهنود .

السبب هو الجوار الجغرافى .

وحتى مع دخول عالم الإسلام فى حيز أفول النهضة (فى العصور المتأخرة) ظل الخوف من الإسلام أو من (المد المحمدى) مستمراً . إن التقارب المكانى بين عالم الإسلام وبين أوربا لا يزال يثير فى الغرب ذكريات المنعة والمد الإسلامى الذى شهدته العصور الوسطى ، وأوربا على وعى دائم بأن ثمة قوة كامنة فى هذا الكيان المسمى عالم الإسلام ، وهى تخشى على الغرب من هذه القوة . عالم الإسلام وحده هو الذى يبدو ليس غيره وكأنه لم يستسلم أمام الغرب وبعد الارتفاع الدرامى فى أسعار النفط فى أوائل السبعينات واستخدام سلاح النفط فى حرب رمضان عاد العالم الإسلامى وكأنه يستأنف من جديد مسيرة الفتوحات التى أنجزها فى الماضى ، وساعتها بدأ الغرب بأسره وكأنه يرتعد .

ويتحدث دكتور إدوار سعيد عن صورة المسلم والإسلام فى الغرب فيرى صورة المسلم فى كتب المدارس أو فى أفلام التليفزيون أو الإعلانات الدعائية أو الصور الكاريكاتورية والدعاية أو فى السينما ، هذه الصورة الخاطئة هى تصور المسلمين وكأنهم مجرد موردى بترول إرهابيين وكأنهم قطاعات جماهيرية متعطشة لسفك الدماء .

وأى كاتب فى الغرب ـ بابيول ومحله بشورويك أغسطس ١٩٨٠ ينطلق الكاتب من كراهية عميقة لتلك النزعة الإسلامية المعادية للاستعمار .

ويشير إدوار سعيد إلى تلك الانتقائية المغرضة والمضلة فى طرح الأخبار ومعالجتها بالتفسير أو التلفيق ويقول :

إنهم يتربصون بأى مجتمع إسلامى أو أى انتفاضة تحت لواء الإسلام ، يحصون كم من البشر عوقبوا وكم عدد الضحايا وكم ، وكم ، إن فهم الإسلام فى أوربا ربما كان أفضل وربما كان أقل تشوها أو سذاجة مما هو حاصل فى أمريكا والأسباب كثيرة .

أهمها أن أوربا كان لها خبرة مباشرة بالمجتمعات الإسلامية نتيجة عصور الاستعمار الطويلة فى آسيا وإفريقيا .

أكثر من هذا فالإسلام مطروح وبإلحاح على خريطة بلدان أوربية معاصرة لا كموضوع للدراسة ، ولا حتى كخرائط مبسوطة فى وزارات الخارجية ولكن كواقع متنام ومعاش متطور باستمرار يكفى أن نعرف مثلا أنه ثانى ديانة من حيث عدد المؤمنين فى فرنسا هى الإسلام .

وبالرغم من أن كُتَّاباً ومفكرين أوربيين تواصلوا مع الشرق والإسلام فى اهتماماتهم وكتاباتهم مثل جوته ، وكارليل ، وجوستاف فوليير ، فإن هؤلاء الكتَّاب والمفكرين والشعراء لم يفلحوا فى جعل الإسلام موضع ترحيب فى أوربا لدرجة جعلت أوربا بدورها ورغم خبراتها المباشرة بالمجتمعات الإسلامية تعيش فى حال من الجهل أو حال من المعرفة القاصرة أو السوقية بعالم الإسلام والمسلمين ، وفى كتابه (تعطية الإسلام) يقول الدكتور إدوار سعيد :

إن الإسلام بان فى نظرهم تهديداً للحضارة الغربية ، يستوى فى ذلك وسائل الإعلام أو مسئولى الحكومة الاستراتيجية القائمين على الأمور (الجيوبوليتكية) .

إن معنى هذا أن كل ما يقدم عن الإسلام هو الصور السلبية عن الإسلام والتى توجد بكثرة فى وسائل إعلام الغرب ، وأن هذه الصور والأطروحات لا تتفق مع ماهية الإسلام حقا وصدقا باعتبار الإسلام عقيدة وشريعة ومجتمعا وسلوكاً وكيانا أكثر تعقيداً وأشد عمقا من مجرد البرشامات المعرفية أو الوصفات الإعلامية المسطحة .

إنهم يقدمون الإسلام كما يتصورونه هم لا كما تقول به الحقيقة والحق أو الواقع والتاريخ ، بل كما تتصوره قطاعات بعينها ذات مصالح بذاتها فى مجتمعات أوربا وأمريكا .

ما معنى أن يثير الأمريكيون موضوع : الرق ومؤسساته فى إفريقيا المسلمة ، معناه إثارة الكثير من مخاوف الأفريقيين وأحقادهم على المسلمين العرب .

وحين يتحدثون عن المجتمع الإسلامى يقولون : إن الأسرة الإسلامية تقوم على الكبت أو القمع ، وإن المسلمين يعيشون فى عالم من الوهم وإن معظم زعماء المسلمين مصابون بالعصاب النفسانى ، وأن مجتمعات الإسلام فجة لما تشب عن الطوق إلى طور النضوج .

ومن ذلك أن جامعة بريستون تنظم ندوة أكاديمية عن عرب فلسطين ويكون المتحدث فيها إسرائيلى .

وهكذا تقدم الصورة الإسلامية فى إطار من التسطيح والتعميم ومن ثم التضليل أو التشويه .

ويقول دكتور إدوار سعيد : وما يزال الاستشراق تيار فاعل فى الحياة السياسية والعلمية فى الغرب الأوربى الأمريكى ، وهو تيار يتراوح بدوره ما بين منابع الاتساق الموفية الصحية التى يدفعها فضول العلم ويحدوها شرف الاجتهاد أخطأ أم أصاب فليس كل المستشرقين بداهة متآمرين أو مغرضين حتى لو راوعتهم الحقيقة وجانبهم الصواب .

بيد أن هذا التيار الاستشراقى يصل فى كثير من جوانبه للأسف إلى أغوار مختلطة بل ومستنقعات معتمة تعشش فيها وتفرخ أفكار وأطروحات مستشرقين أو مستعمرين منهم الجاهل أو المغرور ومنهم الحاقد أو الممرور ومنهم موظف وزارة المستعمرات أو عميل وكالة الاستخبارات .

ويقول إدوار سعيد : إذا كان تاريخ المعرفة عن الإسلام فى الغرب قد ارتبط وثيقا بالغزو والسيطرة من جانب الغرب فقد حان الوقت الذى ينبغى أن تقطع فيه هذه الروابط تماماً ، إنى لم أعثر على فترة فى تاريخ الغرب درسوا الإسلام فيها متجردين عن الهوى والتحيز ، إن هدفهم أن يجعلوا من بلدان العالم الثالث مبنى أمريكيا .

ويشير الدكتور إدوار سعيد إلى موقف الاستشراق والغرب من الصحوة الإسلامية فى تياراتها التجديدية وأطروحاتها الاجتهادية التى تستمد زخمها من الإسلام (عقيدة وشريعة) وأعرافا وتاريخا وحضارة وطموحات ، فقد عادت الذهنية الغربية (الأوربية ـ أمريكية) إلى ما فى جعبتها تاريخيا من مسميات ونعوت فإذا بهذا التيار الإسلامى المتدفق تلصق به نعوت من قبيل التخلف أو الإرهاب أو الجمود أو التعصب ، من هنا قاد الخطأ فى المنهج إلى تشوه فى الفهم وإلى ضلال فى التفسير .

لقد كان مفهوم التقدم عندهم هو تحويل بلدان العالم الثالث وبلاد الإسلام فى القلب

منها إلى كيانات تابعة للثقافة الأمريكية الغلابة فى هذا العصر ، تصحو على أنغام الجاز وترتعد فرقاً كلما ترنح الدولار .

ولقد كان مفهومهم إخراج عالم الإسلام من عزلته فلا يقاوم من بعد نفوذ الغرب ومجرى التقدم ، والحل الأمريكى هو أن تدخل طريقة الحياة الأمريكية إلى (عالم الإسلام) عن طريق السلع الاستهلاكية والدعاية المناهضة للشيوعية المشكلة أن الإسلام لم يكن مستعداً لحل أمريكى أو غير أمريكى ، الإسلام على خلاف ما حدث مع الهند أو الصين ، ظل فى حالة الجيشان فلم يهدأ إلى سكون ولا أمكن هزيمته ، وكان من العسير على دارسى الإسلام الغربيين أن يفهموا كيف استمر الإسلام عقيدة مسكنة فى أعماق المؤمنين بها الذين لم يكن لديهم استعداد كى يقبلوا الواقع ولا لأدق ذلك الجزء من الواقع الذى يتجلى فيه الغرب وقد تسنم صهوة التفوق والسطوة والهيمنة على الأرض .

ومن عجب أن وسائل الإعلام الغربية التى تعيد وتزيد فى غلبة المنحى الدينى على الحياة العامة فى بلدان الإسلام المعاصرة تعمد فى الوقت نفسه إلى التغافل (عن حقيقة أن إسرائيل لها طابع دينى كامل) أ . هـ .

* * *

الفصل الرابع

الغرب يستيقظ على الإسلام

بالرغم من الحملة المغرضة المثارة على الإسلام وتلك المؤامرة الضخمة التى تقوم بها قوى الاستشراق والتبشير ، فقد تكونت فى عالم الغرب جماعات جديدة تحاول أن تفهم الإسلام فهما صحيحاً .

وترى فيه علاجا لأمراض ومشاكل وأزمات تعصف بالمجتمع الغربى ، وفى أسبانيا وفى فرنسا وبريطانيا وألمانيا تشكل المجتمع الإسلامى الجديد وبدأ يجاهد فى سبيل تكوين قاعدة أساسية تحميه من التحولات التى يخشى فيها بالنسبة للأجيال الجديدة التى بدأت تعتنق ثقافات الغرب وتتحول حثيثا عن الإسلام .

وفى نفس الوقت ظهرت كتابات جديدة وأسماء جديدة تتحدث عن الإسلام :

جارودى وبوكاى وفى الأخير مراد هوفمان ، بالإضافة إلى كتابات سجريد هونكه ومحمد أسد ، ومريم المهدية وهم يتقاسمون مهمة واسعة .

فهم يدعون المجتمع الغربى إلى النظر إلى القرآن بإنصاف ومن خلال المنهج العقلى المجرد بعيداً عن الموروثات المختلطة المضطربة التى صنعها الاستعماريون والمبشرون والمستشرقون من أجل إتمام السيطرة على الأمة الإسلامية واحتوائها .

ونرى أكبر صحف بريطانيا « التايمز » ترصد التحول إلى الإسلام فى بريطانيا (١٩٩٣م) وتتحدث عن مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية وتزايد أعداد المعتنقين للإسلام فى بريطانيا وخصوصاً من النساء .

فقد أثبتت الدراسات التى أجراها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية فى بريطانيا أن ظاهرة اعتناق الدين الإسلامى قد تسارعت بصورة كبيرة بين مختلف فئات المجتمع البريطانى .

ويستعرض دكتور جراهام سبيك رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية ظاهرة انتشار الإسلام بقوله :

الإسلام لم يكن فى الماضى قضية صراع بين الشرق والغرب يعكس خلافا بين عاداتهما وتقاليدهما فقط ، بل كان صراعاً حضارياً أيضاً ولكن يبدو أن الحال تغير كثيراً الآن ، فبعد أن أصبحت المجتمعات الشرقية والغربية متداخلة مع بعضها البعض إلى حد كبير استطاع الإسلام بقوته وعظمته ، إضافة إلى تواجد أعداد كبيرة من المسلمين فى بريطانيا ، أن يحدث أعداداً كبيرة من بريطانيا ، ولقد أثبتت المجتمعات الغربية صدق مقولة : الإسلام دين لكل زمان ومكان بعد أن أصبحت تعاليمه الدينيه وقوانينه الاجتماعية العادلة تجذب شريحة كبيرة من المجتمعات الصناعية الغربية وذلك لقدرته الفائقة وعظمة تعاليمه على التكيف مع جميع المجتمعات المختلفة .

وقد علل الدكتور جراهام سبيك ذلك الانتشار قائلا :

١ - الإسلام بالنسبة للمجتمعات الغربية يعنى ثالث الأديان الكتابية بعد المسيحية واليهودية (التى تؤمن بوحدة ووجود الخالق) سبحانه وتعالى ولذلك يجد البريطانيون أن اعتناق الدين الإسلامى ـ كونه أحد الأديان السماوية الثلاثة ـ ليس شيئاً مستحيلاً بل يحتاج فقط إلى بعض من الأحرار للتغلب على الجهد النفسى الذى يقويه ويدعمه الإيمان الشديد بالمبادىء الإسلامية إضافة إلى تعاليم الأديان السماوية الثلاثة متشابهة فى جوهر تعاليمها ومبادئها إلى حد كبير .

٢ ـ يقول دكتور عساف حسين مدرس علم الأجناس فى الجامعة المفتوحة يقول :

إن الإسلام يمنح المجتمعات الغربية صوتاً خفياً ونادراً ويعطى حلولاً منصفة وعادلة لمشاكل الغرب الاجتماعية ، فإذا أرادت المجتمعات الغربية أن تبحث عن الحل الذى ينهى جميع مشاكلها فالاختيار بلا شك هو اعتناق الإسلام وتطبيق تعاليمه .

ولا شك أن ظاهرة اعتناق أعداد كبيرة من البريطانيين للإسلام ستكون السبب الرئيسى فى تغير صورة الإسلام التى سبق أن شوهها الإعلام الغربى لأنه وبمجرد أن اعتنق مجموعة من البريطانيين الدين الإسلامى بدأت نظرة البريطانيين للإسلام تتغير بعض الشىء تجاه ذلك الدين الذى ما كانوا يعرفون مبادئه وتعاليمه ولكنهم ظلموه كل الظلم .

٣ ـ ويتحدث أحد الباحثين الغربيين : فى خندق حرب الأفكار بين الإسلام والغرب ،

فإن التحول الغربى باتجاه الإسلام قد أهمل على نطاق واسع أو تم استبعاده على أساس أنه أمر شاذ ومع ذلك ففى بريطانيا وحدها هناك ما بين عشرة وعشرين ألفاً ممن تحولوا إلى الإسلام وغالبيتهم من النساء ، كما أن هذا النموذج اللافت للنظر ملحوظ أيضا فى أمريكا حيث أن عدد النساء المتحولات يفوق عدد الرجال بنسبة أربعة لواحد ، ولنتفادى التصور العام فإن العديد من النساء الغربيات يتحولن إلى دين يقال عنه بشكل واسع إنه متحامل ضد النساء .

٤ ـ ولقد كشف التحقيق الذى أجرته جريدة التايمز حول المرأة والإسلام عن الوضوح الفكرى واليقين الأخلاقى لهذا الدين الذى مضى عليه ١٤٠٠ عام يثبتان أنه ذو جاذبية للعديد من النساء الغربيات اللواتى لم يكتنفهن الوهم بالنسبية الأخلاقية لثقافتهن نفسها ، وبالرغم من أن بعضهن تحولن للإسلام بعد زواجهن من رجال باكستانيين أو بنغاليين فإن الأخريات يتخذن هذا الإيمان من أجل التطور الذاتى والروحى لأنفسهن ، ولقد جاءت المبادىء الإسلامية التى جاء بها القرآن عن المرأة عموماً متعاطفة مع مصالحهن ولهن حقوق على الرجال مشابهة لتلك التى للرجال عليهن فقد أعطى الإسلام الحق للأنثى المسلمة فى الميراث وحق الطلاق كما أن النبى ﷺ قد اعتبر زوجته عائشة من مستشاريه الأساسيين .

وما يهمنا هنا هو أن العديد من النساء فى الغرب واللواتى اعتنقن الإسلام قد فعلن ذلك عن اختيار وليس لسبب الواجب العائلى أو الالتزام التاريخى ، فهن قد انجذبن بشكل إيجابى بإحساس الأخوة الاجتماعية حيث اكتشفها الإسلام .

إن مغزى هذه العملية للتغيير الروحى تشير إلى أن أعداداً متزايدة من الناس أخذت تبدى تشككها فى نظام القيم الخاص بثقافتها وأخذت تثير تساؤلات مهمة حول حالة التقاليد الأخلاقية الغربية ، وكيف أنه بالإمكان تعزيزها وتحصينها ، ومع ذلك فإن تأثير ذلك (بالرغم من أنه لا يزال معتدلا) كظاهرة ، فمن المرجح أن يكون إيجابيا لأن وجود المتحولين للإسلام فى المجتمع البريطانى ـ والكثير منهم على مستوى عال جداً من التعليم ـ بإمكانه أن يساعد على عملية الفهم المشترك بين الثقافتين والتى أشاد بها الأمير تشارلز .

إن أولئك الذين عبروا تخوم الانقسام يستطيعون فعلا فهم ما يعتمل فى كلا الجانبين.

٥ ـ وتقول الدكتورة مارى شيمل أستاذة العلوم الإسلامية فى جامعة بون إن أنظار العالم تتجه إلى عالم الإسلام وآفاقه الواسعة ، ذلك أن أفكار الإسلام تبدو غير واضحة أحياناً لدى بعض المفكرين الغربيين لكن العقيدة الإسلامية بمفاهيمها الصحيحة تنتشر فى أنحاء العالم .

٦ ـ وهناك الباحثة الأمريكية اليهودية التى اعتنقت الإسلام بعد دراسة متعمقة استغرقت سنوات طويلة .

وفى أبحاثها التى تنشر باللغة الإنجليزية ، شرحت رؤيتها لجوانب العظمة فى هذا الدين الذى اكتشفت أنه هو المعبر عن القوة الروحية فى الإنسان والموصل إلى الخلاص من مشاكل البشرية على الأرض .

تلك هى المهدية مريم جميلة وكتابها (الإسلام فى مواجهة الغرب) تقول فيه إن ما تستطيع أن تلاحظه فى الواقع المعاصر أن العقول الأكثر استنارة والمتقدمة تقدماً فكريا متميزاً وتقدماً اجتماعياً استقلالياً هى العقول الأكبر استجابة للدخول فى الإسلام ، وتمثل هذه الحقيقة فى ذلك الغزو الكبير من الفلاسفة والعلماء الغربيين الذين استجابوا لدعوة الإسلام من أمثال روجيه جارودى ، وكولن ولن ، ومحمد أسد ، ومريم جميلة بالطبع .

كما أننا نلاحظ أن أكثر الناشزين عن دعوة الإسلام هم الذين يقعون فى الدرجات السفلى من السلم الحضارى أو النازحين فى ذل التبعية الفكرية والسقوط النفسى فى هوة الشعور بالدونية الحضارية مثل العلمانيين فى الغرب والشرق .

يقدم الكتاب نموذجاً إنسانيا لامرأة قبلت أن تواجه بالتحدى كل المعارضين لدعوة الحق وهو الإسلام ، وأرادت أن تعلن للعالم كيف كانت هناك عوائق كبيرة وضعت أمامها لكى تعوق انطلاقها نحو هذا الدين القويم الذى اهتدت إليه بعد رحلة طويلة من البحث عن الحقيقة فى عالم الأفكار والأديان ، تقول : عندما بدأت أدرس عقائد كل الأديان الكبرى فى العالم توصلت إلى حقيقة أن كل الأديان السابقة على الإسلام نشأت من أصل واحد ، ولكنها فسدت مع مرور الوقت وتوالى الأزمان ولذلك بدأت أشعر على نحو متزايد ، بأن الإسلام هو الديانة الأصلية التى احتفظت بنقائها وأصلها لمعتنقيه فى الوقت الذى ظلت فيه الأديان الأخرى جزئية الصدق والنقاء .

لقد حوى الإسلام فعلا الحقيقة الكاملة وحده دون سواه ، وعلاوة على ذلك قدم الإسلام لمعتنقيه أسلوباً كاملاً للعيش وجعل الحياة مليئة بمعانى الخير وأقام علاقات واضحة بين الفرد والمجتمع وبين الماديات والروحانيات وهى علاقات تتميز بالاتزان والتوازن تعمل فى وئام وانسجام بالغ .

وترسم مريم جميلة تصورها للحضارة المادية فتقول :

إن الفكر الغربى تطور من الروحانية المفرطة فى العصور الوسطى إلى المادية المفرطة منذ عصر النهضة وحتى الآن ، وبوجه عام فإن مفكرى عصر النهضة قد تحولوا بشغف شديد إلى الاستفهام من علوم اليونان والرومان وأصبحوا يؤمنون بقدرة العقل البشرى المجرد بدلاً من الإيمان بالله (تبارك وتعالى) .

ووجد مفكرو عصر النهضة التبرير الملائم لنبذ صلاتهم الروحانية بالكنيسة فى تلك الفلسفات ، وتنتقد المؤلفة أفكار بعض مفكرى الغرب من أمثال ويلفريد كانتول سميث والدكتور كينيت كراح والمفكرين العلمانيين الذين تعتبرهم أكثر ما يهدد الإسلام خطورة .

تقول : إن انهيار المستويات الأخلاقية وتفشى الأيديولوجيات المادية مثل الفاشية والنازية والشيوعية المصحوبة باندفاع وصرع مجنون لاختراع وابتكار مزيد من أسلحة الفناء والدمار الشامل ، فهى علامات كبرى تنذر بسقوط الغرب ، فالأخذ بالحضارة الغربية لن يجعل المسلمين يشاركونه التقدم ولكنهم سيشاركونه التقدم إلى الهلاك .

إن فى الإسلام رموزاً لها دلالات بالغة القيمة فى السمو بالحياة الإنسانية إلى أعلى مستوى يمكن أن يرقى إليه البشر .

وتعنى كلمة (الله أكبر) أن يخضع المسلمون جميعاً كبيرهم وصغيرهم ، فقيرهم وغنيهم ، الحكام منهم والمحكومون على السواء ، الجميع دون استثناء يعلنون بكلمتين خضوعهم لله (تبارك وتعالى) ولإرادته ولقانونه المتمثل فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ولو أدرك العالم معنى كلمتى (الله أكبر) لأدركوا أن المسلمين أقوياء لأنهم لا يمكن أن يخضعوا إلا لله (تبارك وتعالى) وليس غير الله أحد كبير وأن المسلمين سواسية كأسنان المشط يخضعون جميعاً لرب واحد ليس لهم رب سواه ، وأن المسلمين أحرار لأن الإنسان

حين ترتبط عبوديته بالله تبارك وتعالى وحده يتحرر من عبوديته للبشر جميعاً وتقول : إن الحياة بالمفهوم الإسلامى ليست رحلة للنزهة ولكنها اختبار صعب أخضعنا الله له حين خلقنا لكى يمتحننا كل دقيقة عما نفعله فى حياتنا وليست تلك المعاناة وهذه الصعاب والشدائد التى يخوضها المسلم على الأرض نكبة أبدية ، ولكنها جزء من الاختبار ، والمسلم يشعر بالسعادة فى كل أحواله فى الصحة والمرض وفى السعادة والشقاء ، فى السراء والضراء لأن كل ذلك خير من عند الله تبارك وتعالى .

على المسلم أن يستيقظ مبكراً من غفوته ، وبدلا من أن يشجع التعفن والفساد ، يربط نفسه بتلك العقيدة المليئة بالحيوية النابضة بالقيم الروحية والأخلاقية التى لم تعهدها البشرية من قبل ، فإذا أدركها من شاء الله لهم الهداية وآمنوا بأن الله أكبر فسينهار الطلم ويختفى من العالم وستتهاوى كل الأصنام ، وكلما سعت الشعوب المسلمة إلى إصلاح الإسلام على النحو الذى يجعله يتمشى مع الحياة العصرية للمادية الغربية ضعفت هذه الشعوب وضاعت إلى أن تتلاشى تماماً ويذهب ريحها ، فالمسلمون لن ينالوا المجد والقوة إلا بمحاربة ذلك التيار المادى وأن التاريخ يعلمنا أن التفكك الثقافى لأى حضارة يؤدى حتما إلى تفككها السياسى وانهيارها بعد ذلك وإن كانت العملية تستغرق وقتاً أكبر من الثانية ، إن الحضارة الغربية بغض النظر عن أنها تقهر أو لا تقهر ، فإنها تتحلل أخلاقيا ومعنويا الآن أمام عيون أصحابها مما سيجعل هذه الحضارة الغربية تشعر بعد قليل بالظمأ الشديد إلى نبع التحرر الأخلاقى والاجتماعى وستجد أنه هو الإسلام .

ولذلك فإنه على عاتق المسلمين سيتحدد مصير المسلمين مستقبلا والسؤال سيكون المستقبل لحضارة الإسلام الأخلاقية ، أم لحضارة الغرب المادية ؟ قطعاً إن المستقبل سيكون للإسلام لأنه الدين الذى يدعو إلى تعمير الدنيا والآخرة فى وقت واحد ويربى الإنسان على أن يرتبط بالأرض والسماء معاً ويحترم المادة والروح ويضع القيم الأخلاقية الرفيعة فى مكانها الصحيح فى ممارسة كل صور الحياة اليومية ، ولذلك فهو الدين الأقوى والأصلح للبقاء والذى يمكن أن يتلاءم معه الإنسان فى كل عصر وفى كل مكان على الأرض أ هـ .

٧ ـ ولقد عرف الإسلام كثيرون من العلماء والنوابغ عن طريق العلم نفسه ، من هؤلاء الدكتور كليفلاند كوثران رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت والذى يقول :

أوافق كل الموافقة على العبارة التى قالها عالم الطبيعة الشهير لورد كيلفى :

« إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد بوجود الله » تبارك وتعالى .

وإن ملاحظة هذا الكون ملاحظة تقوم على الخبرة والذكاء وتدبر ما تعرفه عنه فى جميع النواحى سوف تقودنا إلى التسليم بوجود ثلاثة عوالم من الحقائق :

هى العالم المادى (المادة) والعالم الفكرى (العقل) والعالم الروحى (الروح) وأن ما تقدمه الكيمياء فى هذا الميدان لابد وأن يكون محدوداً لأنه قليل من كثير فى هذا المجال .

والكيمياء بحكم اختصاصها بدراسة التركيب والتغيرات التى تطرأ على المادة بما فى ذلك تحول المادة إلى طاقة وتحول الطاقة إلى مادة ، تعد من العلوم المادية التى ليس لها صلة بعالم الروحيات ، فكيف إذن يتسنى للكمياء أن تقدم دليلاً على وجود الروح الأعظم أو الله (تبارك وتعالى) الذى خلق هذا الكون .

وكيف ينتظر منها أن تختبر الفرض الذى يدعى أن هذا الكون قد نشأ بالمصادفة ، وأن المصادفة هى التى تديره وتدبره وأن جميع ما يحدث فيه يتم بالطريقة العشوائية .

ويقول الدكتور كوثران : إن الكيمياء تدلنا على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية : إذن إن لها بداية وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية أية مادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى لابد أن يكون مخلوقا ، وهو منذ خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة فيها أى مكان ، فإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو أن يحدد القوانين التى يخضع لها فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير عادى ، وتدل الشواهد جميعاً عى أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة ، إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى كما فى ممارسة الطب والعلاج السيكولوجى دون أن يكون هناك إرادة ، ولابد لمن يتصف بالإرادة أن يكون

موجوداً ذاتياً ، وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقاً فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويديره بهذا الشكل وبهذا التنظيم الدقيق ولابد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان ، وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله (تبارك وتعالى) خالق هذا الكون وموجده .

وفى النهاية يوكد كوثران : على أن التقدم المادى الذى أحرزته العلوم منذ أيام (لورد كيلفن) يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل من أننا إذا فكرنا تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى فآمنا وشهدنا بأنه لا إله غيره .

٨ ـ ويقول دكتور مراد هوفمان السفير الألمانى فى المغرب فى كتابه (الإسلام هو البديل) إن الإسلام هو البديل قد جاء كرد غير مباشر على كتاب نهاية التاريخ الذى ظن على أثر انهيار الشيوعية أن أسلوب الحياة الأمريكية هو وحده الذى سيسود وعلى الآخرين اتباعه وهذا أمر غير صحيح إن الحضارة الإسلامية بقيمتها الإنسانية الرفيعة غير بعيدة عن الحضارة الأوربية المعاصرة ، بل إن الكثير من الجوانب المشرقة فى الحضارة الغربية المعاصرة بما فى الاكتشافات العلمية والفنون الإبداعية والمناهج الهندسية تعود بجذورها إلى الإسلام وحضارته العريقة .

إن المشكلة تكمن فى أن الكثير من الأوربيين لا يدركون هذه الحقيقة ، ولا يدركون بالتالى كيف يكون الإسلام هو البديل لنمط الحياة السائد اليوم فى المجتمعات الغربية .

لقد وجدت فى القرآن الكريم المصادر الحقيقة التى يستطيع الإنسان أن يستمد منها أسباب القوة الروحية والقدرة على الصمود فى وجه المكاره ، إن الإسلام يقدم حلولاً كثيرة للقضايا والأزمات التى تعانى منها المجتمعات الغربية خاصة الأزمات التى تفرزها ظواهر تفشى المخدرات والتفكك العائلى وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية والسلوكية التى تهدد حياة الفرد فى تلك المجتمعات بالتفكك والانهيار .

ويقول دكتور مراد هوفمان :

كان الإسلام إبان الصراع بين العالم الغربى والشيوعية يستطيع أن يعد نفسه الطريق الثالث المباينة لهما أى أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائديا ، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلا لكل النظامين وذلك لتوفير الحياة على وجه أفضل وتذليل مشكلاتها المستفحلة خاصة بعد أن عاد العالم من جديد يصطرع كتلتين اثنتين .

ولا يخفى على المتأمل البعيد الرؤية أن يرى الزحف الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين مسيطراً ممكنا دينا لأغلبية البشر ، أما كون هذا الزعم الذى تؤكده مجريات الأمور حقيقة واقعة إن شاء الله فذلك ما أشار إليه عنوان الكتاب : إن الإسلام لايطرح نفسه بديلا خياراً للمجتمعات الغربية ، ذلك أنه بالفعل هو البديل الوحيد .

إنى أعتقد أن حركة تجديد الإسلام ستأتى فى القرن الحادى والعشرين من أوربا .

وتقول أنا مارى شميل فى مقدمة كتاب هوفمان : إن الحل الوحيد للخروج من الهاوية التى سقط فيها الغرب هو الدخول فى الإسلام .

إنه ينتقد جنون الاستهلاك والتبذير والإباحة غير الخلقية والجنس الفاحش والإجهاض وآلية الإحصاءات .

إنه يقرع أجراس الأخطار أمام أوربا ويبين لها أن الطريق الذى تسير فيه المدينة الأوربية قد أصبح طريقا مسدوداً وهذا الكلام ليس جديداً سماعه ، وإن عقليات فلسفية قد سبقت لهذه الفكرة ، مثل سقوط الغرب لتبنجلدر حيث لم يسلم من النقد والتجريح والسخرية .

وتقول الدكتورة أنا مارى شميل : إن مصطلح الحرب المقدسة التى استهلكته وسائل الإعلام الغربية هو اصطلاح لا علاقة له بالإسلام ولا يمت بأى صلة لمصطلح الجهاد وإنما هو من مخلفات الحروب الصليبية .

أما الجهاد فكلمة عربية تعنى لغويا (النصب) التعب والسعى الدائم المستمر وتعنى دينيا الجهاد فى سبيل الله دفاعاً عن الدين لا عدوانا باغياً .

إن هذه الأحكام الظالمة التى يصدرها الغرب هى أحكام تبقى على سوء الفهم أو سوء

القصد ، تجد فى كتاب الدكتور مراد هوفمان ما يصححها ، لقد درس الرجل القانون والفلسفة فى جامعة هارفاد ، ثم أسلم عن اقتناع وعلم ، وبالتالى فهو يقدم نظرة تحليلية للإسلام ويحاول إظهاره فى صورته الحقيقية بعيداً عن المغرضين من أهل الغرب .

٩ ـ ويجىء فى هذا المجال الإنصاف للإسلام من أهل الأديان حيث نجد الدكتور إدوار غالى الذهبى (رئيس هيئة قضايا الدولة السابق فى مصر) حيث يقول : إن الإسلام هو دين العدالة والمساواة والرحمة للناس جميعاً ، إن الكسب الوحيد الذى تحقق لى شخصياً هو الدراسة المتعمقة لمعرفة مبادىء الإسلام السامية والتى صححت عندى الكثير من المفاهيم الخاطئة من الإسلام حيث تبين لى أن الإسلام دين العدالة والمساواة والرحمة والمودة وحسن المعاملة للبشر جميعاً وخاصة أهل الكتاب منهم .

وأهم تلك الحقائق معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ، حيث تبين أن التفرقة بين البشر فيما هو دنيوى حسب عقيدتهم أو جنسيتهم أو لونهم ليس من منهج الإسلام ، لأن القاعدة عنده هى (المساواة) وقد كان نبى الإسلام ﷺ لا يفرق فى علاقاته الاجتماعية بين المسلمين وغيرهم حيث كان يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم ويأكل من طعامهم ويواسيهم فى مصائبهم ويعاملهم خير معاملة ولم يتردد فى زيارة يهودى مريض فى بيته والوقوف احتراماً لجنازة آخر ، كما أكرم وفادة نصارى نجران حتى إنه عليه أزكى الصلاة والسلام أنزلهم فى مسجده وأذن لهم بالصلاة إلى جوار المسلمين كما ثبت أن العدل فى الإسلام قيمة مطلقة وليست نسبية ، حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال عن العدل : أنه لارخصة فيه من قريب أو بعيد وكما قال ابن تيمية : إن العدل نظام كل شىء ، فإذا أقمتم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق وإن لم يقم عدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة وقبل هؤلاء كان الحديث النبوى الشريف : « **عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة** » .

أما حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى فإن هذه الحقوق تحكمها القاعدة الذهبية التى ينص عليها الحديث الشريف « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » والتى التزم بها المسلمون مدى تاريخهم الطويل ، من ذلك حرمة دم الذمى وعرضه وماله كحرمة دم المسلم وعرضه وماله .

كما يقرر الفقه الإسلامى لأهل الكتاب الحق فى مباشرة التصرفات التى تجيزها

شرائعهم كما ضمن الإسلام لغير المسلمين الحق فى العمل والتجارة وممارسة جميع أنواع النشاط الاقتصادى شأن المسلمين تماماً ، وهكذا فإن الإسلام قد بلغ شأناً عظيماً فى حسن معاملة الأقليات والبر بهم والقسط إليهم وتركهم يدينون عملا بالآية الكريمة ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٥٦] إنه من الظلم البين أن يحاسب الإسلام بتصرفات بعض المسلمين فالعدالة تقتضى أن تقاس تصرفات المسلمين بمعايير الإسلام أ هـ .

١٠ ـ ويجىء بعد ذلك الحدث الكبير : فى يقظة الغرب على فهم الإسلام من جديد فى حديث الأمير تشارلز عن الإسلام وعلاقته بالغرب ، هذه المحاضرة التى ألقاها فى جامعة أكسفورد سنة ١٩٩٤ .

وقد أحدثت المحاضرة ردود فعل إيجابية فى أنحاء العالم الإسلامى وهذه العناصر الرئيسية فى هذا التقرير المنصف من رجل مرموق فى بلد كان لها مواقفها الخطيرة بالنسبة للإسلام وأهله خلال أكثر من قرن من الزمان إبان استعمارها للعالم الإسلامى والسيطرة عليه وهذه جملة حقائق أساسية :

أولا : إن هناك بليون مسلم موزعون فى أنحاء العالم ، عدة ملايين منهم يعيشون فى دول رابطة الكومنولث ، منهم مليون مسلم فى بريطانيا ونحو عشرة ملايين موزعون فى مختلف أنحاء العالم العربى .

إن المجتمع الإسلامى فى بريطانيا فى ازدياد ونمو من عشرات السنين ، وهناك نحو ٥٠٠ جامع فى بريطانيا ، وأذكر بالمهرجان الإسلامى الرائع الذى أقيم عام ١٩٧٦ .

الإسلام هو بيتنا وحوالينا.

ثانيا : سجل متاعب المسلمين فى مختلف أنحاء العالم فى يوغسلافيا والصومال وأنجولا والسوادن وفى العديد من جمهوريات الاتحاد السوفييتى سابقا ففى يوغسلافيا نشاهد مآسى المسلمين فى البوسنة والجنسيات الأخرى تتصارع فى حرب شرسة ، هذه هى القضايا التى تزكى الخوف والحقد وتبقى هذا الشعور بين العالمين الإسلامى والمسيحى أن النزاع ينشب بسبب سوء استعمال السلطة وتصادم العقائد .

ثالثاً : إنه من الغريب أن يستمر سوء الفهم قائما بين العالمين الإسلامى والمسيحى إذ أن الروابط التى تجمع بين عالمنا هى أقوى بكثير من العوامل التى تفرق بيننا ، فإن المسلمين والمسيحيين واليهود هم منهم أصحاب كتاب ، فالإسلام والمسجد من ناحية يشتركان فى فكرة التوحيد : الإيمان بإله قدسى واحد وزوال حياتنا يوما ومحاسبتنا على ما اقترفناه من أعمال فى هذا العالم وكذلك اعتقادنا فى حياة ثانية ، كما أننا نجد لدينا قيما مشتركة رئيسية كاحترامنا للمعرفة والعدل والعطف على الفقير ، وقد ارتبط تاريخ كل منا بالآخر ولكن هنا تكمن جذور المشكلة ، إذ أن الكثير من هذا التاريخ يتصف بالنزاع بيننا أربعة عشر قرنا اتسمت بالعداء المتبادل مما أدى إلى مسار تقليدى من الخوف والشك لأن عالمينا ينظران إلى هذا الماضى من زوايا متناقضة ، فمثلا ينظر طلاب المدارس الغربية إلى الحروب الصليبية التى امتدت عبر مائتى عام بأنها مغامرات بطولية اشترك فيها الملوك والفرسان والأمراء حتى الطلاب الأوربيون لانقاذ القدس من المسلمين القساة .

أما بالنسبة للمسلمين فإن الحروب الصليبية كانت سجلا وعهودا من الظلم والفسق والجرائم الفظيعة التى ارتكبها الجنود الغربيون والكفرة : جنود النهب والمذابح المرعبة حيث تمثلت خير تمثيل فى المذابح التى ارتكبها الصليبيون عندما احتلوا القدس عام ١٠٩٩ ثالث أقدس مدينة فى الإسلام .

أما نحن فى الغرب فإننا نحتفل بعام ١٤٩٢ بأنه شهادة على الجهد البشرى والأفق الجديد للعالم الذى اكتشفه كولومبوس .

أما المسلمون فإنهم ينظرون إلى عام ١٤٩٢ كنهاية مؤلمة تتمثل فى سقوط غرناطة فى أيدى الملك فرديناند وايزابلا معلنة نهاية ثمانية قرون من الحضارة الإسلامية فى أوربا .

إن النقطة التى أشير إليها هنا ليست فى أى الروايتين هى الأصح أو أى منهما هى الصادقة ، ولكنى أود الإشارة إلى أن سوء الفهم ينجم عندما نفشل فى تقدير رؤية الآخرين إلى العالم وإلى تاريخه وإلى الأدوار التى قمنا بها على ذلك المسرح .

إننا فى الغرب ننظر فى تاريخنا إلى الإسلام فنراه مصدراً للتهديد ، وفى القرون الوسطى تمثل بالفتوحات العسكرية ، وفى الوقت الحاضر كمصدر لعدم التحمل والتطرف والإرهاب

ويستطيع الإنسان أن يتفهم كيف أن احتلال السلطان محمد للقسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وانهزام الأتراك فى ضواحى فيينا فى ١٥٣٤ و ١٦٨٣ أما حكم الأتراك للبلقان فقد قدم المزيد من الأمثلة على الظلم الذى استولى على العالم الغربى .

ولكن التهديد لم يكن وقفا على طرف واحد إذ عندما غزا نابليون مصر عام ١٧٩٨ وتبع ذلك الغزوات والفتوحات فى القرن التاسع عشر أصبح العالم العربى كله محتلا من قبل الدول الأوربية وبسقوط الإمبراطورية العثمانية أصبح الاحتلال الأوربى للعالم الإسلامى كاملا جامعا ، هذا النوع من الاحتلال قد انقضت أيامه الآن .

ولكن حتى هذا فإن رؤيتنا للإسلام هى رؤية ناقصة شوهتها أعمال التطرف وغير الطبيعية .

فإننا فى الغرب ننظر إلى الإسلام على ضوء الحرب المؤلفة فى لبنان وأعمال القتل وتفجير القنابل التى قامت بها الجامعات المتطرفة فى الشرق الأوسط والتى تعرف بالأصولية الإسلامية ، لقد تشوه حكمنا على الإسلام لأننا حسبنا التطرف هو الأمر العادى الأساسى ، وهذا يشابه الحكم على الحياة فى بريطانيا ، أعمال القتل والاغتصاب وتعاطى المخدرات .

إن التطرف موجود ويجب معالجته ، ولكن باعتباره الأمر الأساسى فى الحكم على أى مجتمع يؤدى إلى التشويه وافتقار هذا الحكم إلى العدالة .

رابعاً : كثيرون من الناس هنا ينظرون إلى الشريعة الإسلامية بأنها قاسية وبربرية وغير عادلة ، إن صحفنا قبل الجميع تعشق الخوض فى هذه الأحقاد : إن الحقيقة هى غير هذا ، فهى مختلفة عن هذا التفكير وأكثر تعقيداً .

إن القاعدة المرشدة وروحانية الشريعة الإسلامية التى ينص عليها القرآن الكريم أساسها الرحمة والعدل .

ويتوجب علينا أن ندرس التطبيق العقلى لها قبل أن نصدر حكمنا عليها ، كما يجب علينا أن نفرق بين أنظمة العدل التى يجرى تطبيقها والتى تخلو من أية عقلانية سياسية وتتحول إلى أسلوب غير إسلامى تماماً ، كما يجب أن نأخذ أيضاً بعين الاعتبار الجدل الحاد القائم فى العالم الإسلامى نفسه حول مدى شمولية وديمومة الشريعة الإسلامية والمدى المستمر فى تغيير وتطوير تطبيق هذه الشريعة .

خامساً : كذلك يجب علينا أن نفرق بين الإسلام الصحيح وبين تصرفات بعض الدول الإسلامية نظرة غربية متحيزة أخرى ، وهى الحكم على وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى وفى الحالات المتطرفة جداً .

ولكن الإسلام ليس بكيان أحادى متراص ، والوضع ليس بتلك السهولة إذ يجب أن نذكر أن بلادا إسلامية كتركيا وسورية ومصر قد أعطت المرأة حقوقها منذ أن حصلت المرأة الأوربية على هذه الحقوق .

ففى هذه الأقطار تمتعت المرأة منذ أمد طويل بالمساواة فى الرواتب وفرص العمل فى مجتمعاتها .

كما أن القرآن الكريم قد نص على حقوق المرأة فى الإرث والتملك وشىء من الحماية فى حالات الطلاق والقيام ببعض الأعمال .

وهذا قبل أربعة عشر قرنا ، مع أنه لم يجر تطبيقها عملياً فى كل مكان ، ففى بريطانيا كانت بعض هذه الحقوق أمورا جديدة حتى فى أيام جيل جدتى .

سادساً : إننا فى الغرب نحتاج أيضاً إلى أن نفهم الرؤية التى يحملها العالم الإسلامى عنا ، إذ لا فائدة هناك، بل على العكس هناك الكثير من الضرر إذا رفضنا أن نتفهم الخوف من مادية العالم الغربى والتراث الجماعى بأنه تحدّ للتراث الإسلامى ونوعية حياة المسلمين .

بعضنا قد يعتقد أن المعدات المادية فى المجتمع الغربى التى تقوم بتصديرها إلى العالم الإسلامى كالتليفزيون والوجبات الغذائية السريعة والمعدات الألكترونية التى هى جزء من حياتنا اليومية بأنها وسائل تحديث عصرية وتأثير فى حد ذاتها ، ولكننا سنكون ضحية الاستعلاء والاستكبار إذا نحن خلطنا بين التصرف العصرى الحديث فى بلاد أخرى واعتقادنا بأنهم أصبحوا مثلنا .

والواقع أن هذه المادية الغربية قد تثير حفيظة المسلمين الطيبين المتدينين (ولا أعنى هنا فقط المتطرفين منهم) إذ يجب علينا أن نفهم ردود الفعل هذه تماماً كرد فعل الغرب إزاء ظروف الحياة الإسلامية الأكثر حدة وشدة ، إن هذا فى اعتقادى سيساعدنا على تفهم خطر الأصولية الإسلامية إذ يجب أن نكون حذرين عند استعمال كلمة (الأصولية) وأن نفرق

كما يفعل المسلمون بين مختلف الفرقاء الذين يمارسون منهاجهم الدينى بكل خشوع وتعبد حقيقى وبين المتعصبين والمتطرفين الذين يتمسكون بالخشوع والمظهر الدينى لأغراض سياسية .

هناك إحساس قوى وشعور بالحقيقة فى القطاعات الإسلامية الدينية والاجتماعية والسياسية لإدراكهم أن التقنية الغربية والأشياء المادية الغربية لم تعد كافية وأن العمق الحقيقى للحياة يوجد فى مكان آخر ألا وهو فى الجوهر الحقيقى للإسلام .

وفى نفس الوقت يجب ألا تنزلق أفكارنا بالاعتقاد بأن التطرف هو فى بعض الحالات المعلم والجوهرى فى الدين الإسلامى .

إذ أن التطرف ليس وقفا على الإسلام فحسب فهو موجود فى صلب الأديان الأخرى ومنها الدين المسيحى ، والأغلبية العظمى من المسلمين مع أنها متدنية ، إلا أنهم يتبعون الاعتدال فى حياتهم السياسية فإن دينهم هو الطريق الوسط والرسول ﷺ كره التطرف وأبدى تخوفه من التطرف ، ولعل التخوف من اليقظة الإسلامية التى شاعت فى الثمانينات بدأت الآن تشق طريقها فى العالم الغربى لتفهم القوى الروحية التى تكمن وراء هذه الانطلاقة ، ولكن إذا شئنا أن نتفهم هذه الحركة المهمة يتوجب علينا أن نفرق بكل وضوح بين ما تؤمن به الغالبية الكبرى من المسلمين وبين أعمال العنف الرهيبة التى تخوضها فئة قليلة ، والتى يتوجب على الشعوب المتحضرة فى كل مكان أن تستنكرها .

سابعاً : إذا كان الغرب يسيء فهم طبيعة الإسلام ، فهناك ما زال جهل كبير حول ما تدين به حضارتنا وثقافتنا للعالم الإسلامى .

ذلك نقص نعانية من دروس التاريخ الضيق الأفق الذى ورثناه ، فالعالم الإسلامى فى القرون الوسطى من آسيا الوسطى إلى شاطىء الأطلسى كان يعج بالعلماء ورجال الدين ولكن بما أننا رأينا فى الإسلام عدواً للغرب وكثقافة غريبة بنظام حياتنا ومجتمعنا فقد تجاهلنا تأثيره الكبير على تاريخنا ، فلنأخذ مثلا كيفية تقليلنا من أهمية ٨٠٠ سنة من التراث الإسلامى فى أسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر فلا مفر من الاعتراف بمساهمة أسبانيا المسلمة فى الحفاظ على الدراسات الكلاسيكية فى العصور المظلمة والانطلاقات الأولية لعصر النهضة .

ولكن أسبانيا المسلمة كانت أكثر من مخزن للحضارة الإغريقية التى التهمها العالم الغربى المعاصر ، إذ لم تقتصر أسبانيا المسلمة على جمع وحفظ المحتوى الثقافى للمدينتين الإغريقية والرومانية فحسب ، ولكنها قامت بتفسيرها والتوسع فيها وأسهمت من ناحيتها فى الجهد البشرى فى عدة قطاعات من العلوم والفلك والرياضيات والجبر (وهى كلمة عربية بحد ذاتها) والقانون والتاريخ والطب وعلم المستحضرات الطبية والبصريات والزراعة والهندسة المعمارية والدين ، وكأمثالهما فى الشرق مثل ابن سينا والرازى ، فإن ابن رشد وابن زهر أسهما فى دراسة الطب وممارسته بأساليب استفادت منها أوربا لعدة قرون فيما بعد .

ثامناً : لقد رعى الإسلام وحافظ على السعى وراء العلم والمعرفة وهناك قول مأثور جاء فيه (أن الحبر الذى يكتب به العالم لهو أكبر قداسة من دم الشهيد) ، ففى القرن العاشر كانت قرطبة أكثر مدن أوروبا حضارة ، كانت هناك المكتبات فى أسبانيا تستعير منها الكتب فى الوقت الذى كان فيه الملك الفريد يخبط خبط عشواء فى فن الطهى فى هذه البلاد ، ويقال إن مكتبة والى قرطبة ضمت ٤٠٠ ألف مجلد وكانت أكبر من مكتبات أوربا كلها مجتمعة ، وكان ذلك ممكنا لأن العالم الإسلامى عندئذ تمكن من نقل الكفاءات والقدرات الصينية فى صنع الورق وسبقوا بذلك أوربا غير المسلمة بمدة أربعمائة سنة وكثيرة هى السمات واللمسات التى تعتز بها أوربا الحالية التى هى فعلا مقتبسة من أسبانيا المسلمة : الدبلوماسية والتجارة الحرة والحدود المفتوحة وأساليب البحوث الأكاديمية فى علم أصل الإنسان والأزياء والأدوية البديلة فكل هذه وصلتنا من هذه المدنية العظيمة .

وكان الإسلام فى القرون الوسطى معروفاً بالحلم والتسامح عندما كان يسمح لليهود والمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية واضعا بذلك مثالا لم يتعلمه الغرب لسوء الحظ لعدة قرون .

تاسعاً : إن الأمر العجيب هو وجود الإسلام فى أوربا كجزء منها منذ أمد طويل أولاً فى أسبانيا ثم فى البلقان ، وكذلك مساهمته فى حضارتنا التى كثيراً ما نعتقد خطأ بأنها حضارة غربية كلياً .

إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع ميادين الجهد البشرى ، لقد ساعد الإسلام على تكوين أوربا المعاصرة فهو جزء من تراثنا وليس شيئاً مستقلا بعيداً عنا وأكثر من هذا ، فالإسلام يستطيع أن يعلمنا اليوم كيف نفهم وكيف نعيش فى عالمنا المسيحى

الذى يفتقر إلى المسيحية التى فقدها ، فالإسلام فى جوهره يحتفظ بنظرة مدمجة ويرفض أن يفصل بين الإنسان والطبيعة أو بين الدين والعلم أو بين العقل والمادة ، كما حافظ على وجهة نظر ميتافيزيقية موحدة للإنسان وللعالم الذى يحيط بنا ، وفى جوهر المسيحية ما زال هناك نظرة مدمجة لقداسة العالم وشعور صاف بالمسئولية والأمانة التى أوكلت إلينا للحفاظ على الطبيعة التى تحيط بنا .

ولكن الغرب بدأ يفقد رؤياه تدريجيا بقدوم العلماء أمثال كوبرنيكوس وديكارت وانطلاقة الثورة العلمية ولم تعد الفلسفة الشمولية للطبيعة جزءاً من اعتقاداتنا اليومية .

إنى أعتقد أنه من المؤسف أن العالم الخارجى الذى أوجدناه من مئات السنوات الأخيرة أصبح يعكس الانقسام الذى يعيش فيه فى داخل بلادنا ، فقد ازداد تمسك الحضارة الغربية بالتملك والاستغلال المادى متحدية بذلك الالتزامات المفروضة تجاه البيئة التى نعيش فيها ونستطيع أن نتعلم من الإسلام الشعور بأهمية الخصائص الروحية لهذا العالم الذى يحيط بنا .

إنى أطالب بتفهم أعمق وأكثر شمولية لعالمنا وأن نوجد بعداً ميتافيزيقيا وماديا لحياتنا لنعيد عملية الاتزان التى فقدناها والتى أعتقد أن انعدامها سيكون مصيبة كبرى على المدى البعيد ، فإذا كانت أساليب الفكر والتفكير الموجودة فى الإسلام وفى غيره من الأديان تستطيع أن تساعدنا فى هذا المسعى عندئذ تكون هذه الأشياء هى التى يجب أن نتعلمها ، والتى أعتقد أن تجاهلنا أياها سيكون وبالاً علينا .

عاشراً : إن العالمان الإسلامى والغربى شركاء فى مشكلات مشتركة تواجهنا ، كيف مثلا نتكيف مع التغيرات فى مجتمعاتنا وكيف نساعد الجيل الناشىء على مواجهة مستقبله بعد أن أصبح منعزلا عن عائلته وقيم المجتمع الذى يعيشون فيه ، وكيف نواجه متطلبات المخدرات والتفكك العائلى ، وطبيعى أن تختلف هذه المشكلات فى طبيعتها وحجمها بين مجتمع وآخر .

يجب علينا أن نتعلم كيف يفهم بعضنا البعض وأن نقوم بتدريس أطفالنا من الجيل الجديد بأسلوب يتفهمون منه متطلبات الحياة سعيا وراء الاحترام المتبادل والتسامح إذا أردنا أن نوجد مسرحا مشتركا بيننا وأن نعمل سويا للوصول إلى الحلول المرجوة ، إننى مقتنع

تمام الاقتناع بأن العالمين الإسلامى والغربى يستطيعان أن يتعلما الكثير كل من الآخر ، وإذا كانت الحاجة إلى التسامح والتبادل هى حقا رغبة عالمية فيجب أن نقوم عندئذ بتنفيذها بقوة .

ومن الطبيعى أن التسامح والتحمل والتفهم يجب أن يكون باتجاهين ، وهذا يعنى لنا نحن غير المسلمين بأن نحترم المشاعر الإسلامية اليومية وأن الحاجة تستدعى من المسلمين احترام تاريخ وثقافة بلدنا وتقوية الروابط بين مختلف الجماعات ، إن عالمينا يستطيعان العطاء ومنح الكثير كل للآخر . أ هـ .

* * *

الفصل الخامس

ترشيد الصحوة = اللغة والتاريخ والتراث

أولا : المؤامرة على الفصحى لغة القرآن :

ركزت الصحوة خلال مرحلة الصحوة على ترشيد المقومات الثلاثة الكبرى للأمة الإسلامية ، وقد كان النفوذ الأجنبى قد حشد شحنا كبيراً وواسعاً وعميقاً للغة والتاريخ والتراث فى محاولة لفصل المسلمين عن جذورهم التى شكلت وجودهم منذ أربعة عشر قرنا ومن هنا جاءت الحملة المستمرة التى امتدت منذ بدأ النفوذ الأجنبى (الحملة الفرنسية والاحتلال البريطانى) لهدم هذه المقررات الأساسية وتدميرها .

« اللغة » بوصفها وعاء القرآن الكريم والركيزة الأساسية للفكر الإسلامى ، «والتاريخ» بوصفه تجربة الأمة الإسلامية فى صناعة الحياة والمجتمع ، « والتراث » بوصفه الضوء الكاشف للمعطيات التى قدمها الإسلام فى مجال العلوم التجريبية والإنسانية .

لقد توالت المحاولات الماكرة اللئيمة التى كانت ولا تزال تستهدف أمراً واحداً هو : عزل المسلمين عن بيان القرآن وعن أسلوبه وشق وحدة اللسان والكلمة بإعلاء العاميات فى مختلف أنحاء البلاد الإسلامية حتى تنمو تلك العاميات وتصبح لغات منفصلة (كما حدث للاتينية والإغريقية فى الغرب) وعندئذ يصبح القرآن « تراثاً » يترجم ويقرأ عن طريق القواميس وهم يصنعون تجربة اللغة اللاتينية بالنسبة للإنجيل فى أوربا كصورة نموذجية للمحاولة ويجهلون مدى الفارق البعيد بين اللغتين ، وينسون أن الإنجيل لم ينزل باللغة اللاتينية أصلاً وإنما ترجم إليها .

ولما عجزت العامية ، قدمت خطة الكتابة بالحروف اللاتينية واصطنعت المحافل اللغة الرسمية فى تقديم عشرات من المشروعات كان أخطرها مشروع عبد العزيز فهمى الذى قوبل بالسخط والنكير من جميع حماة اللغة العربية والذائدين عنها ، وإذا كان أتباع التغريب من أمثال لطفى السيد وطه حسين عجزوا عن أن يعلنوا رأياً صريحا قاطعاً ،

ذلك أن لطفى السيد نفسه كان من أوائل المصريين الذين حملوا لواء الدعوة العامية فى جريدة (الجريدة) بعد أن مهد لها ويلكوكس - وويلمور - ودنلوب .

ثم كانت خطة ثالثة هى اللغة الوسطى وهى دعوة حمل لواءها فريد أبو حديد وتوفيق الحكيم وأمين الخولى ، وفى محاولة ماكرة لفصل اللغة العربية الفصحى عن لغة الكلام ولغة الكتابة بإعلاء اللهجات واعتماد اللغة الصحفية لغة أساسية فلا هى عامية ولا هى فصحى ولكنها تنزل درجة عن الفصحى لتنفصل عن (بيان القرآن) ولتكون مقدمة لمرحلة أخرى تصل بها إلى العامية .

ثم جاءت محاولة طه حسين تبديل الخط العربى وقواعد النحو باسم تطوير اللغة تحت اسم تهذيب أو تيسير أو إصلاح أو تجديد وهى أسماء لبقة مرنة تخفى وراءها هدفا خطيراً هو كما عبر عنه الدكتور محمد محمد حسين :

(التحلل من القوانين والأصول التى صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنا أو يزيد وهى القوانين التى ضمنت لها القدرة على مطالعة تراث المسلمين والعرب ، فإذا تحققت هذه الخطة التى تسمى بالتطوير أو التهذيب وتحللنا من هذه الأصول والقوانين والقواعد التى صانت اللغة هذه القرون ، كانت النتيجة تحقيق الهدف فى تبلبل الألسنة بين المصرى والشامى والمغربى ، وتصبح قراءة القرآن والتراث العربى والإسلامى متعذرة على غير المتخصصين من دارسى الآثار ومفسرى الطلاسم ، وعندئذ تصبح وحدة العرب مقدمة لوحدة المسلمين عملاً باطلاً) .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : ليس الخطر فى الدعوة إلى العامية ولا الدعوة إلى الحروف اللاتينية ولا إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو إسقاطها وإنما الخطر فى هؤلاء العتاة الذين يعرفون كيف يخدعون الصيد بإخفاء الشراك ، إن الخطر الحقيقى هو فى الدعوات التى يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويضعونها فى أحب الصور إلى الناس ولا يطمعون فى كسب عاجل ولا يطلبون انقلابا كاملا ، إن الخطر الحقيقى هو فى قبول « مبدأ التطوير » نفسه لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهى إلى حد معين أو مدى معروف يقف عنده التطوير ، ولا ريب أن التزحزح عن الحق كالتفريط فى العرض .

وهكذا نجد أن اللغة العربية بوصفها لغة القرآن أخذت فى هذه المرحلة طابعاً جديداً يركز كثيراً على ارتباط اللغة العربية بالإسلام من ناحية وبالقرآن من ناحية أخرى ويتحدث الباحثون عن أن فى القرآن الكريم تنوعت الإشارات إلى العربية وبدت بين العربية كلغة وبين الأعرابية كثقافة جاهلية فوارق واضحة وقد ورد ذكر الأعراب فى القرآن عشر مرات أغلبها فى معرض الذم مثل ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾ [التوبة : الآية ٩٧] ﴿ **قالت الأعراب آمنّا** ﴾ [سورة الحجرات : الآية ١٤] أما العربية كلغة فقد وردت أكثر من عشر مرات كلها تؤكد أن العربية لغة الإسلام والقرآن ﴿ **وهذا لسان عربى مبين** ﴾ [النحل : الآية ١٠٣] .

وهكذا جاء القرآن الكريم الذى هو النص المحورى فى الحضارة العربية الإسلامية ليشهد باقتران الدين الإسلامى باللغة العربية ويستبعد الثقافة العربية الجاهلية والأعرابية لتؤسس ثقافة جديدة هى العربية الإسلامية .

وفى الحديث النبوى وردت تأكيدات كثيرة على أصالة اللغة العربية بالدين الإسلامى وامتزاج ما هو عربى بما هو إسلامى ، بل جعل النبى ﷺ حب العرب من الإيمان « حب العرب إيمان وبغضهم كفر » .

وهناك حديث النبى ﷺ « **من تكلم العربية ورضى دين العرب ديناً لنفسه ورضى حكمها له أو عليه فهو عربى ومن برىء من العربية برئت منه** » وحديثه : « **ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى** » ، وتتعدد الآيات التى تمثل أن العربية مع الإسلام صارت هوية ثقافية لمن هو مسلم ما دام يتحدث بها بل الإسلام ذاته موصوف بأنه « **دين العرب والعربية ذاتها لغة الإسلام وشرط الإيمان** » .

ويرى الباحثون أنه لما استفز ابن غرسية حفيظة علماء الإسلام برسالته التى يفضل فيها العجم على العرب ، رد عليه أبو مروان الأوسى برسالة سماها بـ (الاستدلال الحق فى تفضيل العرب على سائر الخلق) ولم يكن انتصار علماء الإسلام للعربية قائماً على أنها مجرد لغة ولسان ، فهم لم يتعرضوا للعربية الجاهلية ، وإنما قام انتصارهم على أنها لغة الإسلام .

وقال ابن خلدون : والعرب لا تقوم لهم قائمة إلا بدين من وحى أو ولاية أو نحو ذلك .

ومن دلالة المخالفة أن إجراءات كمال أتاتورك كانت تركز على اللغة العربية بهدف إقرار العلمانية وطمس الهوية الإسلامية وفصل الدولة عن كل ما هو عربى ، فقد أوقف الأذان وقراءة القرآن بالعربية وغير نسق الكتابة من الحروف العربية إلى اللاتينية .

ويقول الدكتور حسام الخطيب : لقد آن الأوان لأن نحترم لغتنا ونخدمها ونتعرف إلى ما فيها من مزايا وإلى ما تحتاجه من تطوير وأن اتساع الهوة بين اللغة وأهلها ليس فى صالح التطوير والتقديم .

لقد ارتضينا العربية لنا ولا محيد عنها وهى لغة قرآننا وثقافتنا وتاريخنا كما هى لغة حاضرنا ومستقبلنا وهى لا تحتاج إلى تمجيد .

ويتحدث الأستاذ محمد الجندى عن ضرورة تعليم الناشئة للغة العربية فى مرحلة التعليم الأساسى ، الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن على الأقل والتوجه نحو تقليل الاهتمام باللغات الأجنبية فى المراحل الأساسية التى تتكون فيها هوية الانتماء وانتماءاتهم وعلى وسائل الإعلام والمعلومات المختلفة القيام بدور مكمل للجانب التعليمى والإعلامى بالاهتمام بإصدار تشريعات تقضى بكتابة اللافتات على المحال التجارية والشركات والفنادق كما يحظر كتابة الأسماء الأجنبية عليها بحروف عربية .

ويركز باحثون آخرون عن علاقة اللغة العربية بالقرآن من حيث أن القرآن نزل بلغة عربية ، ولن تستطيع أن تتغلغل فى جوهر هذا الدين إلا لو أخذته بلغته التى نزل بها وتعمقت فى دراسة هذه اللغة ولذا نجد المصريين أكثر تفهما وأكثر تعمقاً للدين الإسلامى من الأفغان والهند والترك حيث لا يتم تشبع الرجل الملم بالدين حتى يصبح الدين جزءاً من حياته ، وإلا أن يفكر باللغة العربية التى يقرأ بها القرآن ، وفهم الرجل المصرى العادى للدين ، هذا الفهم نجده أصدق وأقرب من فهم الرجل التركى والفارسى حيث يلاحظ أن هذه الشعوب قد احتفظت بلغاتها ولم تتقبل اللغة العربية لغة أساسية .

يقول الأستاذ أحمد أبو زيد : ومن هنا كان حرص النفوذ الاستعمارى على حجب الشعوب الإسلامية عن تعلم اللغة العربية والتركيز على لهجاتها المحلية واللغات الأجنبية .

وقد ركز كثير من الباحثين على النص الصريح على أن اللغة التى نزل بها القرآن هى اللغة العربية ، والقرآن الكريم دستور هذه الأمة وكتاب ربها المقدس وهو

مصـدر التشـريع ، والسـنة هى المصـدر الثانى للتشـريع .

قال الإمام ابن تيمية : لما أنزل الله تبارك وتعالى كتابه باللسان العربى جعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربى وجعل السابقين إلى هذا متكلمين به « لم يكن سبيل معرفة الدين إلا بضبط اللسان وصارت معرفته من الدين ، وترتبط اللغة العربية بالإسلام ولها أوثق العلاقة بعلومه الشرعية المختلفة » (تفقهوا فى العربية وأعربوا القرآن فإنه عربى) .

إن معرفة القرآن وإدراك أسراره ومعرفة حلاله وحرامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومطلقه ومقيده ، ومتشابهه ، والوقوف على أسرار إعجازه ، كلها مرتبطة بفهم اللغة العربية .

يجب أن يدرك كل مسلم أن اللغة العربية لغة كيان يوحد المسلمين ويجمع شتاتهم ويجمعهم ويوجههم نحو وجهة واحدة ولذلك فإن لغته يجب أن تكون لها المكان الأسمى والمنزلة الرفيعة .

ولقد تعرضت العربية من أجل ذلك إلى حملات شديدة ولهجمات من أعداء الفصحى فى سبيل دفع العامية إلى الأمام ، وقد رموا الفصحى بالتحجر والجمود ورفعوا من شأن العامية ، ورأوا أنها لغة الشارع : لغة عموم الناس بينما الفصحى لغة الخاصة .

وقد تبين فساد هذا التوجه كله فإن البيان الرفيع والعمل الصحيح لا يمكن أن يقدم إلا فى إطار الفصحى لأن لها البقاء والخلود .

وهذه مجموعة من الحقائق عن عالمية اللغة العربية :

فاللغة العربية هى أقدم لغة حيث تعيش حتى اليوم دون انقطاع عن جذورها وأصولها وقواعدها ، وعلى الرغم من كل تطور تتناول مفرداتها العلمية وقليلاً من أساليبها فإنها هى اللغة التى تكلم بها امرؤ القيس والأعشى والمتنبى كما تكلم بها شوقى وحافظ ولا كذلك أى لغة أخرى حديثة فليس لها إلا أقل الشبه بأصولها ولا يفهمها اليوم إلا العلماء المتخصصون فيها ، ولا كذلك اللغات القديمة فإنها ليست الآن لغات حية مستقلة كتابة أو حديثاً فاللاتينية ساكنة النصوص واليونانية القديمة ساكنة الآثار .

وإن اللغة العربية هى مفتاح دراسة الكتب المقدسة وقد أدرك رجال الدين اليهود مدى أهمية العربية فى فهم عبرية العهد القديم « التوراة » .

واللغة العربية هى أصل اللغات الأوربية والهندية وأصل الكلام .

وتقول الدكتورة تحية عبد العزيز إسماعيل : إن اللغة العربية هى أصل اللغات الألمانية والإنجليزية والهندية وقد قارنت بين ثلاث لغات قديمة : اللاتينية والسكونية واللغة العربية الفصحى وقد أسفرت الدراسة عن حقائق تؤكد أن اللغة السكونية واللغة اللاتينية عبارة عن شطر فقط من اللغة العربية .

فاللغة العربية هى أم كل اللغات .

والتفسير العلمى لحروف أوائل السور فى القرآن الكريم ، توضح أن الله تبارك وتعالى صان العربية من الاندثار بعكس اللغات الأخرى التى تحدث أصلا الرموز الصوفية التى تثرى العربية وحدها كما فقدت الكثير على مستوى الحروف من أسرار أوائل السور .

وفى قاموس لسان العرب وحده أكثر من ١٢٠ ألف مادة .

وقد تقدمت اللغة العربية من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ من ٧٦ مليون إلى ١٠٣ مليون يتعلمونها هذا عدا أنها لغة الثقافة لألف ومائتى مليون مسلم وتمثل اللغة العربية عنصراً هاماً فى استراتيجية الدفاع عن العالم الإسلامى .

ثانيا : المؤامرة على التاريخ الإسلامى :

لابد أن يتولد فى المسلم إحساس عميق بالتاريخ : تاريخه كمسلم وعربى أساساً يرى أن هذا التاريخ هو أضخم ثروة ورثها المسلم فهو يعتز بها ويجعله كنزاً يرجع إليه فى كل موقف وفى كل أزمة .

وإذا كان كل إنسان يجب أن يعتز بتاريخه وتراثه فإن المسلم يقف من هذا الأمر موقفاً أشد قوة واعتزازاً ، ذلك أن هذا التاريخ ما يزال حياً متفاعلاً متصلاً لم يحدث بينه وبين المسلمين انقطاع خلال خمسة عشر قرنا وما تزال نجومه وأعلامه واضحة الأثر والعطاء بين المسلمين والعرب وما نزال كل يوم نرى مسلماً جديداً من كبار المثقفين وما نزال نرى كل يوم كتاباً جديداً وما تزال أسماء محمد الفاتح وصلاح الدين والظاهر بيبرس ونور الدين محمود قائمة لامعة لا تخفت أبداً وهى تصل فى قوتها إلى خالد وسعد بن أبى وقاص

والقعقاع ، وحمزة ، وأسد بن الفرات ، وموسى بن نصير ، وما يزال التاريخ يدور حول الدولة العثمانية التى هى الصورة القريبة لإمبراطورية إسلامية استمرت خمسة قرون وما تزال آثارها قائمة فى البلقان وفى قلب أوربا .

ولم يكن سقوط الخلافة عام ١٩٢٤ قد انتهى حتى الآن فلا يزال الباحثون والمؤرخون يدرسون أسباب هذا الحدث الخطير .

وما يزال فتح القسطنطينية ١٤٥٢ حدثاً لا ينساه المسلمون خاصة وأنه جاء بعد سقوط الأندلس بخمسين عاماً حيث ما يزال أحداث هذا التاريخ حية ومؤثرة ومتفاعلة مع الحاضر الذى يعيشه المسلمون وخاصة أن سقوط الخلافة قد ارتبط بدخول الصهيونية إلى بيت المقدس وهى معركة لم تحسم حتى اليوم وإن كانت القدس قد سقطت ١٩٦٧ وما تزال الأحداث تتجدد وتطالبنا بإعادة النظر فإذا كان الغربيون يحتفلون بمرور خمسة قرون على دخول أمريكا فإننا نحن المسلمين نذكر ذلك مرتبطاً بحادث سقوط الأندلس ١٤٩٢ ونحاول أن نفهم لماذا انهزم المسلمون بعد حصارهم لأسوار فيينا مرتين وخاصة فى معركة ليبانتو عندما تفوق الصليبيون فى بناء السفن ما حقق لهم النصر والخروج من البحر إلى المحيط ، هذه المعركة التى فتحت لأوربا طريق السيطرة على العالم الإسلامى بعد هزيمة الأسطول العثمانى .

إن تاريخنا هو تجربتنا الأثيرة التى لم يشهد العالم مثيلا لها وفى مفتاح حاضرنا ومستقبلنا ونحن عائدون إليها بالبحث والتحليل والتمحيص ، وإنما أرى عشرات من شباب الباحثين يراجعون هذا التاريخ فى إنصاف وسماحة ليقدموا لأجيالنا الجديدة المنطلقة إلى النصر وإلى استعادة القوة للأمة الإسلامية : خلاصة التجربة .

فنحن أساساً لا نثق بما يقدمه الاستشراق لأنه لا يخلص لنا المشورة ولا نترك دراسة تاريخنا بجانبه الإيجابى والسلبى وإذا قصرت المناهج الدراسية والجامعية فى هذا المجال فإننا سوف نقدم دراسات منصفة وصادقة فى مجالات المؤسسات الإسلامية وسوف نعاود النظر فى خاصية هذه البطولات الخالصة وخاصة فى عصر الحروب الصليبية والتتار ولأن الاستعمار يحاول أن يقدم القرون الأولى باعتبارها صورة الدولة الإسلامية التى انطوت فى محاولة للادعاء بأن الإسلام لم يطبق إلا فى عصور الخلفاء الراشدين أو أن يتنكر للدور الضخم الذى قام به أبطال البطولة الإسلامية الراشدين أو أن يتنكر للدور الضخم الذى قام به

أبطال البطولة الإسلامية فى الحروب الصليبية والتتار والفرنجة فى المغرب ومصر والشام .

ونحن نقدم تاريخنا فى إنصاف وسماحة فلسنا حاقدين أو متعصبين والأيام دول ، غاية ما هنالك أننا نتعلم من تاريخنا وننظر إليه فى تجرد فلا نقدسه ولا نتجاهله وسيظل هؤلاء الأبطال الذين قدموا أمانتهم موضع الفخر بهم نقدمهم للأجيال ليثق شبابنا أن هذه الأمة لا تموت وأنها تقدم فى كل عصر بطولات جديدة وأن الله تبارك وتعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ومن يقودها إلى النصر وإلى تطبيق منهج الله تبارك وتعالى وإقامة مجتمعه وإلى دفع الحضارة الإسلامية الأخلاقية الوجهة أساساً إلى أداء دورها فى خدمة أمة الإسلام وأن هذه المحاولات فى السيطرة على المسلمين واحتوائهم ونهب ثرواتهم بمثابة مرحلة ضعف وقع فيها المسلمون نتيجة خروجهم عن منهج الله وعجزهم عن متابعة أحكام الدين القيم ودخولهم فى مرحلة الترف والانحلال والفساد وقد عجزوا عن مقاومة التحديات والأخطار التى فرضها عليهم النفوذ الأجنبى حين قدم لهم الترف والفساد والخمر والإباحيات وشغلهم بأمور أعجزتهم عن حماية الثغور وعن امتلاك الإرادة ولكنهم فى هذه الجولة التى امتدت أكثر من قرنين إلى الآن لم يستسلموا فسرعان ما استيقظوا وقاموا وتدافعوا بالأجساد حين عجزوا عن السلاح .

إن تاريخنا الإسلامى هو عصارة تجربتنا البشرية ومدى مطابقتها للمنهج الإسلامى والشريعة الإسلامية أو مغايرتها ، فلن نغفل عنه أبداً وسنواصل إعادة بعثه وتقديمه فى ثوب عصرى بعيداً عن الأهواء والأحقاد معاً ولن تفلح كل محاولات التبشير والاستشراق فى صدنا عن تاريخنا وتراثنا ، أما منهج الله تبارك وتعالى فهو فوق المراجعة والنقد بثوابته ومتغيراته .

لقد آن الأوان أن نقف وقفة صريحة واضحة أمام دعاوى المستشرقين والعلمانيين وأتباعهم فى تقديم ما يسمى التاريخ الإقليمى وخاصة دعاوى ربط حاضر الأمة الإسلامية بماض سابق لفجر الدعوة الإسلامية ، وهذه هى المحاولة الثانية ، الأولى حجب الجوانب الأساسية فى علاقة المسلمين بالغرب وحذف بعض الوقائع والبطولات من تاريخ الإسلام بالباطل ، أما هذه فهى محاولة إنشاء تاريخ إقليمى لكل بلد إسلامى تحت عنوان الشخصية القومية وهى دعوى باطلة وكاذبة فليس هناك شخصيات قومية فى الأمة الإسلامية منفصلة تماماً عن الذاتية الإسلامية أساساً التى تشكلت عليها هذه الأمة من أربعة عشر قرنا وإن

محاولة إقامة تصور إقليمى مستقل لكل وطن سواء أكان مصر أم سوريا أو العراق أم غيرها فهو وهم باطل يراد به أمرين خطرين :

الأول : تمزيق وحدة هذه الأمة التى عاشت طوال حياتها متكاملة جامعة لم تتفرق أبداً إلا فى خلال هذه الفترة القصيرة التى كان الاستعمار فيها عاملاً لهدم الوحدة الإسلامية وإسقاط الخلافة الإسلامية .

ولقد كانت كل العوامل تؤكد وحدة هذه الأمة وتوحد إحساس أبعدها فى المغرب بأبعدها فى المشرق فى أى حادث أو أزمة : ذلك لأن هذه الأمة تشكلت على وحدة الفكر التى أقامها عليها الإسلام والقرآن .

فكيف يمكن اليوم أن نجعل لكل قطر تاريخ مستقل وكيف يمكن فصله عن الكل الجامع : هذه محاولة دعاة القومية والإقليمية وهى محاولة باطلة عجزت خلال العقود الماضية كلها عن تحقيق أى هدف صحيح وقد تبين بالدراسة المنصفة أن عوامل الوحدة والتشابه والتكامل تمثل أكثر تراث هذه الأمة ، أما عوامل الخلاف حول الجو أو الجغرافيا أو تنوع الثروات فقد جاء ليمثل تكامل عناصر هذه الأمة فما هو موجود فى أحد أقطارها مكمل لغيره فى القطر الآخر .

ثانياً : أما الهدف الآخر من خدعة (الشخصية الخاصة) فهو ذلك الحقد الذى يملأ قلوب المستشرقين والتغريبيين نحو الدولة العثمانية التى حمت الوجود الإسلامى أربعمائة عام والتى أدخلت فى نطاقها كل أقطار الإسلام بالقبول والتراضى وتقدير خطر النفوذ الأجنبى الزاحف من المغرب إلى الشام حيث لم تكن هذه الوحدة قسرية أو جبرية وإنما كانت ضرورة ملزمة قبل بها كل الأطراف ، أما اعتماد هؤلاء الكتاب على بعض كتب التاريخ التى كتبها الإقليميون أمثال ابن تغرى بردى وغيره فهو عمل باطل أساساً .

وكيف يمكن أن يقال إن كتابة تاريخ إقليمى لقطر كمصر يؤدى إلى دراسة الشخصية الإقليمية ، إذا كانت هذه الشخصية قد صاغها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا وأن كل المؤرخين المنصفين ومن بينهم بعض الغربيين ، قد قرروا أن الإسلام حين جاء قد أحدث (انقطاعا حضاريا) فاصلا بين ما كان قبل الإسلام من أديان وعقائد بل لقد اعتبر بعض الباحثين هذه الأديان مقدمة للإسلام الدين الخاتم الذى جاء للبشرية كلها وإلى يوم القيامة .

إنك ترى فى كلمات هؤلاء الدعاة إلى الباطل روح الحقد والكراهية للدولة العثمانية وهى كراهية مستمدة من التبعية للغرب الذى يحمل خلافا مع الإسلام أساساً ومع الدولة العثمانية التى اقتحمت أوربا وأقامت دولة استمرت أربعمائة عام (١٥١٧ ـ ١٩١٧) كانت خلالها موضع المؤامرة المستمرة التى لم تتوقف ولم تمكن المسلمين العثمانيين من نشر الإسلام فى أوربا .

إن الشخصيـة المصرية ليست إلا الشخصية الإسـلامية التى صنعهـا القرآن وليس شىء آخر ، وكل عوامل الطقس والجغرافيا هى عوامل جانبية إضافية لم تؤثر فى بناء الشخصية التى أقامتها العقيدة والثقافة والتراث الإسلامى على مدى هذا التاريخ الطويل ، إن دعوى إقليمية التاريخ إنما تعتمد فى أقلام هؤلاء الكتاب على معطيات يسخر منها الباحثون الأصلاء ، وهى لا تقل فساداً وتفاهة عن التفسير الماركسى للتاريخ الإسلامى الذى حاول البعض أن يقدمه خلال العقود الأخيرة ، وهى محاولة قومية ساقطة لا تقوم لها قيامة لأنها تخدع الناس بوسائل عارضة ليس لها وزن حقيقى .

ما أحوجنا فى هذه اللحظات الحاسمة فى واقع المسلمين حيث ترتبط بهذا التاريخ ارتباطاً شديداً فنحن فى حاجة إلى إعادة النظر فى تاريخ الحروب الصليبية بالمقارنة مع الغزوة الصهيونية التى تتسع اليوم وتعلن عن أخطارها وما أحوجنا إلى النظر فى تاريخ الأندلس والإسلام يتنامى هنالك ويعود إلى الظهور ، ما أحوجنا إلى إعادة النظر فى أمر مسلمى وسط آسيا الذين يواجهون أخطاراً شديدة متصلة بتاريخهم الإسلامى وكذلك الأمر فى مسلمى البوسنة وعلاقتهم بالدولة العثمانية : كل هذا يحتاج منا أن نعيد النظر فى تاريخنا وفق مفهوم أصيل فى سبيل تحقيق هدف الانتماء الإسلامى الأصيل الذى تحاول المفاهيم المغلوطة أن تحجب عنا حقيقة الانتماء الأصيل الذى يرتفع فوق مسألة الأرض والوطن والقوم والمرتبط بالوحدة الإسلامية العالمية الأصيلة .

إن هناك عشرات الكتب التى تصدر هذه الأيام تحاول أن تتناول معطيات الصحوة الإسلامية وهى تركز على الأصالة الإسلامية والعودة إلى المنابع .



[٢]

محاور التاريخ الإسلامى

حدد كثير من الباحثين محاور التاريخ الإسلامى فى ثلاث محاور :

المحور الأول : هو العقيدة فالإسلام يربط الحركة البشرية ويقومها بغاية كبرى واضحة وهى توحيد الله ورضوانه ، ولا قيمة لأى حدث بشرى ما لم يكن مستوفياً لهذه الغاية :

﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون** ﴾ . [سورة الزمر : الآية ٦٤] .

المحور الثانى : الإنسان .

فالإنسان هو محور الدعوات والرسالات وهدفها .

وهو صانع الأحداث ومحركها بمشيئة الله تعالى ثم هو ناسج التاريخ فى إطار الإرادة البشرية المحكومة بسنة الله الكونية والاجتماعية وكل معطيات الإسلام متعلقة بالإنسان .

التصور الاعتقادى : التوجية الأخلاقى ، السياسة المالية والإدارية .

الحركة الجهادية : الإنتاج العلمى ـ الحكم الشرعى .

فسلوك الإنسان مضبوط فى سنن وإن من هذه السنن أن الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة لمن استقام وأن الفساد فى الأرض ضرب من الكسب السيء للناس .

المحور الثالث : وحدة الأمة على الحق ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ . [سورة الأنبياء : الآية ٩٢] .

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ . [سورة آل عمران : الآية ١٠٣] .

ويحول دون تحقيقها الفرقة التى أثارتها النزعات الطائفية والحركات الباطنية التى كان ظهورها بالغ الأثر فى الحيلولة دون الوحدة الإسلامية .

ووفقاً لهذا الفهم يتشكل التفسير الإسلامى للتاريخ .

[٣]

التفسير الإسلامى للتاريخ

أولاً : ينظر إلى الإنسان روحياً وحسياً وتتشكل علاقاته العديدة دنيا ودينا وتعليل أحداث المجتمعات ووقائعها بشيء واحد هو عقيدة التوحيد .

ثانياً : يعتمد التفسير الإسلامى للتاريخ على صفة الصدق والأصالة التى يستمدها من القرآن الكريم فالقرآن هو المعجزة الباقية الوحيدة فى عالم النبوات والرسالات الإلهية ومناط الاستدلال على دوامها .

ثالثاً : يعتبر القرآن الكريم هو الكتاب الإلهى الوحيد الذى صان تاريخ المجتمعات ودعوات الأنبياء ، فهو المصدر الإسلامى أوفى المصادر فى أخبار البلاد قبل الإسلام حيث يوجد فى القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام ما لا يوجد فى التوراة ولا فى الإنجيل (وخاصة قصة هود وصالح وشعيب) .

رابعاً : تتلخص نظرة الإسلام للإنسان فى أن الإنسان كائن منفرد بين سائر الكائنات فى بشريته وهو مخلوق لله تبارك وتعالى وهو كبقية الكائنات مقصور على الإيمان بالله مستقل فى النشأة عن الكائنات ثم هو كائن مزدوج التركيب = العقل والقلب موحد الاتجاه مختص بتكريم الله تبارك وتعالى .

خامساً : إنكار فكرة أن البشرية كانت وثنية ثم وحدت وهى مقولة فولتير وأوجست كونت ، يقول فولتير إن الإنسانية لابد أن تكون عاشت قروناً متطاولة فى حياة مادية خالصة قبل أن تفكر فى مسألة الديانات والروحانيات .

وقال أوجست كونت : إن الأديان وإن كانت عريقة فى القدم لكن قدمها الزمانى لا يكسبها صفة الثبات والخلود بل يطبعها بطابع الشيخوخة والهرم .

وقال ماركس : إن الدين قد نشأ فى المجتمع نتيجة للخوف والقلق الذين أثارتهما الظواهر الطبيعية وإن الدين لا يعدو أن يكون وهما مصيره الحتمى هو الاختفاء .

وهذه المقولات الثلاث باطلة بطلانا تاماً فالبشرية كانت موحدة من اليوم الأول وظلت موحدة إلى رسالة محمد الخاتمة ولكن أرباب الأديان هم الذين غيروا وبدلوا .

سادساً : النظرة الواقعية للإنسان : إنه هو اللبنة الأساسية للمجتمع وهو فى عنايته بالجانب المادى للحياة كعنايته بالجانب الروحى ، فهو يجمع بينهما فى تركيبه حيث شكله الحق تبارك وتعالى من (قبضة الطين ونفخة الروح) .

والمجتمع يقوم على عقيدة وتشريع ونظام خلقى يتعايش الناس فى ظلاله وقد قرر الإسلام قدم العقيدة الدينية فى النشأة وأبديتها فى المصير ، وبذلك خالف تمام المخالفة كل ما ظهر من تفسيرات وضعية تنفى عن العقيدة قدم النشأة كأنها أمر يتطور تطوراً تصاعدياً من الإلحاد إلى التوحيد أو تنفى التفسيرات الوضعية عن العقيدة أبدية المصير ، كأنها أمر يتطور تطوراً تنازلياً من التوحيد إلى الإلحاد كما يذهب إلى ذلك أوجست كونت وكارل ماركس .

والإسلام يخالف التفسيرين الوضعيين المذكورين .

يقول المودودى : إن الذين يكتبون عن تاريخ الأديان ، كثيراً ما يميلون إلى نظرية الارتقاء التاريخى ويقولون إن الإنسان قد بدأ سيره بأدنى أشكال الشرك ، وبقدر ما تطور شعوره وتفتح ذاته ، بقدر ما ارتفع مقياسه ، حتى انتهى إلى عقيدة التوحيد .

والتاريخ ينفى هذه النظرية ، إذ كان إبراهيم قبل المسيح بـ ٢٥٠٠ سنة على عقيدة التوحيد ولا يزال يوجد بعد ٢٠٠٠ سنة من المسيح عشرات الملايين على عقيدة الشرك .

مما يدل على أنه يوجد كل نوع من أنواع العقيدة ، من الشرك إلى التوحيد بقى الارتقاء التاريخى ، من الإلحاد إلى التوحيد مما يؤكد كذب التفسير التصاعدى وكذب التفسير التنازلى فى مقولة إن الدين وهم مصيره الاختفاء بل إن فطرية التوحيد وأصالته قد انتصر لها علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس .

ومن أشهر مشاهيرهم لانج لانج الذى أثبت عقيدة الإله الأعلى عند القياس على الهمجية فى أستراليا وأفريقيا وأمريكا .

[٤]

تشويه التاريخ الإسلامى

تمثل تشويه التاريخ الإسلامى فى مخطط عالمى من عدة عناصر بهدف القضاء على الآثار الإيجابية التى يقدمها التاريخ لبناء شخصية الأمة :

أولاً : إن التاريخ هو ذاكرة الأمة التى تمدها بأسرار نهضتها عندما تتحقق الشروط الموضوعية للنهضة والانتصار ، كما تمدها أيضاً بأسباب انهيارها عندما تفقد فى بعض معايير تاريخها شروط النهضة وعوامل النصر ، وعلى الأمة أن تستفيد من عوامل الصعود والانهيار . لقد امتد تاريخ الأمة الإسلامية فى الزمان أربعة عشر قرنا وامتد فى المكان قارات آسيا وإفريقيا وأوربا وشمل قضايا الدعوة والعقيدة والسياسة والجهاد والتعليم والفنون .

ثانياً : يمثل الواقع التاريخى ترجمة لحقيقتين ؛

١ ـ المنهج الإسلامى الشامل الذى دفع المسلمين إلى العمل من حيث الباعث وسدد سعيهم من حيث الغاية .

٢ ـ إن هذا المنهج وجد طريقه إلى التطبيق فى شتى المجالات على منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والتاريخ هو التطبيق ، هؤلاء البناة الأولون الذين صنعوا تاريخنا رجالاً ونساء وآمنوا برسالة الإسلام وعرفوا كيف يعملون بها .

إن مراجعة ماضينا نستهدف منه مستقبلا مشرقا نسابق به الأمم وندفع به حركة الحياة إلى التقدم .

وعلينا أن نحذر أخطار التفكك وآثاره على حاضرنا ومستقبلنا .

وقد اختلق معظم المستشرقون الشبهات حول الإسلام ورسوله وغلفوها بلباس من المنهجية وغزوا بها العالم الإسلامى فى مؤسساته الفكرية والتربوية وتقوم مقومات الفكر الاستشراقى على الشبهات المتعددة التى لم تترك ناحية من نواحى الإسلام ولا جزئية من جزئيات الثقافة الإسلامية إلا تعرضت لها بالقدح والتشهير والتحريف للتاريخ .

وهناك دور الإرساليات التبشيرية فى محاربة اللغة العربية .

ولقد كان من أخطر مواقف الاستشراق إزاء التاريخ الإسلامى موقفهم من الدولة العثمانية وحكم السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ الذى تبنى حركة الجامعة الإسلامية التى كانت ترمى إلى توحيد صفوف المسلمين حول الخلافة الإسلامية للدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الدول الأوربية الكبرى وكذلك موقفه الصلب ضد أطماع اليهود فى فلسطين .

وموقفهم من جهاد المسلمين فى مقاومة غزو الغرب الاستعمارى للشواطىء الإسلامية فى المغرب والبحر المتوسط فقد أطلق المؤرخون الأوربيون لفظ (قرصنة) على العمليات البحرية الحربية الموجهة ضد سفن الدول الأوربية على ما بين القرصنة والجهاد الإسلامى فى مجال الحروب البحرية من فوارق وخلافات .

وكذلك دورهم فى إبقاء العالم الإسلامى ممزقا حول القوميات والإقليميات ودور الاستعمار ودور الصهيونية والطمع فى الثروات التى يمتلكها العرب والمسلمون .

١ ـ بالنسبة لتاريخ الجزائر ركز المستشرقون على العهدين الرومانى وفترة الوجود الفرنسى فى الجزائر وكان قصدهم من وراء ذلك تجاهل وإخفاء حقائق التاريخ الجزائرى فى العصر العربى الإسلامى وحيث عمد المؤرخون الفرنسيون وواضعوا سياسة التعليم فى الجزائر إلى اعتبار الفتح العربى للجزائر من القرن الأول الهجرى بمثابة استعمار عربى للجزائر وبالتالى يمكن من وجهة نظرهم اعتبار الاحتلال الفرنسى للجزائر من ربقة الاحتلال العربى الإسلامى .

٢ ـ اتهام بعض المؤرخين المسلمين كما حدث بالنسبة للقائد البحرى شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى الأصل والذى ولد بمنطقة رأس الخيمة فى القرن التاسع الهجرى والذى أرشد البحار البرتغالى فاسكودى جاما إلى الطريق الموصل إلى الهند .

فقد اتهمه بعض المؤرخين بالسكر والعربدة مع أن كل مصادر التاريخ تؤكد أنه كان عدلا تقيا لا يظلم أحداً مقيما على طاعة الله .

٣ ـ ومن ذلك استخدام مصطلحات على غير حقيقتها مثل كلمة « التبشير » التى يتنافى استخدامها مع الصياغة اللفظية للكلمة ومشتقاتها مثل مبشرين ونشاط تبشيرى بمعنى تحويل المسلمين ـ وهم أتباع الدين السماوى الحنيف ـ إلى النصرانية والكلمة الصائبة هى « التنصير » .

[٥]

التصدى لمحاولات تشويه التاريخ الإسلامى

ولقد كان من الضرورى فى سبيل التصدى لمحاولات تشويه التاريخ الإسلامى من الكشف عن العوامل الخارجية التى أدت إلى تشويه تاريخ الأمة والكشف عن المحاولات التى يقوم بها أعداء الإسلام لتشويهه .

ومهما وضع اليهود والنصارى من لافتات علمية وموضوعية فمن المؤكد أنهم قد تأثروا بعقائدهم تأثيرا كبيراً ومباشراً فى تفسيرهم للتاريخ وتقسيمهم لمراحله . ومن ذلك ما يسمونه عصر الكشوفات الجغرافية وهو أحق بأن يسمى عصر التوسع الاستعمارى ومحاولة السيطرة على المـوانى الإسلامية (ماجلان وكولمبس وفاسكو دى جاما) .

ولقد كان للمؤرخين المسيحيين فلسفة تاريخية قائمة على المسيحية ومن ذلك مدرسة الإيمان بالعنصر الألمانى كما قامت الفلسفة المادية بتوظيف التاريخ وفلسفته للفكرة الأيدلوجية المسبقة والتى أرغمت الحقائق التاريخية على أن تكون فى خدمة الصراع الطبقى وسيادة طبقة البرولتياريا .

واستخدم فى البلاد الشيوعية بهدف إسقاط النظام الرأسمالى وبالجملة فقد وضعت أوربا التاريخ لخدمة الحرب على كل الأديان ورفع راية الإلحاد ثم جاء (أرنولد توينبى) ليقدم تفسيراً لاهوتيا يواجه التفسير المادى فكان تاريخه سلاحاً فى يد الكتلة الغربية الليبيرالية حيث واجهت به أشد ساعات المحنة أبان انتشار الفلسفة المادية الماركسية .

أما سبنجلر فقد كان أوربياً مخلصاً وظف التاريخ لخدمة الحضارة الأوربية والرؤية النصرانية أو العلمانية للتاريخ .

أما الفكر الإسلامى فإن مفهومه لتفسير التاريخ يختلف حيث يجرى تقديم الحقائق فى ضوء الثوابت الإلهية التى تؤمن بأنها المثل العليا الحضارية وتقديم التصور الإسلامى القائم إلى الوصول إلى بعض المفاتيح لحركة التاريخ والكون .

[٦]

محاولة الاستعمار والصهيونية فى إسقاط التاريخ الإسلامى من الذاكرة العربية

استهدفت كتابة تاريخ الوطن العربى عزل كل وطن بتاريخ مستقل وإحساس بالخلاف والانتقاض للأوطان الأخرى حيث يجرى فصل القديم عن الوسيط عن الحديث ، وفصل كل دولة عن جيرانها ، وفصل حاضر العالم الإسلامى ومؤثرات الإسلام نفسه فى هذا الحاضر .

ومن أهم الأهداف : إهمال حلقات العداء المتصل بين الشرق والغرب وتشكيل الوعى الحاضر بالصراع التاريخى بين الإسلام وأعدائه والهدف هو أن لا يحصلوا إدراك أمجاد أسلافهم وانتصاراتهم وآمالهم ووظيفة أمتهم الحضارية بجانب غيرها من الأمم كما يحرموا تكوين نظرة شاملة كلية لعالم الإسلام الحضارى وتراثه العقلى والفنى وبذلك يفقدون الانتماء والثقة بالذات .

وفى الوقت الذى يدير فيه الغرب صراعه التاريخى معنا نتسلى برؤية استراتيجية شاملة ومن ثَمَّ نشأ جيل فاقد الانتماء إلى جذوره الحضارية كالشجرة التى اجتثت من فوق الأرض .

ذلك لأن الأمة قد ترابطت فى حلقات حضارية متصلة تأخذ بعضها ببعض فى سلسلة موثقة الحلقات وكل جيل هو حلقة من هذه الحلقات حتى تتلاحم هذه الأجيال كلها منها السابق باللاحق ومن أبرز أخطاء هذا المنهج التاريخى :

١ ـ التسوية بين دولة الخلافة العثمانية والاستعمار الأوربى الحديث وزرع البغض تجاه الحكم التركى المستبد والتعامل مع إنجازات دولة الخلافة الإسلامية لتدخل فى

خندق القوميـة والوطنية وتنسى تماماً الرابطـة الإسـلاميـة .

٢ ـ إهمـال دراسة النظام الأساسى للحكم فى الإسلام وما يتضـمن من مؤسسـات سياسية وإدارية وتشريعية .

٣ ـ الاهتمام بدراسة الفترات التاريخية السابقة على الإسلام (كالفرعونية) مع كل المدح لهـا وعدم تبين ما بها من وثنية وشر مما يجعل تاريخ كل دولة عربية يدرس بصورة إقلـيمـيـة تظهر فيـها الروح العنصرية وتمجيد الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والآشورية .

٤ ـ إبراز الحركات الانفصالية الإقليمـيـة دون تأكيد على مبدأ الوحدة الإسلامية الجامعة .

٥ ـ عـزل الإسـلام عن تقـيـيم تاريخنا المعـاصـر وتدريسـه لأبنائنا من منطلق لا دينى واستخدام مصطلحات القومية والوطنية .

يرجع الهـدف من هـذه المحـاولة كلها إلى الخوف من صحوة العمـلاق (الحذر من قوى الإسلام التى يمكن أن تصحو) وقد تجمعت إرادة الغرب على أن ينسى المسلمون تاريخهم الإسلامى المجيد وحضارتهم الزاهرة ومن أجل ذلك عمل الغرب على تأكيد عقدة النقص لدى الشرق المسلم وما زال تاريخ العصور الوسطى يقسم العالم إلى رومانيين وبرابرة مع تغير طفيف إلى أوربيين وبرابرة مع تحريك البغض والاحتقار إلى كل ما هو غير أوربى وتعميم مصطلح العصور الوسطى المظلمة على فترة الإسلام الزاهرة هذا مع سيادة النـظرية العنصرية فى عرض التـاريخ الأوربى فهى تعد الجنس الأوربى هو الأسـمى (محمود محمد النجدى) .

ولقـد تبين أن هدف الكتابة العصـرية للسيـرة يرمى إلى إطفـاء نور العطاء الإلهى فى السيرة النبوية وتاريخ الإسلام وذلك بكتابة السيرة والتاريخ بالطريقة العلمانية التى تحجب هذا الوهج العظيم الذى يجب أن يملأ قلوب المؤمنين .

ذلك أن الكتابة العلمانية للسيرة (كـما ظهر فى كتابات طه حسين والعقاد وهيكل وتوفيق الحكيم) تهدف إلى إنكار المعجزات والجوانب الغيبية فضـلا عن الإعراض عن الجوانب ذات الصلة بالإيمان والعقيدة واليقين والتقوى وقوانين الإسلام فى النصر ﴿ **فإن**

يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . . .﴾ [سورة الأنفال : الآية ٦٦]

ولقد حاول بعض العلمانيين اتخاذ تاريخ الإسلام منطلقاً للهجوم على المنهج الإسلامى نفسه أو اتهام الأمة الإسلامية بأنها لم تطبق هذا المنهج على مدى تاريخها وذلك بالبحث عن مواقف لبعض الخلفاء والحكام (يتخذ هذا الموقف فرج فودة وأحمد صبحى منصور) والهدف هو انتقاص الإسلام والادعاء بأنه لم يكن دين مجتمع وسياسة أو أنه جاء فى ظل العصور الوسطى كما يدعى صبحى منصور وفرج فودة .

إن عملية التقاط بعض المواقف من التاريخ الإسلامى لاستعمالها فى خدمة هدف مسبق على طريقة الاستشراق هو عمل مضلل تماماً لأنه لا يستوعب الموقف التاريخى ولا يناقشه فى إطاره التاريخى .

* * *

ثالثا : المؤامرة مع التراث الإسلامى

١ ـ مهمة التراث الإسلامى الأصيل أن يلقى الضوء الكاشف على القرآن الكريم والسنة النبوية فيفصل مجملها ويكشف جوانبها التى تخفى على الباحث والمحقق فى أول الطريق .

يبدو ذلك واضحاً فى تراث الإسلام فى مجال القانون والاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية جميعا حيث تقدم لها التطبيقات التى جربت فى المجتمعات الإسلامية والحلول التى قدمها العلماء المجتهدون فى هذه المجالات ، بما يحقق إقامة النظام الإسلامى فى المجتمع الإسلامى كله ، ومن هنا كانت كتب التراث أداة طيبة لبناء الجولة التالية بتقديم حلول مختلفة للقضايا والمشاكل التى تواجه المجتمعات المعاصرة ، ولتلقى الضوء على الوقائع والمعطيات بما يمكن الباحثين المسلمين اليوم فى مختلف جوانب المنهج الإسلامى من رسم الخطط الصالحة اليوم مع اختلاف الأزمنة والبيئات وأثر ذلك على الفروع والمتغيرات .

٢ ـ إن المؤامرة تتركز اليوم على الفصل بين ثقافتنا المعاصرة وبين التراث .

إن دعاة التغريب ينطقون فى صوت واحد بكلمة واحدة هى إزاحة التراث عن الطريق لتكون لهم الحرية فى تشكيل الحاضر تشكيلا وفق ما يشاءون ولو فعلنا لكان أمرنا أمر رجل فقد شهادة ميلاده فهو مقطوع عن أهله انقطاعاً أشبه بأن يكون لقيطاً .

ترى ذلك واضحا فى كتابات زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا بدعوتنا إلى تنحية القديم ، هذا الماضى ، هذا التراث وتوجه أبصارنا نحو الغرب الذى يمثل الآن بريق الحضارة والسيطرة والنظر إليه فى إعجاب وولاء .

وهكذا تتشكل الثقافة الحديثة اليوم فى مختلف صورها : من خلال الصحف والمذياع والمدرسة والشارع ، إنهم يريدون اقتلاع ماضينا ووجودنا وانتمائنا إلى الآباء بعد أن ارتبط هذا الانتماء أربعة عشر قرنا وتشكل من خلال القرآن والسنة وتراث عريض خصب يحمل كل عوامل السمو والكرامة والسماحة والفضل والخير والوفاء .

إن هذه المرحلة من الصحوة الإسلامية تتمثل فى هذه الجرأة من دعاة التغريب

والفلسفة المادية على هدم الماضى وتحقيره ورميه بكل نقيصة وإعلاء شأن العصر فى دعوى عريضة بالرغم من كل ما يصوره من عيوب وهزائم وتخلفات .

هذه الجرأة لابد أن تعود على الأيدلوجيات بعد أن فشلت وعجزت عن العطاء وأصبحت من القديم البالى ، لقد كانت الدعوة أساساً إلى هدم الماضى والقديم ترمى فى مفهومها الخفى غير المعلن إلى شىء واحد هو الدين الحق : رسالة السماء وقد جاءت هذه الحملة فى ظل مفاهيم مضطربة غامضة طرحت بها العقيدة فى الغرب ولما كانت هذه المفاهيم ليست مفاهيم السماء فقد اضطربت وعجزت عن العطاء ولم تتمكن من تقديم الصورة الصحيحة للدين الحق نتيجة ما خالط نصوصها من زيف وإضافة وحذف كشفت عنه المناهج العلمية التجريبية وخاصة فى خلق الإنسان وعمر الكون مما أدى إلى قيام حملة من النقد للنصوص المقدسة التى لم تكن فى الحقيقة إلا كتابات الرهبان والأحبار ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾ . [سورة البقرة : الآية ٧٩] .

إن محاولة تطبيق مفاهيم التراث الغربى على تراثنا الإسلامى عملية خاطئة أساساً ذلك أنه (أولاً) لا يمكن أن يوصف التراث الإسلامى بأنه (التراث الدينى) واعتبار الآداب والعلوم خارج هذا التراث الإسلامى ، ذلك لأن الإسلام ليس ديناً بمفهوم اللاهوت والأدعية والتراتيل ولكنه جماع الفكر الإسلامى كله .

كذلك فإن محاولة تطبيق مفاهيم الغرب على تراثه القديم لا تصلح للتراث الإسلامى ، ذلك أن هناك فصل كامل بين تراث الإسلام وتراث الأمم قبل الإسلام ، ولا يمكن الجمع بينهما على النحو الذى يدعو إليه بعض التغريبيين ، ذلك لأن الإسلام حين جاء فقد أحدث فاصلا عميقاً بين ماضى البشرية وحاضرها ، أطلق عليه المؤرخون اسم (الانقطاع الحضارى) فقد قامت الحضارات الكبرى السابقة للإسلام : (اليونانية والرومانية والفرعونية والهندية والفارسية) على أساس الوثنية وعبادة الفرد والرق وجعلت (الرقيق) عنصراً أساسياً فى بنائها بينما جاء الإسلام لهدم كل عبودية لغير الله الواحد القهار فالتوحيد الخالص الذى هو أساس الإسلام قد ميز العطاء الإسلامى عن التراث البشرى على النحو الذى يدعو إليه الشعوبيون والماركسيون كذلك فإن الإسلام (بوصفه منهجاً ربانياً وليس نظرية بشرية)

يقف من أمر الأخذ والعطاء من الحضارات والثقافات موقفاً متميزاً ، يختلف عن موقف الأمم ذات المناهج البشرية من ماضيها ومن حاضر الأمم المتقدمة فى عصرها .

ولو كانت الحضارة الغربية بعلومها وقيمها ومفاهيمها حضارة عالمية حقه ، وكانت أيدلوجياتها وضعت بحيث تصلح للبشرية كلها ، لكان هناك موقف آخر يختلف ، ولكنها مناهج بشرية قامت على أساس مفهوم (التصوير البشرى) المحدود بالعصر والبيئة ، وهو فى هذا الحيز قد عجز عن العطاء لأهله ، فكيف يمكن أن يكون صالحاً لكل البيئات والعصور من حيث حاجته إلى الإضافة والحذف ، حيث يختلف ذلك مع المنهج الربانى المصدر ، الإنسانى الوجهة ، القادر على العطاء الدائم فى كل العصور والبيئات .

إن أخطر الدعوات المطروحة اليوم هى الدعوة إلى نبذ التراث (الماضى ، والتاريخ القديم، والقديم كله) إنها فى حقيقتها محاولة إلى هدم الإسلام ، حيث لا يمكن مواجهته علنا ولكنه يوصف بكل هذه الأسماء فى عبارات غامضة رمزية.

ومنها الدعوة إلى تاريخ ما قبل الإسلام ، ومهاجمة الفصاحة العربية والشعر والبلاغة جملة ولقد عمد النفوذ الغربى إلى تزييف التراث ، حين تولى إحياء جوانب معينة منه ، تتمثل فى الفلسفات والفرق والفكر الباطنى والوثنى وكتب التصوف الفلسفى وإحياء مذاهب القرامطة ، ووحدة الوجود والاتحاد والحلول والأدب الإباحى والشعر المكشوف وإحياء الفكر اليونانى ومترجمات العصر العباسى المحاطة بكثير من الشبهات ، وكتابات الحلاج وابن عربى وألف ليلة ورسائل إخوان الصفا والأغانى وإحياء الأساطير ، حيث تجرى المحاولة لإعلاء الفكر الباطنى وفكر الفلسفة المادية على الفكر الإسلامى الأصيل .

ويستهدف هذا الإحياء للتراث الزائف ، إحياء هذه المذاهب التى رفضها المسلمون عندما ترجمت الفلسفات فى العصر العباسى وقد حاولت الماركسية عن طريق أتباعها إحداث دراسات وأطروحات حول هذه القضايا المضللة « القرامطة المزدكية والبابكية والشعوبية » كما عمل الشيوعيون فى بيروت على إحياء تراث فارس والهند والرومان والفراعنة .

أما فى الغرب فقد سرقوا تراث المسلمين وحجبوه عن المسلمين وعمدوا إلى الجوانب

المضطربة منه فأحيوه وكلفوا مرسليهم بإعداد أطروحات عنه وإحيائه كما فعلوا فى دراسات ألف ليلة وإخوان الصفا وابن عربى والحلاج وابن سبعين .

ولقد كان طه حسين هو رائد تسميم التراث فهو الذى فجر مسألة الشعر الجاهلى وتحدث عن بشرية القرآن وأذاع مذهب الشك الفلسفى ، كما أحيا شعر الأغانى وأبى نواس وبشار والفخال وغيرهم .

وخطا زكى نجيب محمود خطوات واسعة فى الدعوة إلى تراث الباطنية وركز على تراث الفرق الإسلامية وإحيائه واعتبره تراث الإسلام وتجاهل تماماً تراث الأصالة الحى ، إنه يحاول أن يقول : إن الفلسفة وعلم الكلام وتراث الفرق الإسلامية هو كل تراث الإسلام ومن ثم يزعم أنه يخلو من تنظيم علاقة الإنسان بالإنسان ، وهذا كلام خاطىء جملة وتفصيلا فليس فى الإسلام الفصل بين العلاقتين والفقه الإسلامى يعالج العبادة كما يعالج المعاملات .

ولقد كان من أبرز أهداف الاستشراق تسميم الآبار ، بحيث يرتاب المسلمون فى تراثهم الأصيل وأن يتحولوا عنه إلى فكر مغاير مطبوع بالطبيعة الغربية ، وقد أغرقوا العالم الإسلامى بكتابات فى مختلف المعارف والدراسات الإسلامية .

وقد اشتهرت مدينة ليدن وجامعتها فى هولندا بغزارة إنتاجها الاستشراقى ومن رجالها المستشرق (فنسنك) وقد رأس مجموعة من زملائه فى عملين كبيرين (أولهما) دائرة المعارف الإسلامية وصدر الجزء الأول منها عام ١٩١٣ ثم توالى صدورها إلى عام ١٩٢٤

ثانيهما : فى مجال فهرسة السنة فقد أصدر كتابين أحدهما بالإنجليزية (مفتاح كنوز السنة) تحقق بهما للاستشراق هدف كسب الثقة وأن تكون كتابات المستشرقين فى مجال الصدارة والمحل الأول من مراجعهم فيعتمدوا عليها ويكتفوا بها ، على ما فيها من خلط وتحريف فينسوا مع الزمان مراجعهم الأصلية وكان أخطر عملهم فى مادة (حديث) ومادة (سنة) لنجد فيها ما يجرح الإسلام وما يفسد الحقيقة ، إنهم يقدمون الشبهات فى أساليب يعجز عنها الشيطان ، وذلك ما رمى إليه (فنسنك) وهو الطعن على وجه أشد فى

المصدر الثانى بعد كتاب الله بل بوصفها البيان لكتاب الله (تبارك وتعالى) فإذا جرى الاعتماد على مراجعهم ، كان هذا شديد الخطر على الإسلام والأجيال القادمة .

وقد أدخل بكتابه (كنوز السنة) والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، أخباراً وتقارير واهية مردودة نثرها فى الكتابين ودسها بين سياق الصحيح لتسوغ معه وتشتبه به ، وليستقر لدى العامة أنها من الثابت .

وأخطر ما فى هذا العمل أنه خلط بين الأحاديث النبوية الصحيحة والأحاديث التى ليست صحيحة بالدرجة الأولى والتى تدخل فى باب الإلحاد .

* * *

[٢]

معطيات التراث الإسلامى

تتمثل معطيات الفكر الإسلامى فى تراث ضخم واسع فى مختلف جوانب النشاط الإنسانى : فى الزراعة والتجارة والصناعة والمال والحرف يمثل قدرة المسلم على الحركة فى صميم العالم واستثمار كنوزه وطاقته وتنمية موارده من أجل توسيع مصادر الثروة والارتفاع بالمستويات المعاشية باستمرار .

كذلك يشمل التراث الإسلامى للحضارة تجربة واسعة للتعامل الاقتصادى والاجتماعى منها تدوين الديوان لضبط الأسماء وتنظيم الأعطيات إلى النظم الخاصة بالمقاضاة والتعامل والحوائج والمنح والإشراف على أعمال الرى وكان للمسلمين بادرة واسعة فى مجال الضرائب والجيش والرسوم والحقوق والعمال وبيت المال والدخل والخرج .

وكان شعار المسلمين فى هذا الميدان واضحاً مستمداً من كتاب الله تبارك وتعالى ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ . [سورة الملك : الآية ١٥] .

يتمثل هذا فى ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الكتب المخطوطة والمحفوظة فى مكتبات العالم ، منها نحو ثلث هذا العدد بمكتبات عاصمة الخلافة العثمانية فى إستانبول ، والباقى فى مكتبات مصر والشام والعراق وتونس والمغرب وعواصم عربية أخرى ، يتناول علوم الفلسفة والتشريع واللغة والتاريخ والأدب والهندسة والفلك والرياضيات والتراجم والجغرافيا ، وقد تبين أن ما نشر من هذا التراث لا تبلغ نسبة ثلاثة فى المائة ، ومن أبرز مظاهر هذا التراث الفكرى والحضارى الصالح لنهضة إسلامية عربية حديثة ، تتمثل فى تلك العناصر الأساسية للمنهجية العلمية والتقنية التى ارتكز عليها الانبعاث فى أوربا بعد عصر النهضة وانطواء العصور الوسطى ، التى ظلت قرابة ألف عام بمثابة الإطار الزمنى لازدهار الحضارة العربية فى مختلف مجاليها الإنسانية ، حيث برهن العرب والمسلمون خلال ذلك على أصالة نادرة وروح قادرة واستعداد للتكيف ، فى مقدمته المنهج التجريبى الرياضى الذى لم يكن للبشرية به عهد ، حيث طوروا الاختصاص التقنى وحرروا الفكر وأبرزوا شمولية الكشف العلمى بربط الماضى بالحاضر .

ولما كان التراث الإسلامى يتميز بخصوصية ذاتية فى تكوينه يجعله مختلفا عن تراث الإنسانية بما فيها التراث الأوربى فقد كان له منهجه الخاص فى الدراسة ، فهو تراث متصل فى منابعه بوحى إلهى يتكفل بحفظ مضمون الحياة وكل فروعه دائرة فى فلك الإسلام الروحى والثقافى .

ومن هنا فإن القرآن والسنة لا يدخلان فى مقولة التراث بل هما من الثوابت ، أما التراث فيبدأ بعمل العلماء والفقهاء والمؤرخين ويلتزم العمل الفكرى والأدبى بالتحرك فى إطار الثوابت وفى النظر إلى التراث من خلال القواعد الأساسية التى قررها القرآن وأكدتها السنة ومن هنا فإن النظريات الكلامية والاعتزالية والتصوف الفلسفى يجب أن ينظر إليها فى ضوء مفهوم أهل السنة والجماعة ، ويرفض ما يتصل فيها بالفلسفة اليونانية أو الغنوصية أو مذاهب الاستشراق والباطنية .

إن من أبرز معالم التراث الإسلامى هو ما قام به علماء المسلمين من تصحيح مفاهيم الفكر اليونانى وأخطاء بطليموس وإقليدس وأرسطو وأبقراط وجالينوس ، قام علماء الإسلام ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن الأفلح والغزالى والحافظ بتخصيص المفاهيم استمداداً من المنهج التجريبى الإسلامى .

ومن هنا يتضح حقيقة موقف الإسلام من الفكر اليونانى :

١ ــ إنه لم يصله أساساً لأنه صدر عن أساس قائم مختلف هو علم الأصنام .

٢ ــ إنه كان موجها وجهة العبودية فقد قام على نظام الرق البشرى الذى أيده أفلاطون وأرسطو واعتبراه أساساً لكل حضارة .

صحح ابن الهيثم أخطاء بطليموس وإقليدس .

صحح الغزالى أخطاء بطليموس .

صحح ابن حزم أخطاء أرسطو .

صحح الجاحظ أخطاء أبقراط وجالينوس وأرسطو .

صحح جابر بن الأفلح أخطاء المجسطى وبطليموس .

(وألف الشيرازى كتابا سماه (الشكوك على جالينوس) اعتذر فيه عن مناقضته لرجل له من الاسم والشهرة ما لجالينوس) .

وعلى طريق الحق فقد كرس أسين بلاسيوس أكثر من خمس وعشرين عاماً من حياته فى بحث وتمحيص الفكر الإسلامى الفلسفى والدينى فى القرون الوسطى وقد كشف كشوفاً هائلة فيما يتعلق باللاهوت وكيف كان أثر ابن رشد فى القديس توما الأكوينى وابن عربى فى (ريمون لال) وكان أهم اكتشاف قامت عليه شهرته اكتشافه النماذج الإسلامية التى أوحت إلى دانتى بالكوميديا الإلهية .

ولقد اعترف علماء الغرب المنصفين بعطاء علماء الإسلام فقال جورج سارطون عن البيرونى : إنه علم مسلم رفع العلوم الإسلامية إلى الأوج فى عصر كانت أوربا تذخر بالجهالة ويسمى جورج سارطون القرن الحادى عشر : قرن البيرونى .

أما كتاب « الجماهر فى معرفة الجواهر » فيعتبره المستشرق سخاو أكبر ظاهرة علمية فى الحضارة الإسلامية .

ولقد تنازع البيرونى : الروس والإيرانيون والأتراك والهنود ، وإذا كان البيرونى هو فخر الرياضيات والعلوم فى الحضارة العربية فى شرقها ، فإن الزهراوى هو فخر الجراحة فى غربها، والمجريطى فخر العلوم ، والبطروجى فخر الرياضيات والفلك فى الأندلس ، أما الرازى فقد ألف ٢٢٠ كتابا أشهرها كتاب الحاوى فى الطب ، والمنصورى فى التشريع وقد ظلت كتبه تدرس فى جامعة مونبيليه حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

وكان الحسن بن الهيثم بن يونس الرياضى الفلكى من أبرز نوابغ الفكر الإسلامى ، وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية ، وأبو محمد مسلم المجريطى الذى صنف رتبة الحكم فى الكيمياء ، وأنصف جابر بن حيان من التهمة التى ألصقها به المستشرقون وهى أن كل همة كان مُنْصَبّاً على تحضير الأكسير وتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة .

ولقد كان الاستيلاء على المخطوطات العربية أحد البنود المذكورة فى وثيقة انسحاب البعثة الفرنسية من مصر عند الجلاء ، حيث استولت على مخطوطات عربية لها قدرها أخذت من الأزهر والزوايا والمساجد وكانت هذه المخطوطات نواة علم الاستشراق .

[٣]

التراث المسروق

ملايين المخطوطات الإسلامية والعربية كنوز تاريخية وثقافية سرقها الغزاة الأوربيون على مراحل من أيدى العرب والمسلمين .

بدأت السرقة التراثية الكبرى ـ كما يقول جمال سلطان ـ وكان أكبرها جماعة علماء فرنسا الذين قدموا مصر مع نابليون ، وامتدت الأيدى الأجنبية إلى مختلف مدائن الإسلام من الهند وجمهوريات جنوب الاتحاد السوفيتى وإيران والعراق ودمشق والقدس وقسطنطينية وفاس وغيرها حيث كان هدف السرقة يحقق أمرين أساسيين :

١ ـ إثراء النشاط الفكرى والعلمى والأدبى فى أوربا .

٢ ـ حرمان أصحاب الفضل فى عملية سطو دون إثبات الحق لأصحابه أو حتى دون مجرد الإشارة إلى وجود أصحاب هذا التراث فى تاريخ الإنسانية .

أبرز آثار هذا العمل :

١ ـ إنكار أن العلماء المسلمين هم مؤسسو المنهج العلمى فى البحث التاريخى ولم تعرف أمة من الأمم هذه الدقة العالية فى جمع المادة التاريخية وضبطها وترسيخها واستخلاص المناهج العلمية من خلال التجريب والملاحظة والقياس والمقارنة .

٢ ـ وقد اكتشف اليوم أن القانون المدنى الفرنسى الذى وضعه نابليون قد نقلت أصوله والكثير المستفيض من مواده القانونية عند الشرح الكبير للشيخ الدردير المصرى فى مختصر خليل فى الفقه المالكى .

٣ ـ قاعدة « المنع من التعسف فى استعمال الحق » .

التى أشار إليها الفقهاء الألمان وكسبوا بها إعجاب العالم وأقروا بأنها قاعدة إسلامية أصيلة (إلى أبحاث أخرى) .

٣ ـ مجالات علوم الطب والفلك والرياضيات وغيرها .

٤ ـ التعتيم الواسع الذى فرضه الباحثون الأوربيون على السبق الإسلامى .

٥ ـ علم الاجتماع ـ الكوميديا الإلهية لدانتى ـ ورسالة الغفران .

ويؤكد جمال سلطان بأن أهم ما وصلت إليه السرقة : هى السيطرة على اتجاهات الفكر الإسلامى الحديث وتوجيه طلائع النهضة نحو مجالات فكرية محدودة وأصول تراثية معينة تخدم فى مجملها الموهبة الأوربية الحديثة .

ـ الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق .

ـ الشعر الجاهلى لطه حسين .

ـ إعطاء فرص ضالة صفة (العدل والحرية) .

لقد حاول الاستشراق :

١ ـ إعادة ترتيب العقل الإسلامى الحديث وفق منهجية فكرية وإنسانية جديدة .

٢ ـ عزل العالم الإسلامى عن ذاكرته التراثية وقد يحجب هذا التراث فى الغرب وأخطر من ذلك محاولة تفسير التراث الإسلامى عن طريق الاستشراق لاستبدال مضامينه وتفسيره تفسيراً فاسداً ، واستبدال المضمون الأصيل بمضامين مضللة عن طريق من يعيدون كتابة التراث من جديد :

طه حسين ، عبد الرحمن الشرقاوى ، ومن يكتبون عن القرامطة والبابكية فالهدف هو تشويش رؤية الأجيال الجديدة ، وإبعادهم عن الموضوعية والأصالة ، وهم يعلمون أن المسلمين سوف يعودون إلى هذا التراث ليبدؤوا منه نهضتهم فهم يحاولون تدميره لإحداث حالة الانقطاع عن مسار الأمة التاريخى والذوبان والاستقطاب فى الغرب والذوبان فيه .

وهناك سؤال يتعلق بالتراث : فهل يبحث المسلمون عن التراث ليعيدوه ؟ وهل هم يجهلون أن المستقبل غير الماضى وأن التاريخ لا يعيد نفسه والماضى لا يعود ؟!

والحق أن هذا اتهام مضلل يراد به تصوير المسلمين فى صورة ساذجة مع أن المسلمين عن طريق منهجهم الإسلامى يعرفون تماماً الحقيقة الأساسية القائمة على الثوابت والمتغيرات من أول يوم نزل دينهم عرفوها ، وليسوا فى حاجة أن يعلمها لهم أحد ، بل هم الذين

علموها للدنيا كلها ولكنهم يرفضون مفهوم التطور المطلق والغض من شأن الماضى والقديم لأنهم يحملون منهجاً ربانياً أصيلاً لا يخضع لقوانين القديم والجديد ، ولكنه فى تركيبه الدقيق قادر على الجمع بين الجانبين اللذين يتصارعان فى الفكر الغربى فهو يجمع بين الإلهى والبشرى والقديم والجديد والثابت والمتغير .

وقد أشار ابن خلدون إلى تعاقب الغزاة كالصليبين وغيرهم على نهب تراث المسلمين وثرواتهم وأنهم سرقوا قسماً كبيراً من هذه المخطوطات وأحرقوا قسما آخر ثم جاء الاستعمار الأوربى الحديث لينهب ما تبقى من الذاكرة العربية .

وتؤكد سجريد هونكة فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) وأرنولد توينبى أن المخطوطات العربية نقلت وترجمت إلى اللاتينية وأن البعثات الأثرية نهبت كل ما وجدته من آثار ولوحات وكتابات على الجلود والنقود ومخطوطات عديدة ، بل كانت نهبت كل الشواهد الحضارية مما بين النهرين ووادى النيل وأشياء متغيرة فى مختلف أنحاء الكرة الأرضية تقدر بسبعة ملايين مخطوطة منها فى مكتبة باريس الوطنية (٧ الآف) ومنها مخطوطات رائعة الخط حول علم النبات خطها بهنام بن موسى فى القرن التاسع الهجرى .

وقد دحض الباحثون المسلمون كل الاتهامات المضللة التى وجهها المستشرقون إلى التراث الإسلامى منها .

١ ـ ليس التراث العربى إلا ترديداً للفكر اليونانى القديم بعد مسخه وتشويهه وهذا باطل فإن اليونان لم يعرفوا المنهج التجريبى أساساً .

٢ ـ الادعاء بأن الذين قاموا بالإسهام الفعال فى الفكر الإسلامى مفكرون من الفرس أو الترك أو غيرهم ممن دخلوا إلى دين الإسلام .

وهذا باطل فإن الإسلام هو الذى كون العقل الإسلامى فى مختلف العناصر التى دخلت فى الإسلام وأن أمانتهم للغة العربية والقرآن والسنة هى الأساس فى إنتاجهم .

٣ ـ القول بأن التراث القديم عبء يجب التحرر منه أو على الأقل التحقق منه حتى يمكن اللحاق بموكب الحضارة الحديثة والحقيقة التى يخفيها خصوم الإسلام أن أى

حضارة تتجدد لابد أن تبدأ من آخر كلمات التراث السابق لها .

٤ ـ القول بأن الحضارة الإسلامية لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الحضارة اليونانية وعصور سابقة على عصر النهضة ثم العصر الحديث هذا قول مردود فالإسلام هو الذى قدم المنهج العلمى بكل عناصره ، سواء منه التجريبى أو منهج المعرفة الجامع ذى الجناحين وذلك بشهادة المنصفين فإن الغرب قبل الإسلام لم يكن يعرف أى شيء عن هذا المنطلق الإسلامى الذى صنع الحضارة الحديثة .

* * *

الفصل السادس

أسلمة العلوم والمناهج

أسلمة العلوم والمناهج : هى مرحلة جديدة على طريق الأصالة والخروج من التبعية والتحرر من الغزو الفكرى والتغريب ، وقد جاءت كرد فعل لمحاولة الغرب والنفوذ الأجنبى فى السيطرة على منطلق الفكر الإسلامى ، هذه القضية الكبرى التى شغلت الفكر الإسلامى ، بوصفها أخطر التحديات التى وجهها النفوذ الأجنبى للإسلام فى محاولة لاحتوائه وقص أجنحته فقد عملت هذه الجماعة التغريبية العلمانية والماركسية على تزييف الحقائق فى محاولة تشويه « أصالة الإسلام » فى منطلقه الحقيقى كمنهج ربانى جامع بين العقل والقلب والدنيا والآخرة .

لقد عملت هذه الفئة المراوغة ، التى تدعى أنها تحمل لواء التقدم على فرض مفاهيم الغرب بمضامين خادعة وبأساليب ماكرة فى الوقت الذى استغلت الحقيقة بأن مناهج الغرب الثقافية وفى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تصلح لنا لأنها مرتبطة بروح الغرب وعقائده وتراثه الوثنى الرومانى والإغريقى ، فضلاً عن المفهوم الناقص للدين على أنه لاهوت ولا صلة له بالمجتمع ، إن الخلاف الأصيل بيننا وبين الفكر الغربى : هو فصل الدين عن الدولة ، هذه العلمانية التى تشكلت فى الغرب نتيجة لمعركة طويلة المدى بين رجال الكنيسة وبين علماء التجريب .

ولقد فرض النموذج الغربى نفسه على العرب والمسلمين ، منذ فجر الاستعمار حيث لم يكن المسلمون والعرب مالكين لحرية الاختيار وكان الغرب حريصاً على فرض نموذجه لتثبيت الهيمنة الاقتصادية ، وربط العالم الإسلامى بالحضارة الغربية والرأسمالية الأوربية .

لقد عمد الغرب إلى إدخال مفاهيم جديدة ومذاهب جديدة تتعارض مع مفهوم الإسلام الأصيل ، فى سبيل تحقيق احتواء المسلمين وصهرهم فى بوتقة الأيدلوجيات الغربية .

- أدخل الدولة القومية بديلا عن الوحدة الإسلامية .
- أدخل النظام الاقتصادى الليبرالى بديلا عن النظام الإسلامى .
- أدخل النظام التربوى والتعليمى المفرغ من الإسلام .

- أدخل النظام الاجتماعى المتحلل من القيم الأخلاقية .
- أدخل القانون الوضعى بديلا عن الشريعة الإسلامية .
- أدخل مذاهب الدارونية والماركسية والوجودية والعلوم الإنسانية والاجتماعية .
- أدخل أساليب الإعلام المتحللة الإباحية متمثلة فى المسرح والسينما والتليفزيون .

وقد استعان فى إذاعة ذلك بأساليب الاستشراق والتنصير والتغريب والغزو الثقافى ، فى محاولة واسعة ، مقدما للمسلمين والعرب فكر أسطورى مملوء بالسحر والخرافة قادم من اليونان ، يقوم على علم الأصنام ، وفكر غربى حديث يقوم على أساس العبثية والغثيان والعدمية والإباحية ومذاهب الوجودية الملحدة .

ومن هنا كان لابد من أسلمة العلوم والمناهج وكان التأصيل الإسلامى لهما ضرورة أساسية للخروج من دائرة التبعية .

إن أسلمة العلوم ترمى إلى أن نعيد للعلم موضوعيته ، كما كان فى عصر الحضارة الإسلامية ، حيث كانت العلوم الإسلامية بطبيعتها مستمدة من المنهج القرآنى الذى وضع ضوابط البرهان والحجة ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ .[سورة البقرة : الآية ١١١] .

فأسلمة العلوم ضرورة حتمية فى مواجهة العلمانية والفلسفة المادية والعلموية التى تقدس العلم وتعتبره قادراً على كل شىء ، وتقوم إسلامية المعرفة على عقيدة التوحيد التى يركز عليها الإسلام والتى تدفع العلم والتقدم العلمى إلى المفهوم الأصيل الجامع حيث لم يحصر المسلمون دائرتهم فى العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه بل امتدت براعتهم إلى الجغرافيا والطبيعة والهندسة والطب والفيزياء والتاريخ .

كما أنهم اعتبروا الوحى من أهم مصادر المعرفة ولم يقصروها كما فعل الغرب على العقل فهم قد جمعوا بين الوحى والعقل ، كما أنهم اعتبروا العامل الاقتصادى أحد العوامل المؤثرة فى صناعة التاريخ وليس العامل الوحيد .

وهم يرون أن مفكرى عصر النهضة الذين انبهروا بالحضارة الغربية وتابعوا الغرب ، كان ينقصهم البعد العقدى الذى يتمثل فى أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، ولم يستطيعوا أن يقفوا أمام الحضارة الغربية وقفة حاسمة .

ومن هنا فإننا فى أشد الحاجة إلى استعادة هوية الأمة الإسلامية : عقيدة وشريعة وحضارة ، بأن ندرس مادة الثقافة الإسلامية فى الجامعات وإعداد دعاة يجيدون اللغة

الأجنبية وأن نراجع مناهج العلوم لتنقيتها مما يتعارض مع الإسلام .

موقف الإسلام من العلوم التجريبية

وتجرى على ألسنة بعض الباحثين مقولة مضللة هى : أن الفكر الإسلامى يختلف مع العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ولكنه لا يختلف مع العلوم التجريبية لأنها علوم تصدر عن أنابيب ومن خلال معامل فهى بذلك غير عرضة للنقد من حيث سيطرة الفلسفة المادية عليها .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً .

فإن قاعدة العلوم التجريبية تخضع للفلسفة المادية وتنظر إلى الكون والوجود والحياة على أنها قوى طبيعية قائمة بنفسها وأنه ليس وراءها خالق (جل جلال الله) .

وهى بهذا تجعل للإنسان حرية السيطرة عليها وتوجيهها والتصرف فيها دون تقدير للحقيقة الغائبة وهى وجود الله تبارك وتعالى وراء هذا الكون يديره لحظة بعد لحظة ويحفظه من أن ينهار ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ .[سورة فاطر : الآية ٤١] .

وليس هناك أخطر فى مفهوم العلوم التجريبية من مصطلح (الطبيعة) الذى يضعه العلماء مكان الله الخالق تبارك وتعالى ولا ريب أن موقف علماء التجريب من فكرة الطبيعة وإنكار وجود الخالق تبارك وتعالى يؤثر تأثيراً كبيراً على توجيه العلوم التجريبية ويؤدى إلى حدوث كثير من المحاذير .

فليس هناك أخطر من الاعتقاد بأن الطبيعة خلقت نفسها وأنها تتحرك بإرادة الإنسان وأن الإنسان يمكن أن ينطلق مع سياسة الاستهلاك والتكديس والنهب وتدمير مقومات الأمم وإعلاء شأن الترف والإباحيات على نحو يحول دون إقامة العدل الإلهى بين الأمم وبين مقدراتها التى أوجدها الحق تبارك وتعالى لها .

فالإسلام يخضع الضوابط على مقدرات الأمم حتى لا تدمر من أجل أهواء وشهوات ومطامع مع الرأسماليين وأصحاب الثروات ولذلك فنحن لا نقبل هذا المفهوم بالنسبة للعلم التجريبى لأنه يتنامى مع مفهوم الإسلام من حيث العدالة والرحمة ومن حيث الاحتفاظ بالثروات وعدم تبديدها والدعوة إلى إسعاد البشرية جميعاً وليس صنفاً واحداً على حساب الباقى .

[١]

مخططات التغريب وأسلمة المناهج

أولاً : القضاء على وحدة الأمة الإسلامية بإسقاط الخلافة والوحدة الجامعة وإحياء الإقليميات والدعوات القومية .

ثانياً : التعليم هو الخنجر المسموم الذى طعنت به الأمة الإسلامية (كرومر ودنلوب)

ثالثاً : الاقتصاد ونظام الربا وتدمير ثروات الأمم .

رابعاً : حجب الشريعة الإسلامية وإدخال القانون الوضعى .

خامساً : إدخال المجتمع فى مرحلة التحلل وهدم القيم بإيقاف حدود الزنا والربا .

سادساً : إثارة التغيرات الإقليمية والقومية والعصبية والعرقية وإحياء التاريخ القديم السابق للإسلام .

سابعاً : نظرية دارون التى ما تزال تدرس فى المدارس الإسلامية .

(وهى مدخل الإلحاد وتدمير الشخصية الإنسانية والتشكيك فى قصة الخلق القرآنية) .

ثامناً : نظرية فرويد فى الإنسان حيوان والإنسان تحكمه غرائز الجنس .

تاسعاً : أكذوبة وحدة الحضارة العالمية .

عاشراً : هدم اللغة العربية لأنها لغة القرآن .

حادى عشر : إنكار فضل المسلمين على الحضارة والتجريب .

ثانى عشر : أثر دوائر المعارف البريطانية والفرنسية ودائرة المعارف الإسلامية والمنجد .

الهدف : تدمير القيم الإسلامية الأساسية والحيلولة دون سيطرتها وإذابة المسلمين فى بوتقة الأممية الغربية وإخراجهم من ذاتيتهم الخاصة وفرض ثقافة الغرب .

* * *

[٢]

تصحيح المسيرة الإسلامية

أولاً : إن أول التاريخ الحديث ليس سقوط الدولة الرومانية وإنما هو ظهور الإسلام .

ثانياً : انكشاف فساد خطة الحوار ، ومؤامرة التبشير ودعاوى الاستشراق .

ثالثاً : تصحيح موقف السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية.

رابعاً : تأكيد التميز الإسلامى الخاص للأمة وخصوصية الثقافة .

خامساً : إعادة التقدير الكامل للقرآن وللرسول محمد ﷺ .

سادساً : تبيين أن الديمقراطية ليست هى (الشورى) الإسلامية وأن الاشتراكية ليست هى (العدل الاجتماعى) .

سابعاً : تصحيح موقف الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية ، والفكر الباطنى ومفاهيم الغنوصية والقرامطة والمزدكية والبهائية والقاديانية .

ثامناً : كشف فساد مفاهيم الاقتصاد الإسلامى الربوى وعلم النفس الفرويدى ومفاهيم ماركس ودوركايم وسارتر .

تاسعاً : كشف تناقض الكتب المقدسة القديمة .

عاشراً : كشف أوجه قصور القانون الوضعى ومناهج الاقتصاد والتربية الغربية .

حادى عشر : فساد فكرة وحدة الأديان أو وحدة الثقافة .

ثانى عشر : التأكد من أن التحديث والتغريب قضيتان منفصلتان .

ثالث عشر : سقوط نظرية العلمانية (وفصل الدين عن المجتمع) أو فصل الأدب عن الفكر وسقوط نظرية العنصرية .

رابع عشر : تبيين قدرة الفكر الإسلامى على العطاء فى وقت الأزمة كما تبين أن الارتباط بالتراث ليس تعصباً ولا تطرفاً وإنما هو ارتباط بقانون أصيل عرفته كل الحضارات يجعل من الربط بين الماضى والحاضر والمستقبل (ربطاً جذرياً عضوياً) حقيقة قائمة .

خامس عشر : ترابط الانتماء الوطنى العربى الإسلامى فى دوائر ثلاث (الوطنية ـ القومية ـ الإسلام) .

سادس عشر : كفاية منهجنا الإسلامى فى العطاء وعجز المناهج الوافدة : المادية والإباحية .

* * *



الباب الثالث

المجتمع الإسلامى والحضارة الغربية

الفصل الأول : إسلامية المجتمع .

الفصل الثانى : حضارة التوحيد الخالص وأخلاقية المجتمع .

الفصل الثالث : حضارة الغرب .

الفصل الرابع : إلى أين تسير الحضارة الغربية ؟.

الفصل الخامس : حوار الحضارات .

الفصل السادس : الإسلام بين الشرق والغرب .

الفصل السابع : الغرب يستكشف الإسلام من جديد .

الفصل الثامن : وحدة الاختلاف والتباين بين الحضارتين .

الفصل التاسع : نهاية التاريخ وصراع الحضارات .



الفصل الأول

إسلامية المجتمع

لقد كانت غزوة الحضارة الغربية للمجتمع المسلم من أكبر التحديات التى واجهت الأمة الإسلامية فقد كانت بالغة الأثر على البناء الاجتماعى من حيث أنها حجبت الشريعة الإسلامية وفتحت أبواب الإباحة والتحلل وهدم القيم بإيقاف حدود الله تبارك وتعالى وتأثر البيت المسلم بذلك حيث جرى تدمير القيم الإسلامية والحيلولة دون سيطرتها وإذابة المسلمين والعرب فى بوتقة الأممية وإخراجهم من ذاتيتهم الخاصة وفرض ثقافة الغرب عليهم .

أما المدرسة فقد حجبت عنها المفاهيم الإسلامية التى يقدمها القرآن الكريم والسنة النبوية حيث فرضت نظرية دارون التى ما تزال تدرس فى أغلب البلاد الإسلامية وهى المدخل الأكبر إلى الإلحاد ، وتدمير الشخصية الإنسانية ، والتشكيك فى قضية الخلق القرآنية ، وقد أضيفت إليها كثير من نظريات الفلسفة المادية فى العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ، حيث كان التصوير أن الإنسان حيوان تحكمه غرائز الجنس وتوسعت نظريات الفكر الغربى من جانبيه الليبرالى الرأسمالى والماركسى ، وكانت عملية تدمير الوحدة الإسلامية هى أساس المؤامرة كلها فى محاولة لخلق إقليميات تاريخية وثقافية منفصلة تحطم وحدة الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية أساساً .

وقد جرت المحاولة إلى إثارة النعرات الإقليمية والقومية والعرقية وإحياء التاريخ السابق للإسلام ، وعمدت بعض الأقلام العلمانية والتغريبية إلى مناهضة مفهوم الإسلام للمجتمع وضوابطه وخداع المسلمين بمذاهب غربية وافدة بدعوى أن الديمقراطية هى الشورى الإسلامية وأن العدل الاجتماعى هو الاشتراكية على فارق بينهما من خلافات عميقة وواسعة سعة ما بين المنهج الربانى والفكر الوضعى .

ولكن الفكر الإسلامى فى مرحلة اليقظة ثم فى مرحلة الصحوة استطاع أن يكشف فساد هذه المذاهب المادية سواء مفاهيم ماركس أو دوركايم أو سارتر أو فرويد وأن يكشف

تناقض الكتب المقدسة القديمة وعجز القانون الوضعى وقصوره وكان أهم ما عملت الصحوة على كشفه وبيان فساده :

إسقاط نظرية العلمانية وفصل الدين عن المجتمع وإسقاط نظرية العنصرية والدماء كما كشفت الصحوة عن سقوط مفهوم القوميات والإقليميات والماركسية واستحالة اندماج الإسلام فى الأيدلوجيتين : الليبرالية والشيوعية وتميز الإسلام بوصفه الدين الخاتم الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

كما عملت الصحوة على تحرير فكرة (تحرير المرأة) التى عمل النفوذ الأجنبى على خداع المرأة المسلمة بها ليخرجها عن المنهج الربانى الذى جعل مسئوليتها فى بناء الأسرة ورعاية الأجيال الجديدة مما أدى إلى عودة المرأة المسلمة إلى الأصالة .

إن الشريعة الإسلامية هى الأصل والمناهج الوافدة هى الأساليب المستحدثة التى فرضت على المجتمع الإسلامى خلال مرحلة التبعية بوصفها تقدما وعصرية ولحاقاً بالمجتمعات المتمدنة ، لم يقبل المسلمون أساليبها عن اختيار وإنما فرضت مع النفوذ الاستعمارى الوافد بسلطانه السياسى والعسكرى والاجتماعى .

ولكنها عجزت بعد عقدين أو ثلاثة أن تحقق التقدم الذى وعد به أتباعها وكُتّابها وتبين أن المنهج الإسلامى أكبر من الأيدلوجيات وأكثر منها عطاء .

وأن الليبرالية لم تحقق سعادة للمجتمع الإسلامى ولما جاءت الماركسية عجزت عن العطاء أيضاً .

وتبين للمسلمين فى مرحلة حساب ومراجعة أن منهج الإسلام أكبر من الأيدلوجيتين وأن المنهج الوضعى هو منهج بشرى قد وضع لمجتمع مختلف ، وأنه فكر بشرى يمكن أن يكون رد فعل لواقع كالمجتمع الغربى ولكنه لا يصلح للمجتمع الإسلامى الذى تشكل فى قلب المنهج الربانى خلال أربعة عشر قرناً .

وتبين للمسلمين أن العدل الاجتماعى الإسلامى يختلف عن الاشتراكية وأن الشورى تختلف عن الديمقراطية وتبين قصور المنهج الاجتماعى فى مجال علاقات الآباء والأبناء ، وفى التعامل بين الرجل والمرأة وفى التعامل الاقتصادى وجاءت العلوم

الاجتماعية الغربية لتقدم للمسلمين تصوراً مختلفاً عن مفاهيم الأخلاق والنفس والاجتماع.

وكان الفارق الواسع والعميق بين المنهج الغربى الوضعى الوافد وبين المنهج الإسلامى : ذلك العامل الأساسى الأصيل : « أخلاقية المجتمع » .

فقد أقام الإسلام منهجه على أساس الأخلاق التى هى جزء من العقيدة الإسلامية فالإسلام عقيدة ومعاملات وأخلاق ، والأخلاق فى الإسلام من الثوابت التى لا تتغير مع تغير الزمان أو البيئات .

وهنا موضع الخلاف الواسع والعميق بين المنهج الغربى الذى يتحدث عن (نسبية الأخلاق) ويربطها مع التطور بينما يجعل الإسلام (الأخلاق) من القواعد الثوابت ومن هنا كان تحريم الإسلام للخمر والربا والقمار وتحريم الزنا وإقامة الحدود وكان موقف الإسلام من مفاهيم الغرب عن الإباحية الاجتماعية وإعلان عدم فطرية الأسرة أو فطرية الجريمة (بينما الأسرة فطرة والجريمة ليست فطرة) .

ومن هنا كانت مقاومة الإسلام للترف والتحلل الذى يحطم المجتمعات والشباب ويفرغ الأمم من طاقات المقاومة والرباط وحماية الثغور ومن هنا كان رفض الإسلام للقوانين الغربية الخاصة باللواط وتكافل الرجال بالرجال والنساء بالنساء واستعلان الفسوق والفجور .

وقد تبين أن أعظم المجتمعات الغربية ثراء هى أكبرها تدميراً بتعاطى المخدرات وكثرة الانتحار .

ومن هنا كانت حماية القيم الأخلاقية من ثوابت المجتمع التى يجب الدفاع عنها وحمايتها حتى لا تسقط والتى هى أساس « هوية الأمة » وخصوصيتها الذاتية .

ولقد قدم القرآن تصوراً كاملاً بسقوط الأمم التى تخرج عن طاعة الله تبارك وتعالى والتى تغرق فى الترف والفساد الخلقى ، ولقد سقطت ثلاث حضارات كبرى قبل الإسلام نتيجة الانهيار الخلقى والفساد الاجتماعى ، وهى اليونانية والرومانية والفارسية .

وجاء الإسلام ليحرر البشرية من الرق الذى قامت عليه الحضارات السابقة ويحرر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى كذلك فقد دعا الإسلام إلى أخلاقيات العدل والحق والرحمة ورفض سيطرة مفاهيم الميكافيلية والبرجماتية .

ووجه المسلم إلى الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية ورفض مفاهيم المجتمعات التى تستهين بقدسية الأسرة وكرامة العرض ، وأنكر الحرية الأخلاقية وفصل الأخلاق عن المجتمع، وأنكر كل عوامل الانحطاط الأخلاقى والإباحية الجنسية وحتم على المسلم المحافظة على ثوابت الأخلاق ، وجعل مفهوم التربية الإسلامية جامعاً بين ملكات الجسم والعقل والروح .

ودعا الأمة الإسلامية إلى التعامل مع متغيرات العصر ، دون الخروج عن ضوابط الإسلام الأساسية .

وقد جمع الإسلام بين الوسطية والاعتدال بين الفرد والجماعة وأعطى للعقل الإسلامى مساحة للفهم واتخاذ القرار .

وجاء نظام الأسرة فى الإسلام نموذجاً كريماً لم يسبقه سابق ولم يلحقه لاحق وأعطى للمرأة حق إدارة أموالها وتزويج نفسها والولاية الكاملة على ما تملك .

وكان من أعظم معطيات الإسلام : الحكومة المدنية ، فلا يعترف الإسلام بما يسمى الحكومة الثيبوقراطية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى ، وليس للإسلام رجال دين بل علماء دين يوجهون وينصحون دون أن يتولوا مناصب الحكم ، كما رفض الإسلام الدولة العلمانية الوضعية ، والنموذج الثقافى الغربى باعتباره لا يعبر عن قيم الأمة الإسلامية .

هذه المقولات التغريبية المطروحة فى محاولة لجعلها مسلمات فى الفكر الإسلامى نرى أنها غير مقبولة :

أولاً : فساد مقولة إن الإسلام تراث قديم وأن الرجوع إليه والدعوة إلى ابتعاثه يمثل مخالفة لروح التطور والتغيير .

إن الإسلام هو الميراث الربانى الخالد الذى لا يغيره الزُمن ولا ينال منه التغيير فهو من الثوابت التى لا سبيل إلى تجاوزها أو تجاهلها .

أما أساليب التطبيق وعوامل الالتقاء مع المتغيرات فذلك شأن آخر ، ولا يمكن أن يوضع الإسلام فى كفة المتغيرات ، فيمكن التجاوز عن أصل من أصوله فى سبيل قبول مفهوم العصر أو التقدم .

ومن هنا فليس ما يطالب به المسلمون اليوم هو إحياء التراث ، وإنما هو شريعة الله

الخالدة المنزلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وإن فى إمكان القانونيين والمشرعين المسلمين أن يقدموا منهجاً مرناً يحقق ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر .

ثانياً : خطأ مقولة إن الإسلام الذى ندعوا إلى تطبيقه من شأنه أن يكون عائقاً دون التقدم والتنمية فالإسلام يؤكد أنه كان العامل القوى والأكيد للتقدم على مدى العصور .

ثالثاً : لا يمكن أن تقوم نظرية (المعرفة الإسلامية) إلا بالجمع بين الوحى والعقل ، وأسلمة المعرفة والعلوم فى العصر الحديث توضح مكانة الوحى (أو النص) كمصدر للمعرفة وتكاملها مع العقل والتجريب فالوحى أساس مكين فى قاعدة المعرفة .

وهذا التصور فارق واضح بين الثقافة الإسلامية بوصفها منهجاً ربانياً جامعاً بين قبضة الطين ونفخة الروح التى تشكل عليها الإنسان أساساً ، وبين مفهوم المعرفة التجريبية التى تتوقف مفاهيمها لدى العقل والحس وحده .

ولقد عمد المستشرقون والمبشرون إلى تقديم نظريات غربية تعارض هذا المفهوم الجامع الإسلامى الأصيل ، والتى تحاول أن تقصر المعرفة على مفاهيم العقل والعلم وحدهما كمصدر للمعرفة .

والهدف هو محاولة تغيير هوية الأمة والقضاء على أصالتها .

رابعاً : ليس صحيحاً ما يدعيه الفكر الغربى من أن العقلية الإسلامية :

عقلية غيبية بشكل مطلق ، وكيف يمكن لعقلية غيبية أن تنتج علماً ومنهاجاً وتحليلاً ونقداً على النحو الذى قدمه الإسلام (وهو صاحب المنهج التجريبى أساساً ومنهج المعرفة ذى الجناحين) ولقد استطاع المسلمون أن يجمعوا بين ما قدمه القرآن من « غيب » ﴿ **والذين يؤمنون بالغيب**﴾ [سورة البقرة : الآية ٣] ما يسمى بالاستقراء فقد عرف المسلمون الملاحظة والتجربة والمشاهدة ، بينما عرف الغرب مفاهيم الحس والعقل ، حجبوا عن أنفسهم علوم الغيب التى أطلق عليها « ما وراء العقل » أو الميتافيزيقا .

خامساً : لا يقر الفكر الإسلامى مقولة العقول الثلاثة :

(البيانى والعرفانى والبرهانى) ولا يقر غلبة البرهان والعرفان فهى مقولة استشراقية فالعرفان عندهم يقصد به ما يسمى بالفكر الباطنى الذى كان يعرف قبل الإسلام بالفكر الوثنى اليونانى : علم الأصنام ، أما البرهان فهو عندهم الفكر العقلانى ومفاهيم المعتزلة .

أما الإسلام فله منهجه الجامع القائم على بيان القرآن وبلاغته وارتباطه بالسنة النبوية وهو قائم على حقيقة البرهان والتجربة والغيب .

وهذه المقولة مقولة استشراقية مضللة قال بها الفيلسوف الفرنسى « التوسير » ورددها الجابرى الذى تأثر فى نظريته عن الفكر العربى بالفكر الفلسفى الفرنسى .

أما محاولة إحياء الفكر الغنوصى والوثنى والباطنى تحت أسماء جديدة خادعة فنحن لا نقبله فالإسلام قد أقام الفكر على أساس التوحيد الخالص وقدم منهجاً كاملاً فى هذا الصدد.

أما سيطرة البيان أو العرفان فى مرحلة من المراحل فقد جاء لأسباب تاريخية وسياسية وغير مطلقة .

فقد استعلى الفكر العقلانى (المعتزلة) حيناً ثم سقط كما استعلى الفكر الوجدانى «التصوف الفلسفى » مرحلة ثم سقط أيضا وتأكد فى العصور الأخيرة مفهوم أهل السنة والجماعة وقامت الصحوة الإسلامية على أساس منهج القرآن الجامع .

سادساً : مفاهيم الغرب فى الإنسانيات (وما يسمى العلوم الإنسانية والاجتماعية) ليست علوماً حقيقية وإنما هى فروض فلسفية مرتبطة بعصرها وبيئتها وهى أقرب ما تكون ردود أفعال ، ولذلك فهى لا تصلح عالميا ولا إنسانيا ، وهى فى وجهتها متحيزة تحيزاً معرفيا لصالح حضارة الغرب وهى خبرات تلبس ثياب الموضوعية والعلمية الزائفة وهى فى حقيقتها تستهدف تكريس التبعية الثقافية للغرب وما يتبع ذلك من تبعية اقتصادية وثقافية .

سابعاً : ليس فى الإسلام تفرقة بين قيم ذاتية وقيم خارجية لأن الإسلام لا يعنى بالمعانى المجردة أو القيم فى ذاتها ، لأنه دين عملى أساساً يحكم على الإنسان بما يتمثل فى سلوكه العملى من القيم .

* * *

الفصل الثانى

حضارة التوحيد الخالص وأخلاقية المجتمع

جاءت حضارة الغرب المعاصرة بعد الحضارة الإسلامية بألف عام : وكانت الحضارة الإسلامية (حضارة التوحيد والأخلاق) قد شكلت نموذجاً جديداً تختلف عن سلسلة الحضارات التى عرفتها البشرية (سواء من بابل أو الصين أو الهند أو فارس أو اليونان) .

وقد امتدت حضارة الإسلام أكثر من ألف عام ، قبل أن تولد الحضارة الغربية وقد أخذت مادتها الأساسية من الإسلام حين شكلت نفسها من خلاصة العلوم الإسلامية التى صهرتها فى إطارها اليونانى والرومانى القديم حين أقبلت على مفاهيم ومعطيات الفلك والطب وعلوم البلدان (الجغرافيا) والكيمياء وسابقت الحضارة الإسلامية فى مجال البحار واستطاعت أن تصل إلى المحيطات بينما توقف المسلمون عند الأنهار والخلجان وكان حقا على الغرب أن يربط حضارته الحديثة والمعاصرة التى تشكلت منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى بالحضارة اليونانية والرومانية القديمة بعد مسافة فارقة تبلغ خمسة قرون سقطت خلالها الحضارتان وتحللتا فلما جاءت حضارة الغرب على مفاهيم العلوم الإسلامية رفضت أن تربط نفسها بمفاهيم الإسلام وقيمه فانشطرت إلى شطرين معارضة تكوين الإنسان نفسه الجامع بين الروح والمادة واستعلى الشطر المادى فوصل إلى أعلى غايات الغلو والاستعلاء والاعتزاز بالعنصر الأبيض والسيادة وعبودية الآخرين (على نحو ما عرف عن حضارتى اليونان والرومان) (روما سادة وما حولها عبيد) وقد صنع هذا الاتجاه فى صورة مخففة نتيجة أثر الإسلام الذى أقام قاعدة المساواة وألغى الرقيق عبودية الإنسان للإنسان .

فهى لم تتغير فى وجهتها عن وجهة الحضارتين اليونانية والرومانية بل قامت على أساس الظلم والسيطرة ونهب الثروات وكان موقفها من استعباد الإنسان جاريا على أسلوب عبادة الرقيق القديمة مع تحول يسير تحت اسم المدنية والحضارة وإن بقى مفهومها للعالم هو نفس مفهوم روما سادة . . إلخ .

ولكن لأن حضارة الغرب الحديثة التى تبلغ الآن من عمرها خمسة قرون قد جاءت

بعد الإسلام فقد عملت على كسب بعض مظاهر الحضارة الإسلامية مثل حقوق الإنسان والمرأة وتحرير العبيد دون أن تغير أوربا مفهومها الأساسى والثابت وهو : سيادة الجنس الأبيض على العالم وسيادة ما يسمى بالحضارة المسيحية اليهودية على البشرية .

وعندما استمر الأوربيون فى السيطرة على البلاد الإسلامية من خلال حركة الاستعمار التى امتدت إلى استعباد الأفارقة ونهب ثروات آسيا وإفريقيا كانت تواجه أمة مختلفة تماماً عن الأمم السابقة من حيث إيمانها بالله تبارك وتعالى وإيمانها بحق الإنسان فى الوجود ومسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقى هذا الإيمان الذى عرفته البشرية قبل سيطرة الحضارة الغربية كان عاملا حاسما وخطيراً فى تمكين الأمة الإسلامية من المقاومة والصمود فى وجه مساوىء الاستعمار وأخطاره .

لقد كانت الحضارة الإسلامية التى عرفها الإسلام منذ بزوغ فجر الإسلام (٦١٠ م) التى استطاعت خلال أكثر من ثمانين عاماً أن تسيطر على هذا الكوكب من حدود الصين إلى حدود نهر اللوار ١١٤ هـ ـ ٧٣٢ م كان الإسلام فى خلال مرحلة الفتح يقدم للبشرية منهجاً ربانياً جديداً يحمل كل المفاهيم الإيمان بالله تبارك وتعالى والتوحيد والعدل والرأفة والرحمة .

وكان من الطبيعى أن يزحف الإسلام إلى أوربا فقد دخلها من ناحية الأندلس ثم من ناحية البلقان وأن يعلم مجتمعه الأصيل وحضارته الأصيلة التى تختلف اختلافا واسعاً وعميقاً عن الحضارات التى سبقته وعن الحضارة الغربية التى نشأت عام ١٥٠٠ أى بعد (٩٠٠ سنة من بزوغ فجر الإسلام) قبل أن يكتمل القرن الأول ٩٠٥ م وكانت الحضارة الإسلامية نموذجاً جديداً يتميز بميزتين أساسيتين هما : التوحيد الخالص وأخلاقية المجتمع .

وهى ما لم تحصل عليها أى حضارة من قبل ، وهما الخطران اللذان يواجهان الحضارة العربية فتسعى كل السعى بكل قوى الاستشراق والتغريب والتبشير إلى تفريغ الإسلام منها تقيده إلى منهجها المادى والإباحى .

٢ ـ كانت المرحلة الأولى من حياة الأمة الإسلامية والدعوة الإسلامية بعد نكسة ١٩٦٧ ومن خلال مخططات الصهيونية والاستعمار والغزو الثقافى تتمثل فى البحث عن

حضارة الغرب وهل حققت للمسلمين ما كانوا يتطلعون إليه ، هل أعطتهم أشواق النفس وسكينه النفس وسلام المجتمع .

لقد اكتشف الغرب مؤخرا أنه لم يصل إلى حضارة كاملة ذات معطيات حقيقية ، هذا ما قاله علماء الغرب وخبراؤه حين أعلن فشل تجربته بعد أن أخذ بها المسلمون ووقعوا فى شباك أزماتها الخطيرة .

لقد أدرك الغرب أن حضارتهم ليست الحضارة الكاملة الجامعة كما ادعوا فى البداية وأنهم أبعد ما يكونون عن حقيقة الحضارة وأن تجربتهم الناقصة التى اعتمدت على العلم والعقل وحجبت الوحى ورسالة السماء والأخلاق قد أصابها الضعف والصدع .

ولقد كتب علماء ومفكرو الغرب حول هذا :

كتب شبنجلر وتوينبى وجارودى وسجريد هونكه ومراد هوفمان وكشفوا عن فقدان الثقة فى الفكر الغربى كله ، سواء أكان ليبراليا أو ماركسيا وعندما سقطت (الماركسية) تبين أن الأيدلوجيات كلها قد انهارت وانخدع البعض) فظن أن سقوط الماركسية هو (نهاية التاريخ) وأن الأمر أصبح فى يد الغرب والليبرالية والاقتصاد الحر .

ولكن هذه النظرة كانت عائمة وتبين أن هناك جولة أجرى ما يزال الغرب يصارعها على المنطلق الإنسانى : هى صراع الأعراق والدماء والعنصرية .

لقد هز سقوط الماركسية الفكر الغربى كله ، وتحول دعاتها إلى الغرب فى محاولة لإنقاذ ماء الوجه ولكن الفكر الغربى والحضارة الغربية لن تتوقف عن الانهيار وفق سنة الله فى الحضارات عندما تخرج عن قوانين الله وسنن الأمم وسوف يكون مصيرها هو مصير الحضارتين اليونانية والرومانية .

٣ ـ والحق أنه قد جاء دور الإسلام فى تصحيح مسار الحضارة الإنسانية وأن التجربة التى تمر بها البشرية اليوم هى عملية إضاءة الطريق لكشف الباطل وإحقاق الحق من خلال التجربة التى مرت بها الحضارة الغربية خلال خمسة قرون دون أن تستطيع فى يوم من الأيام أن تحقق السلام والأمن للمجتمعات التى تعيش فيها والتى تقتبسها .

واليوم تتضح الصورة من خلال الواقع المعايش حيث تطلب البشرية منهجاً جديداً مختلفاً عن الليبرالية والماركسية بعد أن عجزا عن العطاء الحقيقى ولن يتحقق للبشرية أملها ما دامت هذه الأيدلوجيات تصر على البقاء وتضيف كل يوم إلى التجربة صفحات أخرى أشد إظلاماً .

كانت الحضارة قبل الإسلام بمفهوم السيطرة والرقيق من خلال :

١ ـ عدم الاعتراف بالألوهية .

٢ ـ عدم تطبيق مبدأ أخلاقية المجتمع .

وقد دمرت الحضارتان اليونانية والرومانية نتيجة خروجهما عن منهج الله تبارك وتعالى وجاءت الحضارة الإسلامية لتقدم للبشرية نموذج الحضارة الإنسانية القائمة على أسس ثلاثة : التوحيد ـ الأخلاق ـ التجريب .

(ربط الغيب بالواقع ، مفهوم المعرفة الجامع بين العقل والوحى) .

ومن أساسيات الحضارة الإسلامية قامت الحضارة العربية بعد الإسلام بألف عام مدت ضوءها على كل أجزاء العالم ، وسرعان ما سبقت أوربا الحضارة الإسلامية التى تراجعت بعد حصار فيينا فى معركة (ليبانثو) وبعد أن سيطر الإسلام على أوربا أربعمائة عام .

ومن ثم بدأ منذ ذلك الوقت إلى اليوم (خلال خمسة قرون) الصراع الذى كانت فيه الحضارة الإسلامية مغلوبة ومتراجعة وفى موقف الدفاع أمام نفوذ الحضارة الغربية باندفاعها الخطير للسيطرة والاستيلاء على الثروات ونهب مقدرات الأمم والعمل فى نفس الوقت على حصار الأمة الإسلامية على نحو يحول بينها وبين امتلاك إرادتها .

ثم تبين اليوم كيف تمضى حضارة الغرب فى طريق مسدود وهى تجرى على نفس المنهج الذى سارت عليه حضارتا اليونان والرومان دون الاستفادة من التجربة بالرغم من البحوث التى كتبت عن محاذير سقوط الحضارة الرومانية ، لقد قاد المسلمون العالم ألف عام كاملة فى طفرة حضارية غير مسبوقة قوامها التجريب الإسلامى الذى صنع الحضارة المادية مع إعراضها عن مفاهيم التوحيد والعدل والأخلاق الإسلامية .

فى حين قدم الإسلام منذ ظهوره خلال أربعة عشر قرنا نموذجا ربانيا عالميا إنسانى النزعة استطاع فى خلال أقل من قرن من الزمان أن يطوق الكرة الأرضية ويقيم قواعد أساسية فى قارات أوربا وإفريقيا وآسيا .

وأن يدخل فى مواجهة مع الأديان القديمة والبشرية منها على وجه الخصوص ليكشف عن حقيقة الألوهية والنبوة والغيب والبعث والجزاء والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى كما رسمه الحق تبارك وأنزل به أنبياءه ورسله منذ خلق الإنسان وقد حمل القرآن الكريم فى آياته

الكريمة حقيقة الرسالة السماوية مع اليهودية والمسيحية وكيف اعتمدت على مصادر بشرية واختلفت مفاهيمها مع أصولها الربانية الأساسية .

وقدم المسلمون فى مجال التجريب والقانون والطب والبحار والصناعة والكيمياء قدراً هائلاً فى نفس الوقت الذى حملت معها القيم الإنسانية التى ترفع من شأن الإنسان وتكريمه ورفعه عن عبودية المادة وسيطرة الرقيق وإعلان عبوديته لله تبارك وتعالى ومسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقى والإيمان بعالم الغيب والبعث والجزاء .

واكتفى الغرب بالجانب المادى وحده وأقام حياته ومجتمعه على مفهوم الفلسفة المادية المجردة تماماً من الروح والبعث والغيب والمعنويات فمضت حضارته فى طريق منحرف ، وكان قيامها على أساس الانشطارية قد أحدث أزمة عنيفة بالنسبة للكيان الإنسانى القائم أساساً على (قبضة الطين ونفخة الروح) فجاءت الحضارة الغربية لتحجب الإنسان تماماً عن شطره الروحى فتحدث له تلك الأزمة الخطيرة : أزمة القلق النفسى والانهيار الروحى نتيجة غلبة جانب المادة .

لقد أخرج الإسلام الغرب من الرهبانية التى فرضت عليه أكثر من ألف عام ودفعته علوم الإسلام إلى الاعتماد والسعى والبحث وراء الثروة ، ولكنه اندفع إلى ذلك كله من خلال استعلائه للجنس البشرى ودون تقدير لالتزامه الحقيقى للخالق الأكبر الذى فتح له أبواب هذا الفهم والعلم ويسر له الطريق إلى بناء الحضارة وكان هذا الإعراض عن الخالق تبارك وتعالى هو أول هزائم هذه الحضارة وأول مسمار فى نعشها وأول مقتل لها .

جاء الإسلام جامعاً بين العقيدة والمعاملات والأخلاق بينما وقفت أوربا عند مفهوم اللاهوت بالنسبة للدين فاصلة بينه وبين العلاقات بين الإنسان والمجتمع ودون تقدير لقيم الأخلاق والعدل والرحمة والحق والحرية والمساواة والإحسان .

واليوم نجد الغرب يجرى محاولة خطيرة يرمى بها إلى احتواء الأمة الإسلامية فى دائرة حضارته المادية وصهر المسلمين فى بوتقه العلمانية والفلسفة المادية والإباحية والإلحاد .

ولم تقبل الحضارة الغربية مفهوم المعرفة الإسلامى الجامع بين العقل والوحى ولم تقبل البعد الإلهى التوحيدى ، كما لم تقبل مفهوم الثوابت والمتغيرات وانتقلت من مفهوم الثبات الدائم إلى التطور الدائم .

واتخذت مفهوم النسبية فى الأخلاق وربطها بالعصور والبيئات ووجدت من هذا الطريق الانشطارى آثاراً بعيدة المدى فى الهزيمة والانهيار ووجد المسلمون فى هذا المنطلق الغربى قصوراً شديداً إزاء مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة .

ولقد حرص المسلمون على أن يأخذوا من الحضارة الحديثة كل ما يصلح فى دائرة مفهومهم ومنهجهم يصهرونه من جديد ويرفضون ما يختلف مع مفهوم التوحيد والثوابت .

ولم يقبل المسلمون مصطلح (الطبيعة) الذى جعله الفكر الغربى بديلا عن الله تبارك وتعالى كما رفضوا مفاهيم العلوم الإنسانية والاجتماعية لأنها تختلف مع مفهوم التوحيد الخالص .

لقد اكتفى الغربيون بإقامة البعد المادى والتجريبى للعلوم الذى أخذوه من المسلمين ولكنهم وقفوا موقف الحجب الكامل للجانب الروحى والخلقى والعاطفى الذى يؤمن بالناموس الإلهى والسنن الإلهية وهذا ما أصاب حضارتهم بالانهيار .

أما كيف سيطر الغرب وتراجع المسلمون فإن مرجع ذلك إلى أن المسلمين ضعفوا عن حمل أمانة الرسالة التى اختارهم الله تبارك وتعالى لحملها والقيام بها فأخذتهم سنة الله الغالبة .

(إن الأمم التى تغفل عن مسئوليتها وأمانتها لابد أن تسقط) .

(فإذا عادت إلى الله تبارك وتعالى نصرها وسدد خطاها) .

لقد أصبح الغرب يملك القوة التى تعلمها فى مدارس المسلمين بينما ضعف المسلمون فكان لابد له أن يسيطر عليهم .

وهكذا سقطت عواصم الإسلام فى أيدى الاستعمار بعد أن انحرفت عن منهج الله تبارك وتعالى ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون الوصول إلى النهضة عن طريق أسلوب الغرب نفسه، وكان هذا من المستحيل فإذا أخذ المسلمون بأدوات الغربيين فى سبيل النصر والتمكين فلن يحقق ذلك لهم شيئاً ولن يغنيهم عن العودة الحقة إلى منهج الله تبارك وتعالى .

لقد فشلت محاولة المسلمين فى اتخاذ الأدوات التى مكنت لأوربا دون الرجوع إلى منهج الله تبارك وتعالى .

ذلك لأنه لن يتحقق للمجتمع المسلم : السلام النفسى للفرد والسلام الاجتماعى للمجتمع ، عن طريق التقدم المادى وحده فلابد أن يصحح المسلم عقيدته وأن يطبق المجتمع الإسلامى الشريعة الإسلامية ، ويفرض ثوابت الأخلاق الإسلامية بدلا من القوانين الوضعية المنقولة من الغرب ، وأن يرفع عنه التبعية لنمط الحياة الغربية وخاصة قوانين الغرب الوضعية وفى مجال الأخلاق بالذات .

هذه هى المعركة الدائرة الآن والمستمرة منذ مائتى عام (منذ الحملة الفرنسية والاحتلال الغربى) وهم يطمعون فى احتواء المسلمين والفصل بين الدين والمجتمع وصهرهم فى بوتقة الحضارة الغربية المادية وقبول مفاهيم الانشطارية الغربية الفاصلة بين الروح والمادة والعقل والقلب والمتركزة على عبادة المادة وتقديس العقل .

وهذا هو مفهوم التيار الإسلامى الذى تنامى من اليقظة .

إن الصحوة فى حقيقة الأمر هى محاولة لامتلاك الإرادة وإقامة المجتمع الإسلامى على أساس الفكر حتى تعود الوحدة الإسلامية الجامعة .

لقد كانت عودة المسلمين إلى الأصالة (مما أطلق عليه السلفية أو التراث) هى عودة إلى المنابع فى سبيل تصحيح الاتجاه لإقامة معاصرة موصولة بمنهج الله تبارك وتعالى ولإقامة « منهج الثوابت » والمتغيرات الإسلامية بالعودة إلى فهمه على أنه منهج حياة ونظام مجتمع .

وكانت مراحل دعوة التوحيد (محمد عبد الوهاب) ودعوة جمال الدين ثم محمد عبده ثم رشيد رضا هى مقدمات للخطوة الحاسمة التى خطا لها الإمام حسن البنا فى تطبيق منهج التربية النبوية الأول والذى كان ركيزة الأساس فى مرحلتى اليقظة والصحوة امتداداً إلى النهضة إذ كان يمثل خطوة العودة إلى المنابع : متمثلة فى منهج رسول الله ﷺ فى بناء مجتمع الرعيل الأول .

* * *

الفصل الثالث

حضـارة الغـرب

منذ اليوم الأول الذى طرحت فيه مفاهيم الغرب فى أفق الفكر الإسلامى فى العصر الحديث ، فقد راجع علماء المسلمين هذه المفاهيم وكشفوا عن مخالفاتها للتوحيد الخالص الذى جاء به الإسلام وعجزها عن العطاء واضطرابها ، ولم يقبل منهم إلا عدد قليل هم الذين انبهروا بالحضارة الغربية ، ولكن هؤلاء لم يلبثوا إلا قليلاً حتى اكتشفوا أن هذه الحضارة ليست سوية وأن وراءها مفهوم (روما سادة ومن حولها عبيد) وإن غلف بغلاف براق حجب الأنياب والأظافر .

كما تبين أن أهل هذه الحضارة وما يقدمونه للعالم الإسلامى إنما هو مفهوم الاستعلاء بالعنصر والنظرة غير السوية إلى البشرية وإلى الملونين وإلى الشعوب التى أصابها الاستعمار بالاستسلام للسيطرة فى ادعاء عريض بالاعتداد لما يسمى اللون الأبيض .

وسرعان ما زالت ظاهرة الانبهار بالغرب حين كشف بعض المنصفين الذين درسوا الإسلام حقيقة الأمر ولمسوا زيف الحضارة الغربية وفسادها .

وكانت صيحة اليقظة الإسلامية واضحة الدلالة فى الدعوة إلى التحرر من التبعية .

وقد تبين من دراسة النموذج الغربى القائم اليوم والمتمثل فى الولايات المتحدة أنه نموذج تلمودى مستمد من مفاهيم اليهود والصهيونية والتوراة التى كتبها الأحبار فى منفاهم ببابل وقد استطاعت الصهيونية أن تزحف خلال هذه القرون الثلاثة على الفكر المسيحى البروتستانتى الذى هاجر إلى الولايات المتحدة شيئاً فشيئاً حتى احتوته تماماً .

وكان أخطر ما تمثل فيه : إهلاك أهل البلاد الأصليين والسيطرة على الأرض (ممن سموهم الهنود الحمر) وظلت هذه التجربة الدموية الخطيرة يضرب بها المثل حتى جعلت محاولة تصفية ما تقوم به الصهيونية من تصفية فلسطين من أهلها عملا مشروعاً على النحو الذى قام به الأوربيون عندما سيطروا على الولايات المتحدة .

وقد امتدت المحاولة حتى أصبح النموذج الغربى الذى يقوم اليوم والذى يحاول أن

يفرض نفوذه على العالم كله : هو هذا الأسلوب من الإرهاب والعنف والنهب .

لقد قامت الحضارة الغربية كلها منذ نشأتها على هذا الأسلوب التى فرضته القوى اليهودية التى كانت ـ ولا تزال ـ تملك السيطرة الاقتصادية والنظام الربوى والذى حولت شخصيته اليهودية المرابى إلى نظام مصرفى مشروع .

وقد ارتبطت الحضارة بالاستعمار والسيطرة على الشعوب المستضعفة لأنها قامت أساساً على الثروات التى نهبتها من الأقطار التى سيطرت عليها أوربا فى نهاية القرن التاسع عشر عندما زحفت تحت اسم الكشوف الجغرافية للسيطرة على ثروات إفريقيا وشمال شرق آسيا .

يقول الدكتور محمد عصفور :

إن النموذج الغربى يعكس خصائص حضارة متوحشة معادية للإنسان تؤمن بالقوة وتفوق العنصر ، وهى فى بغضها الشديد تمارس الإرهاب والعنف والنهب ولا تبالى بشرعية أو قانون أو قيم وهى فى سبيل تحقيق غاياتها لا تكتفى بأن تقيم أشد وأشرس الدول وحشية وعنصرية بوصفها كيانات غربية ومعادية سواء فى الوطن العربى أم القارة الإفريقية ، وإنما تزرع فى كافة دول العالم الثالث نظماً وحكومات عسكرية وفاشية وديكتاتورية لكى تكون أدوات طيعة فى الإرهاب والنهب بما يحقق ويحمى مصالح الاستعمار مختفياً وراء واجهات وطنية زائفة .

وتجرى أخطر عمليات الهدم والتخريب : هدم القيم والحضارات وتخريب الشخصيات القومية وتزييف الوعى وإثارة الفتن والشقاقات واستعراض القوة فى مناطق عديدة من العالم الثالث لتلقن الشعوب جميعا الدروس التى يجب أن تستقيها من حروب يجرى إشعالها بتواطؤ أو تآمر أو تغرير .

وكان المفكر الأمريكيين تشوفسكى منصفا عندما لخص هذه الدروس فى مبادىء ثلاثة :

أولها : نحن الأمريكيين سادة العالم وعلى الشعوب والدول أن تلمع أحذيتنا .

ثانيا : إن أمريكا لا تكتفى بأن تهيمن اقتصادياً على الدول التابعة ، وإنما ترى من الضرورى تدعيم هذه الهيمنة الاقتصادية بإقامة نظم حكم استبدادية (نظم حكم عميلة) .

ثالثا : وهو أشد هذه المبادىء تعبيراً عن جوهر الحضارة الغربية حيث تقرر أنه ليس

يكفى أن تهزم خصمك أو أن تقهره ، وإنما لابد أن تسحقه سحقاً ، فإذا كان العدو شعباً أو حضارة أو عقيدة فإن الأمر يستعدى بداهة استخدام تكنولوجيا الهدم وهى فى صورتها الأمريكية بالغة التقدم :

(وهذه هى مفاهيم التلمود والصهيونية موضوعة فى قالب عصرى) .

إن قيام أية إمبراطورية فى كنف الصراع العالمى على المستعمرات يقترن دائماً بانتحال رسالة ورفع شعارات ، وذلك لتغطية نزعات التوسع الاستعمارى ، واعتقادى أن أوربا وأمريكا محكومتان بشدة بأصول وقيم وتراث الحضارة الغربية التى يتميز بالعنصرية والقسوة والنهب بجانب هذا النفاق الشديد الذى يحاول أن تظهر به بمظهر إنسانى ملتزم بالمبادىء والرحمة والشرعية والعدل .

ويستحيل أن يتحرر الغرب من نشأته الدموية ومن أصوله الفكرية العنصرية ونزعاته العدوانية عنفا ونهبا ، ومن شأن هذه التنشئة العنصرية العدوانية أن تنعكس على نظم الحكم وتؤثر فى شخصيات الحكام والقادة وتغريهم على أن يخونوا الرسالات التى تزعموها ، ولسنا نتجاوز الحقيقة إذا قررنا أن السبب الرئيسى فى سقوط الديمقراطية والاشتراكية يرجع أساساً إلى خيانة الحكام والفارق كبير بين الإخفاق والخيانة ، ذلك أن الإخفاق قد يكون نتيجة لتقصير أو عجز فى استحالة تطبيق « المذهب المثالى » .

أما الخيانة فهى تصرف عمدى يصدر عن الحكام الذين لا يؤمنون إيمانا حقيقياً بسلطة الدولة ومع ذلك يحكمون بالاستناد إليها فى ظل الغش والتضليل . أ . هـ .

وإذا كان هذا الرأى يكشف انهيار الحضارة من جهة الاشتراكية والشيوعية ، فإن هناك تحول من ناحية الغرب والديمقراطية ، يقول الكاتب :

إن أمريكا خرجت فى الأصل من عباءة أوربا التى أرسلت مهاجريها إلى العالم الجديد، بل وكانت تجعل أمريكا ذاتها فى حرب الاستقلال فى سبعينات القرن الثامن عشر ، ويومها وحتى بوابات القرن العشرين كانت أوربا الغربية زعيمة العالم والمسيطرة على مقدراته الاقتصادية ومقاليده السياسية وفى عام ١٩٠٠ للميلاد كان نصيب أوربا فى تجارة العالم يشكل نسبة ٣٦ ٪ وكانت إمبراطوريات أوربا الاستعمارية تمتد مساحات شاسعة فى إفريقيا وآسيا على وجه الخصوص ، وعندما جاء عام ١٩٦٠ كانت حصة أوربا فى تجارة العالم قد انكمشت وكانت مستعمراتها قد زالت بالاستقلال ، وقد جاء تراجع الدور السياسى لأوربا

لحساب الولايات المتحدة التى برزت كقوة كبرى ، فإن تراجع أوربا الاقتصادى لم يكن لحساب الولايات المتحدة ، ذلك أن مركز اقتصاد العالم اليوم لا يقع على جانبى المحيط الأطلسى لا فى أوربا ولا أمريكا ولكن يقع فى صفوف دول آسيا التى باتت تشكل بصورة متزايدة أكبر نصيب من التجارة الدولية ، وسوف يشهد القرن الجديد تحولاً فى مراكز القوة أو السطوة الاقتصادية والصناعية والتكنولوجيا من بلدان الغرب الأوربى الأمريكى الصناعية إلى بلدان جنوب شرقى آسيا (سنغافوره ـ هونج كونج ـ تايوان ـ كوريا الغربية) .

ومع سقوط الأيديولوجيات وتحول الحضارة وأزماتها المتوالية وعجزها عن تحقيق الأمن والسلام للمجتمعات التى عاشت فيها وانتقلت إليها مما يؤكد حقيقة ترددت على أقلام المفكرين الغربيين أنفسهم بما يؤكد « فقدان الثقة فى عطاء الحضارة الغربية بعد خمسة قرون » .

لقد أخذت الحضارة عوامل النهضة من المسلمين أساساً ثم أخذت مادة التقدم كلها من المسلمين نهباً مستمراً متصلاً خلال هذه القرون الخمسة ثم أخذت ملايين السود لإقامة حضارة الأمريكيين بعد أن قضت على أهل البلاد الأصليين ثم نهبت موارد الذهب من أمريكا الجنوبية ثم ادعت أنها لم تأخذ من العرب والمسلمين شيئاً ووصفت المسلمين بالانحطاط والتخلف والضعف بعد أن جردهم النفوذ الأجنبى من كل ثرواتهم وفضلا عن ذلك فقد فرضت عليهم مناهجها ومفاهيمها وسيطرت سيطرة كاملة على مجتمعهم .

لقد كان هم النفوذ الأجنبى أن يخرجنا من الإسلام نهائيا وإما أن يجعلنا صورة زائفة للإسلام ، ولعل هذا ما وصل إليه اليـوم على مثل ما يســمع من وزير الاندماج الفرنسى (كوفى بامنيان) من قوله : إنه ينبغى أن يكون هناك إسلام ذو صبغة فرنسية ومعناه أن على المسلم أن يلتزم بمثل قيم المجتمع الفرنسى وإلا فإن عليه أن يرحل عنها . أ هـ .

هذه هى « التبعية » التى يريد الغرب (بشقيه) أن يحاصر بها عالم الإسلام وأن يقتحم بها أصول الإسلام بهدف تحويل الإسلام إلى مفهوم اللاهوت الدينى الغربى الذى يختلف اختلافا كبيراً عن مفهوم الإسلام الجامع [1] .

لقد كان هذا العمل هدف النفوذ الغربى ، وفى نفس الوقت هدف الماركسية فقد

---

(١) عن نص لأحد الباحثين المعاصرين .

أعلنت الشيوعية عن هدفها فى طمس هوية المسلمين الثقافية والتاريخية فى المناطق التى استولى عليها مضافاً إلى دور الغرب فى مناطق آسيا وإفريقيا بل إن الأعمال التى قام بها الشيوعيون فى الدول التى أخضعوها لسلطانهم لا تقل بشاعة وفظاعة عن الأعمال التى قام بها الغرب الاستعمارى فكلاهما المعسكر الشيوعى والمعسكر الغربى كانت الروح الاستعمارية منطلق أعماله وكلاهما يسعى إلى تطوير تفوقه وهيمنته على العالم .

وقد ظل المعسكر الشيوعى لمدة أكبر من سبعين عاماً قوة عسكرية واقتصادية واجهت الرأسمالية الغربية وطرحت نفسها كبديل حضارى ومثلت توازنا استراتيجيا حد من التوسع الاستعمارى العسكرى الغربى ومكن أكثر من مائة دولة من نيل استقلالها فى ظل الحرب الباردة بين المعسكرين .

وقد اتجهت بعض أقطار الإسلام إلى تجاوز النمط الرأسمالى الاستعمارى والتحول إلى نظام آخر وشهدت تجربة سقوط النظامين وتأكد لها أنهما لا يصلحان للمسلمين .

ويمثل الغرب أضخم تكتل عسكرى فى العالم (١٥ دولة رأسمالية) ويملك حلف الأطلسى فى مواجهة حلف وارسو .

ويمتلك من الأسلحة النووية ، قوة عسكرية هائلة أقرب إلى الخيال ، وقوة اقتصادية ومادية هائلة .

ويملك أكثر من ٥٠ فى المائة من جميع الصادرات والواردات إلى العالم ويسيطر سيطرة شبه مطلقة على التجارة الدولية وعلى مصادر التقنية ، فهو مهيمن هيمنة مباشرة على الموارد الطبيعية والخامات المعدنية والخامات المولدة للطاقة .

وهذه المواد الأولية والخامات موجودة فى دول العالم الثالث ولكن الغرب هو الذى يهيمن عليها ويصنعها ثم يعيد تصديرها وتسويقها .

والغرب هو الأب الشرعى لكل « الشركات المتعددة الجنسيات » التى تحولت إلى قوة رئيسية وفاعلة على الساحة الدولية والسيطرة الكاملة على النشاط الاقتصادى .

هذه الشركات التى تشرف على إدارة النظام الاقتصادى العالمى وتحتكر التجارة الدولية والتقنيات الحديثة وتتحكم فى مصادر السيولة النقدية الدولية ووسائل الاتصال والإعلام .

وأمريكا هى التى تتولى قيادة النظام الاستعمارى العالمى الجديد وتفرض هيمنة دول

الشمال على الجنوب وتتصدى لكافة حركات التحرر الوطنى وتجهض رغبة الشعوب فى الحصول على استقلالها الكامل أو تحقيق تنمية مستقلة بعيدة عن تدخلات الشركات الاحتكارية .

أما دول الجنوب (ومن ضمنها العالم الإسلامى) فهى تملك أكثر من ٦٠ فى المائة من إجمالى مساحة الكرة الأرضية وبها ٧٥ فى المائة من سكان الأرض حيث يعيش ٢٥٠ مليون من سكانه فى الأكواخ .

وتقدر الفجوة بين الشمال والجنوب بنحو ستين سنة حضارية وتعانى دول الجنوب من تراكم الديون (إلى أرقام خيالية) .

هذه الديون تقيد إرادة هذه الدول وتوجهها توجهات تخدم مصالح الدول الدائنة وما زال الغرب يفرض نفوذاً ثقافيا من أخطر آثار التبعية فكراً ومنهجاً وقيما وإعلاما ويحتفظ بهيمنة اقتصادية وثقافية ودبلوماسية ، حيث توجد ٩٠ فى المائة من صناعات ومصانع العالم فى الشمال و٩٠ فى المائة من المواد الأولية والخامات المعدنية فى الجنوب ، ورغم غنى الجنوب بهذه الخامات ورغم أهميتها ، إلا أنه لم تستكمل بعد تحرير هذه الثروات الطبيعية من السيطرة الأجنبية حيث ما يزال الغذاء يستعمل سلاحاً سياسياً يستخدمه الغرب ببراعة شديدة .

وهكذا علا الغرب واستطال فى مجال المادة علوا كبيراً وبينما تضخم ماديا وضمر وتراجع فى مجال القيم والمبادىء وواجه فراغاً واسعاً فى كل مجال إنسانى أو دينى فقد خاصم الغرب كل الديانات منذ تجربته مع الكنيسة ليقدس الإنسان ويعلن تأليهه ثم ما لبث هذا الإنسان أن سحق وصار مجرد وسيلة مادية للإنتاج فى الماكينة الاقتصادية مع تفكك أسرى وتقلص فى العلاقات الإنسانية .

وظهرت انحرافات كثيرة أهمها القلق والانتحار والمخدرات والشذوذ والتخنث والقتل والاغتصاب والنرجسية .

وظن الغرب أنه حين ينقل نماذج هذه الحضارة إلى عالم الإسلام سيتمكن من احتواء المجتمع المسلم وسيطرة الفلسفة المادية : متمثلة فى عنصريها : الربا والاقتصاد الربوى من

ناحية والانحلال الخلقى والاجتماعى من ناحية أخرى وواجه الإسلام بقدر ضخم من الأزمات والكوارث لفرض هذا النظام عليه غير أن الأمر لم يلبث أن كشف عن حقيقة خطيرة وهى .

أن الإسلام الذى زلزلته الكوارث الدامية والأزمات الطامية لم يقض نجمه ولم ينصهر فى الغرب ، بل على العكس من ذلك انطلق زاخراً بالحياة والنشاط أقوى ما تكن الحياة حتى بدأ البعض فى الغرب يعتقد أنه لابد أن يحسب للإسلام حسابه وأن يخشى بأسه، أما المجتمعات الصناعية الغربية فقد أخذت الأزمات بخناقها [1] .

حينئذ بدأ تطور العالم الإسلامى (والوطن العربى) فجائيا غير متوقع ، أما اليوم فإننا مقتنعون بأن هذا التطور كان نتيجة حتمية .

إن علماء الاجتماع يسجلون أن النجاح الاقتصادى للدول الرأسمالية قد تعرض للقيم الخلقية أو نسفها نسفاً وبالتالى اجتثت قواعد السلوك والمعاملات التى أبرزتها فلسفة (ماكس فبر) الأخلاقية البروتستانتية والتى عليها ذاتها يقوم النجاح الاقتصادى للرأسمالية .

هذه الآلية التى تنسف ذاتها بذاتها تلقائيا فتشوه الخصال الحميدة مثل الجد وعدم التبرير والسلوك الحسى المنضبط والصبر والإخاء والمرونة والشجاعة ، ففى مجتمعات الرفاهية المسرفة والوفيرة الفائضة عن الحاجة ، ترى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافا مضاعفة ، أو ترى فيها جديدا دائما وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها لتتلاءم مع المجتمع الصناعى المادى بالفعل وهما إذا طبقنا عموماً لا تستطيع أن تخدع أى مجتمع صناعى .

وهكذا يمكن أن تتقلب الفردية الانعزالية فتتحول إلى النرجسية والأثرة والإخاء إلى السلوك الجمعى غير المتعقل والمتكبل فى مجموعات (شلل) تؤم المراقص وحفلات موسيقى روك أندرول ، والذى حول تقرير المصير إلى فوضى خلقية (لا خلقية) كما لمسنا فى الصيحة التى ترددت على ألسنة الداعيات إلى تحرير المرأة وحقها فى أن تفعل بجسدها ما تشاء مثل الإجهاض (بطنى لى وحدى) ومن ثم تنقلت حركة الفكر من عدم التميز إلى إباحية مطلقة والتسامح والسماحة إلى حيدة القيم والتعاقل المشروع إلى جنون الاستهلاك

---

(١) من نص لأحد الباحثين المعاصرين .

والحرص على متاع الحياة الدنيا ، وتحولت المساواة إلى التسوية الآثمة التى لا تميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين وبدلا من تكافؤ الفرص ورفاهية الحس إلى الولولة البائسة وتنقلب الحيطة والحذر إلى إحجام ، وبالاختصار فإنه لا مفر من حدوث تلك الرزايا المنكرة إذا اختل توازن أعمدة ثلاثة أو مبادىء أساسية ثلاثة : العقلانية والحرية والحب .

هذه الأغراض المرضية للوظيفة غير السوية أو التوظيف السىء المشبوه مألوفة على مسرح الأحداث فى كافة الدول الصناعية اليوم ولتتأمل ضحايا ذلك المجتمع الصناعى وفيها الحياد المزعوم ، أنهم يتمتعون بكل ما يريدون من الاستقلال الذاتى والحياة المؤقتة من المهد إلى اللحد والحرية أو الإباحية الجنسية التى لا تعرف محظوراً أو محرماً والمخدرات على اختلاف أنواعها وأوقات الفراغ وكافة الحقوق المدنية التى يحكم بها المرء، ولكنهم على ذلك كله يُحسُّون فراغاً هائلا يملأ وجودهم الفعلى ويتوقون إلى الحنان والدفء البشرى من قبل الجماعة التى يعيشون فيها وإلى سلطة زعيم روحى .

وهنا يجىء سلاح ملح خطير : ما هو مغزى الحياة والوجود ، هذا يعنى بروز ظاهرة الانطلاق الجديدة المحمومة للاتجاه الدينى والتقليب هنا وهناك ولكن عاجلا أو آجلاً سوف يعثر فى بحثه عن دين بديل كاف شاف بالظاهرة الفذة (الإسلام) المبعوث بعثاً جديداً لا سيما أن الإسلام يرى أنه هو الصراط المستقيم من المعسكر الغربى وإرهاق المعسكر الشرقى المادى وأخلاقه .

ولقد جاءت المذاهب المختلفة : القومية والاشتراكية مما يتفق مع ما يرى كمال أتاتورك والمستغربين المعاصرين .

ولكن هذه التجارب كلها باءت بالفشل الذريع بعجزها وقصورها وعدم استطاعتها مصالحة الأدواء المستشرية وحل المشكلات المستعصية .

وجاءت الظاهرة الفذة (الإسلام) بدأت تتوالى منذ بداية السبعينات حتى اليوم دون انقطاع : متمثلة فى الصحوة الإسلامية أو اليقظة أو العودة إلى الأصول وعدم الفصل بين الدين والدولة ، وفى بادىء الأمر اعتقد البعض أو تمنى أن الأمر ليس إلا حركة اجتماعية تبدى احتجاجاً قولا وفعلا ، والواقع أن هذه النظرة التى تريد أن ترى أن حركة إحياء الإسلام ليست إلا تعبيراً عن العجز التكنولوجى قد ثبت خطؤها الفادح وعجز المحللين والدارسين الآخذين أو القائلين بها عن فهم العامل الدينى الأصيل .

إن الإسلام باعتباره دينا ونظام حكم مشروعاً معتمداً لم يفقد قط وظيفته وهيئته حتى فى تركيا نفسها (إذا استثنينا الفئة المتشدقة بالغربية الثقافية واليد واللسان والزى) بل إن الإسلام على حد تعبير « أرنولد هوتنجر » لم يفقد أهميته مطلقاً وإن حجبها غشاء شفاف رقيق لعملية التحديث أو التمدن الحضارى العصرى) .

وهكذا يعترف الباحثون أخيراً أن ظاهرة تجلى الإسلام فى مجلى جديد يجب فهمهما على أنها اقتحام جديد للسلطة الدينية « الشريعة » للهيمنة على مجالات الحياة العامة .

وقد أكد هذا عنوان كتاب (حياز كل) الذى سماه (انتقام الله) ومن الطبيعى أن يرتبط هذا الاتجاه بفكرة الرفض المبدئى القاطع للتمدن أو التحديث كما يريده الغرب المسيحى وأن العالم الإسلامى يرى فى هجر الغرب للروحانيات والمثاليات وتغلفه الشديد بالماديات تشويها أو جدعاً لكفاءة الإنسان ويرد هذا الاتجاه الغربى بمخطط إسلامى مضاد يفسر فى ضوئه النهاية المحتومة للمركزية الأوربية (بعد انهيار النظام الشيوعى) أصبح العالم .

وليس ثمة أى تناقض أو تعارض فى كون إحياء الإسلام يقدم للمسلم الذى يعانى وتتوزعه الشدائد والمحن والكوابيس فى العالم الثالث الفرصة للعودة الرشيدة إلى جذوره ولن يحقق أخيراً كرامته ويسترد اعتباره ولن يتحقق له ذلك إلا إذا كف المسلمون عن مسابقة الغرب على الحرص على متاع الحياة الدنيا الزائف الزائل والتمثل فى السلع الاستهلاكية التى لا طائل تحتها بدون هذا لن يكسب المعركة .

بل إن سلسلة الإهانات والإذلالات المتلاحقة للعرب والمسلمين وللوطن العربى الماثلة أمام العالم اليوم وبوجه خاص فى مأساة فلسطين قد مهدت الأرضية السياسية للتخلف من ذلك الجزاء ولتحقيق انطلاقة أخلاقية ـ دينية واعية . أ هـ .

* * *

الفصل الرابع

إلى أين تسير الحضارة الغربية

الظاهرة الواضحة اليوم فى الغرب هى ظاهرة الاستيقاظ والتطلع إلى حقيقة الإسلام التى استخفت طويلا وعمد الغرب إلى تغييبها وحجبها وإنكار فضلها ، يقول الدكتور رشدى فكار : « إن الاستيقاظ الذى ظهر فى الغرب لم يكن متردداً إنما كان بخطوات بطيئة محسوبة وهذا الاستيقاظ لا يمثل تراجعاً إنما كان فيه زحف إلى الأمام » .

فالقرن السابع عشر كان يشهد تضخم المعرفة وتراكمها لدى المعارضين وبدءوا يتساءلون بعد مسيرتنا كشعوب بعد ألف عام من الظلمات ومصادرة الإنسان ، من المسئول عن ضياع ألف عام من شعوب الغرب من المصادرة والسخرية من العلماء .

من خلال مراجعاتي وجدت أن بعض المعترضين كان يبحث عن قميص عثمان فبدأت تلصق التهم بالإسلام .

والمعروف أن أفكار كونت : رائد المدرسة الوضعية فى كتابة (الجانب الاجتماعى فى الإسلام) أعد دفاعاً رائعاً عن الإسلام وقال إن الإسلام ، هو الدين الوحيد الذى تمكن من أن يتعايش مع حالة وضعية جاءت لإلغاء الميتافيزيقا وإلغاء التجريد وأعطى بعض الأدلة : لماذا لم يوضع الإسلام فى قالب الدين الممكن ، طالما أن الإنسان سيبحث عن الدين حينما يتعمق فى حالة الوضعية أى حالة العلمية والتعليمية والتثبيتية سوف لا يجد أمامه إلا الإسلام هو القادر على التعامل مع الحالة الوضعية الجديدة ، هذا الكلام الذى قيل منذ ١٦٠ عاماً جدير بأن يذكر إعزازاً بالرجل ومدى دفاعه عن الحق .

ثم جاءت المدارس الوضعية والاحتجاجية التى ترمز إلى العقل المتمرد ، وقالت بالاستغناء عن كل هذه الأمور وأخذت تبحث عن الإنسان فى وضعه وفى ماضيه حين كان يتبع الأنبياء ثم إذا به يدخل فى متاهات كبرى وأدى ذلك إلى نوع من الاهتزاز وبدأ الإنسان يلهث بين الضباب والسحب عمن يرشده وإذا بوزنه يختل ويسقط على الأرض .

فكانت فلسفة الأرض : الفلسفة الوضعية وهى فلسفة بحث الإنسان عن وضعه كبديل لكل هذه المتاعب .

من يقرأ لنيتشه أو سارتر أو ماركز سيكتشف أن هناك اتفاقا بين الجميع على أن البديل هو الذات : البديل أنا (تأليه الإنسان) .

مشكلة انعكست على هؤلاء حيث أنهم بدءوا يعانون من تألية الإنسان (السوبر مان) كبديل للإله ، البعض منهم أصيب بالجنون والبعض انتحر ، البعض هرب ، البعض حاول أن يهاجر إلى أفكار أخرى .

قال : ماريلى هابدبار عميد فلاسفة القرن العشرين : اتضح أن الحضارة الغربية الآن تسير فى طريق الظلمات ولا نعرف إلى أين تؤول .

قبل انهيار الاتحاد السوفييتى كان الثلاثى الذى كان يعتقد أنه سيكون رؤساء للكون وهم المنظرون للماركسية اللينينية : أحدهم هرب وجاء إلى الإسلام فمرحباً به (يقصد جارودى) لأن البعض ربما يغيب عنه أن رجاء جارودى كان فى الخمسينات من كبار منظرى الماركسية اللينينية فى الغرب لأنه كان منظر الحزب الشيوعى الفرنسى بجانبه (التوسير) الذى له مؤلف بعنوان (كل شيء من أجل كارل ماركس) من ناحية ثالثة نجد (فولتازس) مجموعته ١٤ مفكراً (أزمة الدولة أم دولة الأزمة) .

حيث كان هناك اعتقاد أن البشرية ستصبح بلا صراعات أو هموم وبلا حتى دول شعروا فى الستينات أن الدنيا تهتز .

وقد ظهر ذلك فى مؤتمر « سلدوف » أن قضية الماركسية ذاتها مشكلة فهناك من انتحر لأنه لم يقبل الهزيمة (التوسير) ذهب فى ليلة وذبح زوجته بالسكين ثم قدم نفسه للبوليس .

وقال ديستان الرئيس الفرنسى آنذاك كلمة رائعة (**فرنسا لا تعتقل وتقتل أو تعدم**) .

هذا عقل فرنسا فاحتفظوا به فى مستشفى أمراض عقلية حتى توفى ، إذن هناك تأزم خطير فى الحضارة الغربية ، ليس لأننا نعيش الآن فى فترتها التكنولوجية ؛ إنها حضارة أزلية، حضارة بدون عنوان ، هذا غير حقيقى : الحضارة الغربية حضارة اختزال رهيب ،

حققت فى فترة زمنية محدودة للغاية ما لم تحققه البشرية فى تاريخها الطويل .

كان ظنهم أنهم جاءوا ولن تذهب الحضارة الغربية وستكون أبدية ، فإذا سألت عن الإنسان فإن مشكلته أصبحت مع ذاته .

جفت عواطفه ، غابت عنه الضحكة العميقة التى تؤكد على مشاعره الإنسانية ، ضاع عنه أيضاً الذكاء العميق وهو إنسان ينتج بشكل مرعب ومشرف ولكن يأتى فى نهاية اليوم ويأتيه سؤال خبيث : لماذا كل هذا من أجل ماذا كل هذه المتاعب ؟

ويتساءل الدكتور رشدى فكار :

من الذى سيطرح الإسلام فى العالم .

ويقول : الإسـلام فى رأيى المتواضع يتوافق مع الحالة الوضعية العلمية التى نعيشها الآن ، ولكن كما نرى أن قضية طرح الإسلام مطروحة بطريقة فيها جانب عاطفى ، لقد بدأت تقال كلمة نعم ، لأن هناك أنبياء ولكن المشكلة من يؤكد لنا أن ما قاله الأنبياء منذ قرون هو الذى وصل الينا .

لأن فيه تلونا ومصادرات تاريخية وضياعاً للوثائق .

قضية الثبات التاريخى من يؤمنها ، هذا هو السؤال الذى سيطرح فى القرن الحادى والعشرين .

بكل موضوعية أقـول : إن الإسـلام يتمتع بالثوابت التاريخية التى من الصعب دحضها : هناك مشكلة أين النبى وأين دفن ؟.

لدينا الحرم والكعبة ولدينا المسيرة التاريخية للحضارة الإسلامية التى تتميز بالتنوع والتعدد .

القرآن الكريم معروف كيف سجل وقت المحافظة عليه ؟ السنة النبوية الصحيحة أيضاً .

هذا معناه أن هناك حفظاً للأحاديث وهناك قرآن كريم محفوظ ، هناك كعبة وحرم ، الإسلام بخير والدنيا ليست سيئة كما يعتقد البعض ، توجد تقارير تشير إلى أن المطلوب إعدامه من ثروة البشرية يعادل ما تبقى من البشرية ونعنى بذلك تدمير الأسلحة وإلغاء مسلسل التجارب النووية ، وقالو ستكتشف فى النظم الشمسية مستقبلا طاقات هائلة .

الخلاصة : أن الحضارة الغربية لإن قُدِّرَ لها أن تعيش تجربة تطوير الجوهر وتزيد من التطور لأنه لا يصلح التطور مزيد من التطور إنما يصلح التطور سلوك آخر ، لأن من سلوك أخر للبشرية حتى يحدث ما يطلبه البشر .

إننى أنصح من يعتقدون أن الحضارة الغربية ظاهرها وباطنها الرحمة :

لا ـ هى لها ظاهر ممتاز ومشرق ولكن هى حضارة وسائل ، إن الإنسان فى الغرب يريد أن يجد لها حلاً .

يجب التمييز بين المظهر المشرق للحضارة الغربية فى الإنجازات ومن الجوهر المتعب حيث توجد قضية متاعب كثيرة لا يراها إلا أهل الذكر لأن الإنسان حمل بأكثر مما يحتمل .

الحوار مع الغرب يتطلب ألا يكون هناك سائد ومسود يكون حوار نزيه وصادق ، إننى لا أميل للمواجهة فى هذه الفترة من التاريخ ، المواجهة مع حضارة الغرب حاليا هى نوع من المغامرة .

إن القضية هى قضية إعادة صياغة الإنسان : إنسان قابل للحوار إن القرن الحادى والعشرين سيكون للإسلام حضور فيه ، إن الإسلام يتمتع بخصوصية امتلاكه ثوابت تاريخية من الصعب دحضها ، فلدينا القرآن والسنة المؤكدة والكعبة وأشياء كثيرة تؤكد ثوابت الحضارة الإسلامية ، ولدينا تحكمه فى المضايق البحرية والثروات الموجودة فى باطن الأرض ، الطاقة ، هم يحاولون بكل الوسائل أن يقولوا إن قضية الطاقة مبرمجة وفوقية وهناك الطاقة الشمسية ، والطاقة الهوائية ، هم يعلمون جيداً أن قدرهم لمدة ١٥٠ سنة على الأقل مرتبط بالمنطقة الإسلامية .

من الصعب أن يظل البشر كما هو ، الإسلام ممكن فعلا أن يطرح خلال القرن الحادى والعشرين على مستوى الثوابت: ثوابت الإسلام التى لا يركز المسلمين عليها كثيراً.

وهذه ملاحظات عامة :

١ ـ إن الحضارة الإسلامية تستند إلى الجانب القيمى والتطور المادى معا ، إن هذه الحضارة تطرح كبديل فى القرن القادم ولكن تستغرق إطاراً زمنياً أبعد ، فإن الشىء الواضح والمؤكد أن الإسلام سيكون له حضوره القوى فى الحضارة العالمية خلال القرن المقبل ،

فالإسلام لديه عنصر التاريخ وعنصر الجغرافيا ، فهو يتحكم فى المضايق البحرية ويمتلك ثروات هائلة فى باطن الأرض .

٢ ـ وجدت أن الحضارة الغربية فى مأزق حقيقى الآن بعد الشوط الكبير الذى حققته فى مجال الإبداع الإنسانى بكافة مستوياته ووصل كل شيء إلى خط النهاية ومرحلة الانتفاخ وأصبح الإنسان فى الغرب يسأل نفسه سؤلاً هاماً ومصيرياً : وبعد كل هذا إلى أين ؟ السبب فى هذا الموقف الذى وصلت إليه الحضارة الغربية ، إنها حضارة اختزالية لا استشراقية مثل الحضارة الإسلامية مثلا والتى أفرزت قيما روحية مثالية عالية مثل الإيثار والفخر والكرم والنجدة والشهامة ، كما أن الغرب راهن على الاستهلاك والصناعة فى حضارته وهو ما حذر عنه الفيلسوف سان يبحو حتى لا يجد الإنسان والمجتمع نفسه تحت مائدة الثورة الصناعية وبالتالى يفقد ثقته فى مستقبله .

٣ ـ علمت أن الغرب يميل إلى الحوار مع الإسلام خاصة فى هذه المرحلة التى يراجع فيها أوراقه من جديد ، هنا يجب أن نستغل الفرصة ونتشجع أن نسعى للحوار معه فى حدود التنوع لا الإذابة خاصة وأن الإسلام يتوسع الآن فى أوربا كل يوم ويدخل فيه الآلاف ، مما جعل التيارات اليمينية تقول : إن الإسلام يدق لنا نواقيس الخطر .

٤ ـ إن البروتستانتية تمد يدها لليهودية وتفتح الطريق لها لتستعيد العالم ، إنها الجسر بين العقول اليهودية القادرة وبين البروتستانتية المتضخمة التى تعيد لها الطريق لتعبر إلى قمة العالم .

* * *

الفصل الخامس

حوار الحضارات

يقول الدكتور رجاء جارورى : إن الغرب عرض طارىء فى تاريخ البشرية الطويل يمكن أن يسمى الشر الأبيض .

كذلك فإن تصوير الغرب على أنه بدء مطلق أى على أنه قد صنع حضارته بنفسه وأنه صانع الحضارة الإنسانية فى كل العصور إنما هو وهم .

وإن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم الغرب إنما ولد فيما بين النهرين وفى مصر أى فى آسيا وإفريقيا .

وكما ولد الغرب القديم (أى اليونان) فى أحضان حضارات الشرق القديم فإن الغرب الحديث ولد عبر نقل نهضة شاملة صنعها العرب والصينيون فى العصر الوسيط ، إذن فلم يبق فى عصر النهضة معجزة كما لم يبق ثمة معجزة يونانية .

وقال : أؤكد أن شرط نمو الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وأمريكا الشمالية ، وأن مولد المجتمع الجشع فى الغرب وهو يستند إلى أساس الربح والسيطرة قد أتاح الإفادة على سلم لم يسبق له مثيل فى الماضى من الاختراعات التى أخذتها أوربا من ناحية ثانية عن الصينيين والعرب بحرية تغير من أجهزة دفة السفينة ومن البوصلة وهى تيسر إمكان الملاحة البحرية إلى مسافات طويلة ، وكذلك استخدام البارود والأسلحة النارية بوجه خاص وعلى ذلك فإن التفوق الأوربى لا يرجع إلى تفوق ثقافى ، بل إلى النفع الذى منحته أوربا من قطاعين : البحرية والأسلحة وقد نقلتهما أوربا عن العرب والصينيين .

وقال : إنما يدين الغرب بعصر النهضة للغزو العربى الذى عرف كيف يخلق الشروط اللازمة لتفتحه ، إنه كان فتحاً عظيماً أفادت منه أوربا بأكثر مما أفاد العرب وهو يرد على ما يسمونه غزواً بقوله : إن ما يطلقون عليه اسم غزو أسبانيا لم يكن غزواً عسكريا ، لقد كان عدد سكان أسبانيا فى ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب

فى الأرض الأسبانية على سبعين ألفا ، وإنما لعب التفوق الحضارى دوراً حاسماً .

فى هذا الوقت الذى لم تكن فيه أوربا قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة كان الخليفة المأمون يفتتح فى بغداد بمساعدة جيش من المؤلفين والمترجمين مكتبة ضخمة فى دار الحكمة ، وكان الحاكم هو أحد الخلفاء الأمويين يمتلك فى قرطبة مكتبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد ، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم ـ أى العالم ـ إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون .

لقد سعى العرب وهم يبنون إمبراطورية تجارية كبرى إلى التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الأمام بتأثيرهم .

كما أن الجغرافيين والفلكيين العرب الذين كلفوا برسم الخرائط الضرورية لإدارة مملكتهم قد أخذوا بعين الاعتبار كروية الأرض فى الوقت الذى كانت الكنيسة المسيحية تنكرها .

ولئن أذهلت ريادات ماركوبولو الغرب فإن من الثابت أن مؤلفا عربياً تحدث سنة ٨٣١م أى قبل ماركوبولو بأربعمائة وخمسة وعشرين سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون ، بل بلغ كوريا واليابان ، وقد وضع مسلم يسمى أحمد بن ماجد فى الوقت ذاته كتاباً فى الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين ، وسيفيد منه البرتغاليون باعتباره أساس دراساتهم البحرية فى عهد هنرى الملاح الذى يمثل بالنسبة إلينا نحن الأوربيون قمة فن الملاحة .

وكانت للعرب منجزات علمية فى حقول المعرفة من الحساب والرياضيات إلى الكيمياء والطب وكذلك العلوم الإنسانية وعلى رأسهم ابن خلدون الذى اكتشف نظريات فائض القيمة بالاستناد إلى العمل قبل الاقتصاديين الأوربيين الذين لم يستطيعوا الانعتاق من النظريات التجارية فى القرن الثامن عشر .

لكل هذا يؤكد رد عصر النهضة الغربية إلى ما نقلته أوربا من منجزات الشرقيين من عرب وصينيين وغيرهم .

ولكن الغريب والمدهش حقا هو ذلك التجاهل الذى ظل مسيطراً على كتابات

المؤرخين العلميين الغربيين لتلك الإنجازات والإسهامات الشرقية فى تاريخ العلم والتكنولوجيا طوال القرون السابقة باستثناء جورج سارتون فى كتابه الشهير: (تاريخ العلم) ، فقد درج الغربى دائما على أن يصور للناس أن التاريخ هو تاريخ غربى محض وأن الغرب هو صانع ومبدع كل المكتشفات السابقة وأن الغربيين لم يتأثروا بأحد ولم يأخذوا شيئاً من أحد وأنهم صانعو التقدم فى كل عصور التاريخ الذى يبدأ من اليونان القديم وينتهى إلى سيادة أوربا وأمريكا .

* * *

أكد جارودى فى كتابه (حوار الحضارات) عدة حقائق :

أولاً : أن الغرب عرض طارئ .

ثانياً : وهم المعجزة الغربية .

ثالثاً : التفوق الحضارى هو للعرب وقد نقل الغرب عنهم .

ويقول : إنما يدين الغرب بعصر النهضة للغزو العربى الذى عرف كيف يخلق الشروط اللازمة لتفتحه .

ويقول الدكتور مصطفى النشار معلقاً على كتاب صراع الحضارات :

إن إدراكنا لأسباب تفوق الغرب المتمثلة فى التفوق التكنولوجى والعسكرى وصدهما يعنى ضرورة أن ندرك حقيقة أخرى هى أننا فى صراعنا مع الغرب لسنا فى صراع مع حضارة سائدة بمقومات حضارية حقيقية مثل التقدم الأخلاقى والدينى والاجتماعى ، بل بمقومات مادية تكنولوجية تسير بالبشرية إلى الفناء ولا تتجه بها إلى التعمير والبناء ، وذلك يعنى ببساطة أننا أمام مدنية متحكمة ولسنا أمام حضارة متفوقة .

يقول جارورى : إن نمط التطور الذى تمر به الحضارة الغربية فى مجال التقدم الصناعى إنما يقود البشرية إلى طريق مسدود .

إنها حضارة تحمل الإنسان إلى العمل والاستهلاك ، إنما هى حضارة مؤهلة للانتحار : إنه انتحار فقدان الهدف ، ويشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر فى المجتمع الأغنى وهو انتحار لإفراط الوسائل .

ويبرهن على ذلك النضوب المتنامى للمصادر الطبيعية فى التلوث ، والخلاصة أن التطور الصناعى ونمط النمو الذى تقيس به المدنية الغربية : ذلك التطور إنما يؤدى بالحضارة الغربية إلى الانتحار ويقود البشرية معها إلى طريق مسدود .

إن معيار القياس فى الغرب هو معيار الكم الربحى ، إن المعيار الاقتصادى المادى الذى لا يعنيه الإنسان فى ذاته ولا يشير ولا يأخذ فى الاعتبار حياته الاجتماعية أخلاقه ودينه وصحته النفسية وانفعالاته .

هذا المعيار الكمى وحده فى قياس التقدم ، هو الذى أفقد تلك الحضارة وحولها إلى مدنية بلهاء لا ترى فى الإنسان شيئاً سوى عمله المادى ونتاجه ، هذا العمل المادى من ثروات ومخترعات تسهل له الحياة ، وهى فى الواقع تدمرها وتحول مبدعها إلى موجود هامشى لا قيمة له ولا فاعلية .

هذا الإنسان الغربى ـ ونحن معه نسير على نفس الدرب ـ شيئاً ككل الأشياء مات فيه الخيال وانعدمت الرؤية الشاملة ، وتغيرت فيه أحاسيس الرؤية الواضحة والقيمة الأخلاقية ، ماتت فيه العاطفة الأخوية الأسرية والاجتماعية .

لقد فقد الإنسان الغربى المعاصر القدرة على التفكير المجرد الشامل للتجاوز للواقع المادى وماتت فيه القدرة على حب الطبيعة البكر والتأمل فى آفاق الكون الرحب والالتحام بكل ما فيه الحب والعطاء .

إن ما نراه فى كل أنحاء العالم الآن من زلازل وبراكين كانت خامدة منذ قرون وعادت تهز الأرض وتقذف إلينا بحممها ـ إنما هى خير رد من الطبيعة (ومن رب الطبيعة) على ما يمارسه الإنسان الغربى ونحن معه من سلوك همجى تجاهها دون وعى (ترجمة الدكتور مصطفى النشار) إن على الغرب أن يتذكر ما قاله جان جاك روسو الذى دق ناقوس الخطر منذ القرن الثامن عشر حين قال :

إنه بقدر ما كانت علومنا وفنوننا تتقدم نحو الكمال بقدر ما كانت أخلاقنا تفسد ونفوسنا تتعفن ، إن البذخ هو الشر الكبير ، نادراً ما يسير بدون العلوم والفنون .

كان رسو يقصد البيئة إلى أن النمو المتتالى للحاجات البشرية كان شراً وأن تكاثرها الذى لم يكن ضرورياً كان تهوراً كبيراً من قبل البشر .

الفصل السادس

الإسلام بين الشرق والغرب

أولاً : الحضارة :

يتحدث (على عزت بيجوفيتش) الأوربى المسلم أبا عن جد (جماعة البوشناق) عن الحضارة الغربية فيقول :

قال علماء الاجتماع إن الوقت الراهن يتميز بالتزايد المذهل للجريمة فى جميع البلاد ، واعتراف علماء الجريمة الأمريكيون بأن كوكبنا هذا محيط من الجانحين ، فالناس جميعاً بشكل أو بآخر لديهم نزعة الجموح وأنه لا يوجد أمامنا مخرج من هذه الكارثة .

فإن الزيادة فى الجرائم الخطيرة أسرع أربع عشرة مرة من الزيادة السكانية .

إن الدول المتقدمة لديها مشكلات خطيرة فى مجال الجنوح ، فرغم التقدم المادى ، لم تكن الحياة الإنسانية أقل أمناً مما هى عليه اليوم ، وإن مختلف الأشكال من الجرائم من سرقة وغش وفساد تمثل ثمناً عالياً يدفعه الإنسان من أجل وسائل الحياة العصرية والتقدم ، ولقد كشف البحث توسعا مخيفاً فى تعاطى الخمور وخاصة فى الدول المتحضرة ، فقد تضاعف بيع الخمور على مستوى العالم ٥,٥ مرة وتزداد ظاهرة تعاطى الخمور بين النساء والشباب .

(هناك ٤٠٠ ألف مدمن فى إنجلترا أكثر من٨٠ ألفا منهم من النساء) ونصفهن ينتهى بهن الأمر إلى عيادة أو مستشفى للأمراض العقلية ، وتمثل فرنسا رأس القائمة من حيث استهلاك الخمور فى أوربا) .

أما مشكلة الأغنياء فهى الكحول والمخدرات .

وفى السويد هناك واحد من كل عشرة من السويديين هو مدمن للكحول ، أما الغزو البشع للأدب الإباحى فمن المؤكد أن له الجذور نفسها فأكثر الدول تحضراً مثل فرنسا والدانمرك وألمانيا الغربية تحتل المركز الأول فى هذا المجال .

وفى عام ١٩٧٥ كانت الأفلام الإباحية تمثل أكثر من نصف مجموع الأفلام السينمائية (١٥٠ دار للسينما فى باريس مخصصة لعرض هذا النوع من الأفلام) .

ولما كان كل شىء منفذ ومنظم بحيث لا يستطيع أى إنسان أن يغير أى شىء ، فلهذا يحتاج معظم الناس غريزيا إلى الهرب من أنفسهم ليجربوا أنواعاً من الإثارة الرخيصة ، وتجد هذه الحاجة أتباعها فى الأفلام الإباحية ، حتى ألعاب الخط تتلاءم مع تقدمهم فى الحضارة وهذه تتبع الاتجاه العام للرذائل على إدمان الكحول والإباحية والأدب الرخيص الهابط ، أكثر فنون القمار فى العالم توجد فى أعلى مناطق الحضارة (دوفيل ومونت كارلو وماكاردلاس فيجاس) .

ولقد ظهر فى الغرب جيل يائس من الشباب يملك كل شىء ، ولكن يعوزه كل شىء ، أولئك هم الوجوديون أو ما يسمونه بالجيل المهزوم الذين ينشرون فلسفة العبث وهو جيل من القصر المعرضين للانحراف (الهيبز) .

إنها ثورة فى قلب الرخاء كانت مقاومة للأخلاق الاستهلاكية فى المجتمع الصناعى .

يقول آرثر ميلر : إن مشكلة انحراف الشباب لا تنتمى فقط للمدن الكبيرة بل إلى الريف ، إنها ليست مشكلة الرأسمالية فحسب ، بل الاشتراكية أيضاً ولا يقتصر ظهورها على الفقر فقط ، بل مع الثراء كذلك ، إنها ليست مشكلة عنصرية أو مشكلة هجرة ، إنها نتاج التكنولوجيا التى دمرت الإنسان كقيمة فى ذاته .

وباختصار لقد اندثرت الروح وتلاشت ، ربما طردتها من الأرض وحشية الحربين العالميتين ، أو أن العملية التقنينية قد افتضتها من الآخرين فلم يبق أحد منهم .

إننا إذا اقتصرنا على سلم القيم السائد فى هذه الحضارة فلن تجد قيمة أخلاقية واحدة يمكن أن تسد الطريق أمام غزو الإباحية أو تقاوم انتشار الخمور .

إن الحضارة الأمريكية لا يمكن دحضها من داخلها وإنما فقط من خارجها بواسطة الثقافة ، ومن وجهة نظر الحضارة لا يستطيع العلم أن يتراجع نحو الدين أو تنزاح الحضارة إلى الأسرة التقليدية ، فالدائرة محكمة الإغلاق ، وتنفرد السويد بالرقم القياسى فى الانهيار العصبى والأمراض العقلية ومدمنى المخدرات بينما تقف على رأس العالم من حيث الدخل القومى .

وتزداد وضوحا مع درجة التقدم والتعليم ظاهرة الانتحار فى الجامعات البريطانية وقد جاء جميع الطلبة من أسر ثرية .

ومن الخطأ القول بأن الظواهر المرضية خاصة بالحضارة الغربية ، وإنما الحقيقة أنها تعبير عن الحضارة بحكم طبيعتها فكل ما قيل عن الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا والسويد ينطبق على اليابان .

مما يؤكد معارضة الحضارة للفطرة الإنسانية والطبيعة الإنسانية ، فالفجوة الاجتماعية مثلا كبيرة بصفة عامة فى الدول الكاثوليكية أكبر منها فى الدول البروتستانتية .

وتشير حالات الانتحار والأمراض العقلية إلى وضع معكوس .

إن المادة التى خلق منها الإنسان ليست هى فقط ما كان يعتقد به العلم والبيولوجيا التطورية فى القرن التاسع عشر ، فالإنسان لا يصلح أن يحيا بحواسه فقط كما تزعم المادية ، إن الرغبة التى تتحقق تسبب الألم ، والرغبة المحققة تولد شعوراً بالإشباع ، إن الرفاهية وما يصاحبها من حالات تقلل بل تقضى على الارتباط بأى نظام قيمى ، والحضارة أبعد من أن تمنح لحياتنا معنى ، إنما هى فى الحقيقة جزء من الهراء فى وجودنا .

ويتسأل على عزت بيجوفيتش :

لماذا فشل الغرب فى حل قضية السعادة البشرية ؟

ولماذا ظهرت العبثية والعدمية فى أغنى وأقوى دول الغرب ؟

من الأمور ذات الدلالة أن تأتى الفلسفة التشاؤمية من المناطق الغنية المتقدمة ، وعلى رأس المتشائمين (ابسن ـ هيدجر ـ ميلر ، بايكبت ـ أونيل برجمان ـ كامو) .

لقد ظل العلماء الذين يتتبعون الظواهر الخارجية للأشياء على تفاؤلهم ، أما المفكرون وعلى الأخص الفنانون فهم المتشائمون .

ويظهر لنا التشاؤم وكأنه ملازم للمناطق التى تم فيها القضاء على الأمية وبدخل فردى بمال يبدأ من ألفى دولار فأكثر .

ولقد كانت الفلسفة الإسكندافية فلسفة تشاؤمية إلى أبعد حد منذ نهاية القرن ١٩

وبدء القرن العشرين ، فهل ترى أن المصير الإنسانى مصير مأساوى ولا أمل فيه ، وأن النتيجة النهائية لجميع مساعى الإنسان والوجود الإنسانى بأسره ظلام وضياع ؟.

إنه لمن السخرية بمكان أن تظهر مثل هذه الفلسفة فى بلاد قد تخلصت من الأمية .

والسؤال هو هل هناك علاقة بين التأمين الاجتماعى فى السويد ، وفيه أفضل نظام تعليم فى العالم ، وبين الشعور باليأس من الحياة ؟ وهل مشاعر الاستمتاع المادى تولد شعوراً بالتعاسة الروحية .

إن مسرحيات العبث هى الصورة الحقيقية للحياة الإنسانية فى أكثر المجتمعات تقدما اليوم .

أما الرفاهية فهى الصورة الخارجية بينما العبثية هى الصورة الجوانية للحياة ، فإذا عبرنا عن هذا الموقف تعبيراً جدليا نقول :

كلما زادت الرفاهية والرخاء كلما تعاظم الشعور باليأس والخواء ، وعلى عكس ذلك يمكن أن تكون المجتمعات البدائية فقيرة تتفاقم فيها الاختلافات الاجتماعية الحادة ، ولكن كل ما نعلمه عنها يشير إلى حياتها بمشاعر قوية خصيبة .

إن مشاعر الاستياء والقنوط مجهولة تماماً فى المجتمع الفقير .

* * *

إن المسرح اليوم هو الذى ينكشف فيه للعالم الحاضر مأساته الإنسانية والمسرحيات الجادة تبعث التشاؤم ، وما يزال المسرح يمزق هالة الكمال الزائف التى وضعها العلم فى وجه الحضارة حيث يتدخل العلم عنوة ببياناته عن وفرة السلع ومعدلات الإنتاج بينما تشير الفنون إلى الضياع الإنسانى والبؤس الفكرى والأخلاقى والعنف والوحشية والخواء النفسى فى قلب الثراء والقوة للعالم المتقدم .

وحين يكشف المسرح إنساناً بائساً عنيفاً تطوقه النفس اللوامة ، يتبين أن العالم لا يسير فى طريق الإنسانية ، وإنما فى طريق اغتراب الإنسان واستلاب إنسانيته ، وقد تزامنت ظاهرة انتحار الروائيين والكتاب اليابانيين مع المأساة المتواصلة التى تواجهها الثقافة اليابانية خلال سبعين عاماً من اختراق الحضارة الغربية والأقطار المادية للثقافة اليابانية التقليدية .

وستبقى الحضارة فى نظر الشعراء وكُتَّاب المسرح وجهاً (لا إنسانيا) وخطراً على الإنسانية .

إن جميع ممثلى الثقافة يعتقدون بفشل الإنسان وهزيمته فى الحضارة ، قال مالرو : إن أوربا التى دمرت ولطخها الدمار هى التى دمرت الإنسان ولطخته بالدماء وهى تظن أنها تخلقه .

وقال بول فاليرى : هناك أمر يحتضر فى ثقافة أوربا وفى معرفتها لم يستطع أن ينقذ أى شىء ، وهناك عالم مطعون حتى الموت فى طموحاته الأخلاقية ، وقد دنسته تطبيقاته الوحشية والمثالية التى شقت طريقها يوماً بين الصعاب ، ونراها اليوم وهى تتعذب أشد العذاب وهى تسأل عن أحلامها المحلقة وواقعية هجرتها الأوهام مضروبة مطحونة محملة بالجرائم والخطايا يسمى هذا كله (سخرية العدمية وفلسفة العبث) .

وتتحدث فلسفة العبث عن عالم بلا منطق ، عن فرد منقسم على نفسه ، تعبيراً عن مقاومة الإنسان عدم رضاه عن العالم ما يسمى (التمرد على الحضارة ذات البعد الواحد) .

ثانياً : الإسلام :

ويتحدث على عزت بيجوفيتش (المسلم الأوربى سليل البوشتاق) عن الإسلام فى العصر الحديث فيقول :

كلما نمت معرفتنا عن العالم تزايد إدراكنا بأننا لا يمكن أن نكون أسياد مصائرنا حتى مع افتراض أعظم تقدم ممكن للعلم ، فإن مقدار ما سيكون تحت سيطرتنا من عوامل لا يساوى شيئاً إذا قورن بالكم الهائل من العوامل الخارجية عن هذه السيطرة .

إن حجم الإنسان لا يتناسب مع حجم هذا الكون الفسيح ، وعمر الإنسانية كلها ليس وحده مقياس ما يجرى فى هذا الكون من أحداث .

وهذا هو سبب ما يعترى الإنسان من شعور دائم بالخطر وما ينعكس على نفسيته من حالات التشاؤم والتمرد واليأس واللامبالاة أو التسليم لله تبارك وتعالى أو التمرد : إجابتان

مختلفتان للسؤال نفسه ، إن الاعتراف بالقدر والتسليم لله هو ضوء بالغ يخترق التشاؤم ويتجاوزه ، التسليم لله تبارك وتعالى فى حد ذاته قوة جديدة وطمأنينة جديدة .

إن الإيمان بالله والإيمان بعنايته يمنحنا الشعور بالأمن الذى لا يمكن تعويضه بأغلى ثمن ولا يعنى التسليم لله سلبية فى موقف الإنسان كما يظن كثير من الناس خاطئين .

إن طاعة الله تسبق طاعة البشر والخضوع لهم . إنها صلة جديدة بين الإنسان وبين الله (تبارك وتعالى) ومن ثَمَّ بين الإنسان والإنسان .

إن التسليم لله تبارك وتعالى هو المخرج أمام كل ما نجهل من كل الأزمات ، والرضا بأمل الله ، وهو السلام الكامل .

فالتسليم لله تبارك وتعالى هو الحكمة التى تخفف شعور الإنسان بالألم .

﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . [سورة البقرة : الآية ١١٢]

* * *

أما الإسلام فهو وحدة ثنائية القطب .

لقد أخفق الفكر الأوربى لكونه أحادى النظرة .

إن الفهم الكامل لتاريخ الإسلام لا يتم إلا بالفهم لتاريخ الفترة اليهودية المسيحية ، إن تاريخ اليهودية هو تاريخ التطور التجارى للعالم ، وأول ما ظهرت العلوم الذرية كانت معروفة بالعلم اليهودى ، ويمكن أن يوصف علم الاقتصاد السياسى بالصفة نفسها ، وليس من قبيل المصادفة أن يكون ألمع الأسماء فى علوم الطبيعة النووية والاقتصاد السياسى والاشتراكية جميعاً من اليهود .

كذلك فإن « المادية » يهودية ، والمادية اليهودية هى التى لفتت العقل الإنسانى خلال التاريخ اليهودى إلى العالم وأثارت الاهتمام بالواقع الخارجى .

* * *

إن أبرز معالم الإسلام أنه يقرر محاربة الشر ودفع الظلم ويضع قواعد سياسية واجتماعية ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾ [سورة الشورى : الآية ٣٩] ومن قرأ آراء هيجل وشبنجلر وفرسيا اليادى يخلص إلى أن النبى محمداً ﷺ يقف فى البؤرة للتوازن التاريخى .

إن أكبر خطأ وقع فيه المسلمون هو أنهم شطروا وحدة الإسلام وتمسكوا بالجانب الدينى فقط (وحولو الإسلام إلى دين مجرد) ، وأهدروا وحدته وخاصيته التى ينفرد بها عن سائر الأديان وهو تكامله الجامع بين الروح والمادة .

وتعنى الثنائية عنده : إن كل عمل إسلامى له جانبان :

مادى وروحى أو نفع مادى ونفع روحى .

إن الصلاة فى الإسلام باطلة دون الوضوء ، فى الأديان الأخرى يمكن الصلاة مع وجود (القذارة المقدسة) التى عرفتها نظم الرهبنة النصرانية والهندوسية القائمة على إغفال البدن والإهمال المتعمد .

والصلاة ليست تأملا صوفيا بل نشاطاً عمليا وفى الأديان الأخرى يعتبر البدن خارج الاعتبار ، أما الإسلام فإن الله يحب المتطهرين .

يقول فوق كرامر : إن العرب (المسلمون) هم الأمة الوحيدة خلال القرون الوسطى الأولى التى استطاعت فى تطويرها للقانون أن تحقق إنجازات باهرة : هذه الإنجازات تقف بعظمتها مباشرة مع الأعمال التى حققها الرومان صناع القانون فى العالم .

ويتحدث على عزت عن أن إمكانية تطبيق الدين المجرد فى هذه الدنيا أمر محكوم عليه بالإخفاق ، وإن المثل الحاسم فى ذلك هو الإخفاق التاريخى للمسيحية وأنه لكى تفهم المسيحية وتدرك تطورها التاريخى لابد أن تميز بين أمرين مختلفين : بين حياة عيسى عليه السلام وبين تاريخ المسيحية ، فمن البداية الأولى كان عيسى عليه السلام فى ناحية والمسيحية فى ناحية أخرى ، وتحول الخلاف بمرور الوقت إلى خلاف بين الإلهى والإنسانى.

* * *

لقد قدم القرآن حقائق كثيرة فى الطبيعة ويدعو إلى الاستجابة لها :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ [سورة البقرة : الآية ١٦٤] .

حيث لا يظهر فى آيات القرآن أى أثر لما يسمى الصراع مع الطبيعة ، فالإسلام يبرز ما فى المادة من جمال ونبل .

كذلك حل الإسلام مشكلة الحرية الجنسية الكاملة بعيداً عن الزنا والطلاق أبغض الحلال عند الله .

وفى الإسلام الزكاة والصدقة (الزكاة فريضة والصدقة تطوع) ، فالإسلام يحول العبادة إلى عمل مرتبط بالمال والإنفاق .

والصوم ليس مجرد مسألة شخصية تخص الفرد وحده وإنما هى التزام اجتماعى ، أما الحج فيجعله الإسلام تجمعا سياسيا واقتصاديا ويضع الإسلام الحدود : ويقرر أن الخوف من العقاب هو بداية الأخلاق ، كما أن الخوف من الله تبارك وتعالى بداية لحب الله تعالى .

كذلك فقد قدم الإسلام (القرآن) حقوق الإنسان ووحدة الهوية بين القانون والدين ، والقانون نتاج طبيعى للدين فليس هناك انفصال بين الدين والقانون .

إن الطريقين الذين سار منهما الغرب قد أعلنا فشلهما وإفلاسهما ، ومن هنا فإن العالم العربى يبحث عن طريق ثالث وسط بين هذا ، وذاك الطريق الثالث خارج الإسلام .

فالإسلام يتضمن رفضاً واعياً للمسلمات الدينية والاشتراكية أحادية الجانب ، وينطوى على تسليم إرادى بمبدأ الثنائية .

إن الأخلاق فى الإسلام لا يمكن أن تخضع لمعايير المنفعة ، وإن الإنسان المستقيم بحق هو الذى يقدم على التضحية ، وإذا واجه الإغراء ثبت على إخلاصه للمبادىء لا للمصلحة ، فالأخلاق نبع من منابع الدين .

* * *

الفصل السابع

الغرب يستكشف الإسلام من جديد

لقد حرص الغرب أن يضع الإسلام فى دائرة الصمت سنوات طويلة دون الاعتراف بدوره الرائد فى بناء أساسيات العلم التجريبى والحضارة المعاصرة .

وفى الوقت الذى كانت مؤتمرات فقهاء القانون تنعقد فى العواصم الغربية وتعترف بالإسلام كنظام عالمى مستقل وبالشرائع الإسلامية كقانون متميز صالح للبشرية ، كلما كانت أقلام عملاء الغرب فى بلادنا تحمل على الشريعة الإسلامية وتصفها بأنها شريعة صحراوية .

ولكن أقلام منصفة كثيرة كتبت وهزت كتابتها بعض القلوب والعقول ، وكان لدخول عدد من مثقفى الغرب ونوابغه فى الإسلام أبعد الأثر فى تشكيل هذه الظاهرة الجديدة .

* * *

ظاهرة استكشاف الغرب للإسلام من جديد

ولكن ما تزال هناك قوى الصهيونية العالمية وبقايا فلول الماركسيين تعمل على حجب الإسلام عن الغرب ، موقدة بنيران الخلاف والخصومة والصراع وتحول دون تمكن الغرب من النظر إلى الإسلام نظرة منصفة .

ولقد عنى المؤرخ فيشر فى كتابه (تاريخ أوربا) على الغرب عدم قدرته على التجرد والنظر الموضوعى للإسلام تحت تأثير الخلف القديم .

كما ينعى عليه (ظاهرة العجز عن التعامل السديد مع المشكلات والأزمات على الرغم من المآسى والتجارب المريرة التى عاشتها البشرية والتى كان ينبغى أن تكون مصدراً للعبرة العميقة الحافزة على الخروج من دوامة تكرار الأخطاء وإعادة تمثيلها على المسرح مع تحوير

فى الشكل والصورة كما أشار إلى ظاهرة عدم الاستفادة من التقدم العلمى والتقنى فى تحسين مستويات العلاقات الدولية .

ويرجع هذا فى الأصل إلى سبب خطير ، هو أن مصادر الحضارة الثقافية والتكنولوجية وقيادها هى فى يد اليهود أساساً الذين لا يريدون أن يأخذ الإسلام مكانه الطبيعى ولا أن يكون لشريعته الأثر العامل على بناء حضارة إنسانية ذات مصدر ربانى ، وإنما هم دائما وراء عوامل التدمير والتحلل التى أودت بالحضارتين اليونانية والرومانية .

ولكن علماء الغرب المنصفين يعلمون أن عاملى الترف والتحلل الخلقى هما الخطرين اللذين يعجلان بسقوط حضارة الغرب ، وذلك فى تقدير علماء الغرب المنصفين أنفسهم وهم يقدرون ذلك قياسا على سقوط الحضارتين السابقتين وسقوط حضارات كثيرة على مدى التاريخ عندما أصابها العلم بغياً بينهم وقالوا (إنما أوتيته على علم) منكرين الحق تبارك وتعالى مصدر العطاء الحقيقى والذى ألهمهم هذا العلم الذى استطاعوا عن طريقة تذليل المعطيات وامتلاك الثروات مستعلين على الناس ، مندفعين فى استهلاك مصادر الثروة غير قائمين بالعدل والإخاء منكرين فضل ذوى الفضل .

بينما نحن المسلمون نؤمن بمصدر الثروات الحقيقى ، وهو الحق تبارك وتعالى ونؤمن بالالتزام بأخلاقية الحضارة والمجتمع ونؤمن بالإخاء الإنسانى والمسئولية الفردية ، ولا نحمل فى قلوبنا غلا للذين ظلموا على مدى التاريخ ولا نفكر فى الانتقام منهم ودورنا فى الحروب الصليبية واضح وكيف سمح صلاح الدين بعد النصر لغير القادرين بالخروج وألزم أصحاب المراكب بحمل العائدين إلى بلادهم .

ويتحدث كثير من كتَّاب الغرب ومفكريه ومن المستشرقين عن ما يسمونه انحطاط بلاد الأمة الإسلامية ، ويرونه هو المصدر الحقيقى لتأخر المسلمين وعدم قدرتهم على تحقيق التقدم متجاهلين المصادر الحقيقية لهذا التراجع والتخلف الذى يتوقف مصدره الأصلى على تلك القيود والسلاسل التى يقيدون بها حركة الاقتصاد الإسلامى بحيث لا يستطيع أن يحقق القدرة على النمو والامتداد وهم يسمحون لكل العناصر أن تنمى ثرواتها (الصين واليابان) وكل العناصر ، ولكن لا يسمحون أبداً للمسلمين أن يحصلوا على مثل هذه الفرصة .

ولايمكن أن نجد قلما أشد إنصافا فى وصف موقف الغرب من الإسلام من قلم أيريك فردم فيما يروى الدكتور محمد عصفور :

إن المفكرين الغربيين الشرفاء يتهمون الغربيين جميعاً بأنهم برابرة ووثنيون وأنهم يوظفون الدين فى ارتكاب أشد الجرائم مناهضة للإنسانية ، يقول إيريك فردم أدق المحللين النفسيين فى تعرية عدوانية الشخصية الغربية ووحشيتها ورفضها المثل الأعلى المسيحى فهو يقول :

والحق هو أنه لو كان التاريخ الأوربى قد استمر محافظاً على روح القرن الثالث عشر الميلادى ولو أن روح المعرفة العلمية والفردية نمت نمواً وثنيا وعلى نحو تطورى لكنا اليوم أسعد حالاً .

ولكن العقل أخذ يتدهور فى نوع من الذكاء الشرير ، كما تدهورت الروح الغربية إلى الأنانية وانتهت فترة التنصير القصيرة وعادت أوربا إلى وثنيتها الأصلية .

فالتاريخ الأوربى الأمريكى (الشمالى) على الرغم من اعتناق المسيحية ليس إلا تاريخ الغزو والأبهة والتكبر والجشع .

وأعظم قيمنا هى أن نكون أقوى من الآخرين وأن نغزوهم ونقهرهم ونستغلهم ، وهذه القيم تتطابق مع المثل الأعلى للرجولة ، فليس رجلا إلا من كان قادراً على القتال والغزو والقهر .

وأى شخص غير قادر على استخدام العنف إنما هو شخص ضعيف ، أى ليس رجلاً ، لسنا بحاجة إلى إثبات أن تاريخ أوزبا هو تاريخ الغزو والاستغلال والقوة والإخضاع والقهر ، ولا تكاد توجد فترة أو مرحلة من التاريخ الأوربى إلا كانت هذه سماتها ، لا نستثنى من ذلك طبقة أو جنسا ولا توجد جريمة إلا ارتكبت بما فى ذلك عمليات الإبادة الجماعية لشعوب بأسرها ، كمثل ما حدث للهنود الحمر ، حتى الحروب الصليبية التى جعلت من الدين ستاراً لها ولم تكن (استثناء) فهل كان الدافع لهذا السلوك اقتصاديا أو سياسياً فحسب ، هل كان تجار العبيد وحكام الهند وقتلة الهنود الحمر والبريطانيون الذين أجبروا الصينيين على فتح أبواب بلادهم لتجارة الأفيون ومثيرو حربين وأولئك الذين يحضرون

لحرب عالمية ثالثة ، فهل هؤلاء مسيحيون مؤمنون حقاً أو ربما كان القادة وحدهم هم الوثنيون المتوحشون بينما الأغلبية الساحقة من الناس العاديين ظلوا مسيحيين ؟ لو كان الأمر كذلك لهان ، ولكنه لسوء الحظ ليس كذلك .

من المؤكد طبعاً أن القادة كانوا غالبا أكثر جشعاً وضراوة من الأتباع ، حيث كانت فظاعتهم وأسلابهم أكبر ولكنهم ما كانوا يستطيعون تحقيق أهدافهم لو لم تكن شهوة الغزو الأبيض جزءاً من مكونات الشخصية الاجتماعية .

يكفى أن نستعيد إلى الذاكرة ذلك الحماس الجنونى المتوحش الذى شارك فيه الناس فى مختلف الحروب أثناء القرنين المنصرمين واستعباد الملايين للإقدام على الانتحار القومى من أجل الدفاع عن الظهور بمظهر أقوى فى العالم أو بدعوى الدفاع عن الشرق أو المكاسب . أ هـ .

وما لم يذكره قروم هو تسخير الدين المسيحى حتى اليوم وغداً فى كل حرب استعمار وإبادة حيث تخرج الجيوش باسم الرب ومباركته وببركة المسيح كما تسخر المسيحية لتبرير الرق والاستعمار .

هذه شهادة غربى منصف .

أما برجنسكى (مستشار الأمن القومى الأمريكى) فإنه تنبأ فى كتابه السقوط العظيم بانهيار الشيوعية ، أما فى كتابه (أفول الحضارة الأمريكية والغرب) فإنه يتنبأ بانهيار أمريكا والغرب .

ويرى أن الأزمة المقبلة هى أزمة الديمقراطية الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة التى تتبع خط (كل شيء مباح) داخل المجتمع الأمريكى ذاته ، حيث يسود نظام يسعى فيه المجتمع إلى تحقيق ما يريدونه دون اعتبار لمصالح المجتمع الفارق بين الخير والشر دون اعتبار لأى رادع دينى وأخلاقى ، ويحذر برجنسكى الغرب بضرورة تعديل أساليبه وطرائقه وإلا انتظره مستقبل العصور البدائية الأولى ، فهو يصور العالم كطائرة يوجهها طيار تتزايد سرعتها على نحو مستمر دون أن يكون لها وجهة محددة ، فالافتقار إلى وجود نسيج أو كيان أخلاقى وخلقى وفلسفى يعمل على سرعة تجريد الطيار البشرى من أهليته ولا يوجد طيار يوجه الطائرة حتى الآن سوى الولايات المتحدة .

ويتمثل موضوع الكتاب فى نواح متطاول يتحسر فيه على جشع رفاقه وأنانيتهم ، ويرثى فيه عدم قدرة الغرب المستمرة على كبح جماح نفسه .

ويقول : ما شهد القرن الحالى الآن من فجر تقدمه الكاذب بمحاولات النازيين والشيوعيين لترسيخ بطل اشتراكى شامل أدت إلى بؤس لا مثيل له .

ولا تزال معظم دول العالم تناضل جنباً إلى جنب مع الأعمال الأساسية للبقاء واستمرار الحياة فى المناطق المنكوبة ، والأثرياء المتكبرون على إمتاع أنفسهم لا يستطيعون نفى عدم معرفتهم بتفشى مظاهر التضور جوعا أو الفقر فى جميع المناطق المحيطة بهم ولا يقدمون سوى القليل من الفتات لتخفيف ذلك ، ويذهب إلى أبعد من إشكال عدم المساواة فى أنحاء العالم ، وأكثر ما يحزنه هو : ذلك الفراغ الروحى المتفشى فى الغرب وخاصة فى أمريكا فهو يشعر بالأسى لانهيار قوة الدين وأفولها .

ويحمل التلفزيون جزئياً مسئولية الانحراف الثقافى مشيراً إلى أن الزوجة الأمريكية تقضى أربع ساعات فى مشاهدة هذا الصندوق السحرى فهو صارم بشأن العبث بالطبيعة والإضرار بها فضلا عن أنه يشكك فى التكنولوجيا البيولوجية والهندسة الوراثية التى تتيح للناس تغيير صفاتهم أو التحكم فى مصائرهم .

ويركز برجنسكى على الحضارة الأمريكية باعتبارها المرحلة الأخيرة للحاضرة الغربية فيقول : إن عدم وجود قواعد أخلاقية ملزمة من شأنه أن يجعل الولايات المتحدة غير جديرة بقيادة بقية دول العالم .

ويؤكد أن الانهيار من الداخل فى أمريكا ليس له قرين ، فهى تتربع على عرش العالم دون منافسين حقيقيين .

والتحدى الذى يواجهها يأتى من داخلها ، أى من الثقافة الأمريكية التى تفسد أخلاق البلاد محلياً وتعمل على إشاعة الفوضى فيها وتعمل على جذب العالم الخارجى إليها وإفساده وتغريبه .

وعنده أن أمريكا تتعرض بفعل فراغ المحتوى الأخلاقى فى رسالتها ، ويثبت التاريخ أن أية قوة عظمى لا تستطيع أن تحتفظ بهيمنتها وسيطرتها ما لم تتقدم برسالة تهم العالم أجمع .

إن الجشع صفة خطيرة مقررة لكنها ليست الشكوى الوحيدة ضد أمريكا ، ويرجع التراجع إلى العفن الأخلاقى الذى يضرب من قلب الإدارة ، ويقرر برجنسكى أن الجنس البشرى سعى إلى اغتصاب القوة الإلهية وأخذ فى طرح رؤيا أخرى من صنع الإنسان .

إن اليوثوبيا القهرية للرجال الذين يحاولون فرض أو خلق جنة من صنيعهم على الآخرين وتوريثها الأرض المذعورة المروعة ، إنما يعمل على إفساح المجال لقرن الوفرة الذى يرمز إلى السلام .

ويرى برجنسكى أن الدول المتقدمة المنقسمة فى ملذاتها على الإشباع اللحظى والوقتى وجدت فى تحقيق رغباتها وشهواتها المادية والحسية والجنسية أكثر حجة وإقناعا لمواجهة كل هذه الأحداث المرعبة ، هى أن الجشع والطمع قد أعميا عيون الأقلية الغنية عن رؤية مآسٍ وآلام الأغلبية الفقيرة .

ويتحدث الكاتب الفرنسى جيليه كيل فى كتابه (ثأر الرب) He Renenge of God عن ظاهرة عودة البشرية إلى الأديان ويتساءل : لماذا العودة إلى الدين ؟ المعنى بالطبع هو العودة إلى الأصول أو الترجمة المعاصرة للأصول كما يراها هذا الجيل الحالى وهى ظاهرة غالبة فى كل الأديان ، ويرى (جيليه) أن أهم قضايا العصر الفكرية والسياسية هى : الحيرة التى يواجهها الإنسان بعد أن بلغ ذروة الحضارة ، فهى إن كانت قد أغنته ماديا فإنها تركت فى روحه فراغا شديدا : ذلك هو الفراغ القلبى من ناحية الإيمان بالله تبارك وتعالى .

ونقول : إن ظاهرة العودة إلى الدين قد اكتشفت زيف القيم المادية والروح الفردية نتيجة المعاناة والصراع الاجتماعى .

واحتجاب عوامل العدل والمرحمة والإخاء بين الناس .

وذلك بعد أن تكشف أن التنوير الغربى لم يكن فى حقيقته إلا رفضاً كاملا للدين بوصفه ظاهرة أساسية لا سبيل إلى جحدها أو إنكارها أو تجاوزها .

كما تبين أن العلمانية كانت تستهدف حجب الدين المنزل عن تحقيق وجوده بالنسبة للإنسان الجامع بين المادة والروح والعقل والقلب ، فكان الاندفاع نحو المادة وحدها هو العامل الأساسى فى انحراف المجتمعات وأزمات الحضارة ، وقد تبين أن الاستعلاء الفردى لا يحقق سلامة المجتمع ولا طمأنينته .

الفصل الثامن

وجوه الخلاف والتباين بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب

هذه مجموعة من الحقائق تضىء الطريق إلى فهم أمانة الحضارة الإسلامية للبشرية .

أولا : فهى الحضارة الربانية الوحيدة التى قدمت .

١ ـ منهج الإيمان والتوحيد .

٢ ـ وأخلاقية المجتمع والحضارة .

٣ ـ وربطت الوحى والعقل فى منهج المعرفة .

٤ ـ كما عملت على بناء الفرد قبل بناء الجماعة .

فالقرآن كما يقول (على عزت بيجوفتش) يعالج بناء الإنسان ، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره ، كما يعالج بناء المجتمع الإنسانى الذى يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام الطاقات المدخورة فيه .

ويقول كلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجود وسره وانكشفت لنا آياته وجناياه ، أحسسنا أن عظمة المبدع الماجد فوق ما يطيقه وعينا المحدود ، وأن التحية التى تقدم لهذا الإله الجليل هى الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يبهر السنا المتألق عيون الناظرين ، ذلك أن درسا فى الطبيعة والكيمياء هى صلاة خاشعة ، وأن سياحة فى عالم الأفلاك هى تسبيح وتحميد ، ويركز علماء الإسلام على إبراز معالم الحضارة الإسلامية ، وهى علاقة الإنسان بخالق كل شىء ، مرتبطة بعلاقة الإنسان بالكون وما فيه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان منفرداً أو مجتمعاً فى ثلاث علاقات .

فالدين يفرض علينا البحث عن المعرفة الفطنة والتعرف إلى مواطن الجمال وحسن استثمار الكون والمحافظة على البيئة .

وعماد علاقة الإنسان بالإنسان التعامل القائم على الاحترام والمودة والصدق والقيم الأخلاقية المعروفة .

« **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » .

ويقرر على عزت بيجوفتش ما يسميه ثنائية الإسلام : بمفهوم أن الوحدة ثنائية القطب التى تضم فى مركب واحد القضيتين : الروح والمادة المنفصلتين المتصادمتين عند الغرب .

هذا إلى ربط العلوم والفلسفات ربطا وثيقاً بالهدى السماوى الذى جاء به الإسلام فالإنسان هو الحيوان الكامل ابن الطبيعة ويبقى دائما جزءاً منها .

والإنسان نظام كغيره من النظم فى الطبيعة ويخضع بدوره لقوانين الطبيعة الحتمية العامة وهو نتاج بيئته وعمله .

وهنا يأتى خطأ (نظرية دارون) ومقولة أن الإنسان مادة .

أما الحياة والضمير والروح فلا وجود لها ، وبالتالى فليس هناك جوهر إنسانى فليس الإنسان مفصلا على طراز دارون وليس الكون مفصلا على طراز نيوتن .

أما خطأ الغرب الأكبر فهو مفهومة بأن الدين تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله تبارك وتعالى وهى علاقة تعبر عن نفسها فقط فى عقائد وشعائر يؤديها الفرد ولا يمكن تصنيف الدين بهذا المعنى فالإسلام أوسع من هذا التحديد ، لأنه يحتوى الحياة كلها .

إن اعتقاد الإنسان فى الغرب وخوفه الدائم من المجهول وشعوره بالغربة يرجع إلى تجاهله بأمر الدين الذى يبعث فيه الأمن والثبات واليقين ؛ إن علم الحفريات وعلم هيئة الإنسان وعلم النفس كلها تصف من الإنسان الجانب الخارجى الآلى فقط الذى لا معنى له ، فالإنسان أكبر من مجرد نوعية المادة التى تكونه ، الإنسان أكبر مما تقوله هذه العلوم مجتمعة ، إن المصلحة حيوانية والتضحية إنسانية .

فالمصلحة إحدى المبادىء فى السياسة ، أما التضحية فهى إحدى المبادىء الأساسية فى الدين والأخلاق .

إن المادية تؤكد دائما على ما هو مشترك بين الإنسان والحيوان ، أما الدين فيؤكد على ما يفرق بينهما .

والأخلاق جزء أساسى من ثوابت الدين .

ثانيا : واضح أن هناك تصور للإسلام والفكر الإسلامى يمثل وجهة نظر الغرب فى الإسلام وهو تصور مستمد من مجموعة من المشاعر والأوضاع القديمة التى كانت قائمة بين المسلمين والغرب .

ويجرى خلال سنوات طويلة فرض هذا التصور على مناهج الدراسة ، بحيث تنشأ أجيال المسلمين على تصور مختلف عن الحقيقة أو على فهم لا يستوعب حقيقة العلاقات بين المسلمين والغرب (وتجرى هذه المحاولة اليونسكو والاستشراق والتبشير وقوى أخرى مختلفة) .

بينما أن هناك التصور الصحيح السليم للفكر الإسلامى وللعلاقات التاريخية بين المسلمين والغرب والذى يقدمه الدعاة إلى الإسلام فى محاولة لتأكيد ثقة المسلمين بمنهجهم الربانى الأصيل بعيداً عن الروايات الضعيفة وكتابات عصور التحلل والضعف وغلبة فكر الفرق الضالة كالقاديانية والباطنية وأهل الحلول والاتحاد الذى دخل إلى الفكر الإسلامى أساساً بعد ترجمة الفكر اليونانى فى القرن الثالث والذى اتسع نطاقه فى العصر الحديث حين لم يتمكن المسلمون من تقديمه داخل تصورهم الصحيح .

ومعنى هذا أن هناك :

١ ـ فكر الفرق الضالة .

٢ ـ فكر اليونان القديم الذى ابتعثه طه حسين فى الجامعة حين فرض تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية على الطلاب وترجمة آثار الفكر اليونانى ويحتل كتاب (مادة الفكر) هذا الاتجاه ، فهم وحدهم عظماء الفكر اليونانى بوصفهم هم الذين قادوا الفكر جميعاً .

ومن ذلك مقولته المسمومة بأن الإسلام لم يغير العقلية المصرية ، فقد كانت عقلية يونانية أساساً .

ثالثا : إن محاولة الغرب كلها منذ بدأت حرب الكلمة التى دعا إليها القديس لويس بعد هزيمة الغرب فى الحروب الصليبية فى محاولة خطيرة لإخراج المسلمين من ذاتيتهم وهويتهم وانتمائهم الإسلامى الأصيل ، وذلك باحتوائهم فى مفهوم الفكر الغربى الذى شكلته الفلسفة المادية بعد انهيار ارتباطه بالدين أساساً .

وما كانت حركات التبشير والاستشراق والتغريب إلا بهدف تحقيق هذا الغرض البعيد المدى وما كانت الدعوة إلى الإقليمية والقومية والماركسية إلا محاولة فى هذا المنطلق .

ولقد كانت حرب المسلمين للغزو الفكرى على مدى العصور وفى القرنين الأخيرين منذ الحملة الفرنسية ، هى محاولة لاقتلاع هذه الأمة من جذورها على نحو يجعلها تنصهر فى بوتقة الحضارة الغربية .

رابعاً : إن الكفر الغربى منظومة فكرية وعقديه أساسها :

تأليه الإنسان واعتباره فرداً أو جماعة هو السلطة العليا ، ولا سلطان على الإنسان لغير الإنسان وهو التصور الذى قاد الحضارة إلى فرض الصراع على بنى الإنسان وجسدت هذا المنطلق الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التى ظهرت فى هذه الحضارة وحكمت بها شعوب الغرب .

خامساً : يقول دكتور شوكت محمد عليان :

إن معظم حضارات العالم لم تقم على أسس أخلاقية ثابتة بل قامت على أسس نفعية مادية تسير فى ظلها الفواحش والمنكرات ويألفها الجميع ، فيصبح عرفاً سائداً فى مجتمعهم وعادة معقولة فى نفوسهم كشرب الخمر مثلا واعتبار الزنا تكسبا والنهب وأكل أموال الناس بالباطل شجاعة .

أما الإسلام فقد أعطى الحضارة مفهوما آخر .

مفهوما يتسامى على سائر المفاهيم التى سادت عند الأمم ، ففى ظل الإسلام أنواع من الخبرة والمعرفة يستخدمها الإنسان فى تهذيب الغرائز والسلوك وتقديم الاستجابة لها .

وتتلخص النظرة الإسلامية للحضارة فيما يلى :

١ ــ فى مجال تصور الألوهية نجد انحرافاً كبيراً فى العقيدة لدى كثير من الأمم يتمثل ذلك فى الشرك بالله تعالى والتشبيه والتمثيل ببعض مخلوقاته .

مفهوم الله تبارك وتعالى الواحد الذى ليس كمثله شىء ﴿ **قل هو الله أحد**﴾ [سورة الإخلاص : الآية ١] رب العالمين وليس أبا للعالمين .

٢ ــ فى مجال النظر إلى الكون يقرر الإسلام أن الله تبارك وتعالى خالق الكون وما فيه

وأنه تعالى وحده المتفرد المتصرف فيه وأن الجميع يخضع لإرادته ومشيئته .

وإن العلم لم يخلق النظريات أو المادة ولم ينشئها ابتداء ، وكل ما عمله الإنسان أنه اكتشف هذه النظريات والقوانين العلمية واستخدمها بحسب أنظمة الله تبارك وتعالى فى الكون ، فالله خالق كل شىء ومالك كل شىء ويعلم كل شىء وواهب كل شىء والإنسان مهما بلغت قوته وعظمت سطوته ومهما قهر من قوى الطبيعة وسخرها لمشيئته فهو عبد الله ، وقد أنعم الله تبارك وتعالى عليه بكل شىء ، فهو مستخلف فى الأرض لعمارتها وعبادته وحده تعالى .

﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾ [سورة الحج : الآية ٦٥] .

٣ ـ فى ظل مجال العلوم دعا الإسلام الإنسان إلى النظر والتأمل والتفكير والتدبير .

﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ . [سورة يونس : الآية ١٠١]

ودعوة القرآن إلى إيقاظ العقل وحسن النظر وإعمال الفكر ، وإذا سلم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله تبارك وتعالى وأن السموات السبع هى لله ، وبأن ملكوت كل شىء لله فهو المدبر له وحده ، وهو الذى يجير بقوته ولا يجار عليه .

وإذا سلم الإنسان بكل هذا فقد لزمه أن يسلم بالنتيجة التى تؤدى إليها هذه المقومات وهى أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

٤ ـ يصبح الجهاد فى الإسلام صراعا حضاريا بكل المفاهيم :

﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٥١]

﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾ [سورة الأنبياء : الآية ١٨]

﴿ **يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ [سورة الرعد : الآية ١٧]

٥ ـ إن العلم وحده لا يصلح دون عاصم من خلق .

والقوانين واللوائح والأنظمة لا تصلح دون وازع الضمير .

٦ ـ يغلب على حضارة الإسلام الطابع الأخلاقي الذى يلاحظ فى تربية الفرد وتكوين الأسرة وبناء المجتمع وإقامة الدولة وعلاقتها بالدول والأفراد فى السلم والحرب وتنظيم شئون المجتمع فى مجالات الحياة ، أن يعتبر النفوس هو الانقلاب البكر والإصلاح الشامل لكل مجتمع ، وأن القوانين والعقوبات وحدها لا تكفى مهما كانت رادعة قاسية .

إن جهاد النفس والضمير هو الوسيلة الأولى للارتقاء بالإنسان .

سادسا : ليس فى الثقافات الإنسانية والبشرية مقولة أكثر تضليلا من مقولة (عالمية الثقافة والحضارة) التى تعنى شيئاً واحداً هو سيطرة الحضارة الغالبة وقبول الأمم الانصهار فيها والتخلى عن ذاتيتهم وانتمائهم وقيمهم ومقدراتهم ، وإذا كانت هناك أمم قد قبلت ذلك أو فرض عليها ، فإن المسلمين وهم يحملون هذا الميراث الضخم الممتد خلال أربعة عشر قرنا أقدر الناس على مقاومة هذه الدعوى المضللة وهذه المحاولة المنهارة .

وليس صحيحاً ما يدعيه الغرب من أن التمسك بأصالة الهوية والانتماء يحول دون تحقيق التقدم وعلى مدى التاريخ ، وفى تجربة الغرب نفسه مع العلوم الإنسانية لم يحل امتلاك الذاتية الخاصة والدفاع عنها دون تحقيق هدف التقدم .

ولا يعنى الاحتفاظ بالذاتية أو مواجهة التغريب رفضا لحضارة الغرب جملة وتفصيلا ، أو دعوة إلى الانغلاق أو الانكفاء الثقافى ، وفرق واسع وعميق بين التحديث والتغريب .

فالمحافظة على الهوية الثقافية هو حق كل أمة ، فضلا عن الدفاع عنها من عدوان الثقافات الأخرى عليها وهو حق مكفول فى شرائع الأديان وتنظيمات القانون الدولى ، وكان الإسلام أكثر الأديان حرصا على عدم الاعتداء على ثقافات الآخرين ، بل أسهم فى حفظ ورعاية تلك الثقافات من خلال حضارته المتسامحة وعدم إكراه الآخرين على تغيير أديانهم ، وقد عبر السكندر سولجنيسن عن حاجة البشرية إلى ثقافة ذات سلطة أعلى من سلطة الإنسان وقال :

إن الطريق الوحيد نحو تصحيح المسار المادى المنحرف للإنسان الغربى المعاصر هو عودة الإنسان إلى قوة مهيمنة على مصير الإنسان وهى التى تحدد له قيمه ومسئولياته الاجتماعية.

والمعروف أن الثقافة الإسلامية مستمدة من نص ربانى أصيل ، بينما الثقافات الأخرى هى نتاج بشرى وضعى .

والهوية الثقافية لأى أمة ، هى تلك العناصر التى تكون خصائص تصرفات مجموعة بشرية متجانسة نسبياً تنعكس على طرائق العيش وسلم القيم وأساليب الإنتاج .

ويستهدف التغريب اختراق الهويات الثقافية للأمم التى يطالها عدوان ثقافة التغريب .

سابعاً : لخص المفكر الأمريكى : تشوفسكى الاتجاه الحضارى الغربى فى مبادىء ثلاثة :

أولا : سيادة العالم ، وعلى الشعوب والدول أن تكون تابعة لنا .

ثانيا : لا نكتفى بأن نهيمن اقتصاديا على الدول التابعة .

وإنما نرى من الضرورى تدعيم هذه الهيمنه الاقتصادية بإقامة نظم حكم تابعة .

ثالثا : ليس يكفى هزيمة الخصم ، وإنما يجب سحقه ، فإن كان العدو شعبا أو حضارة أو عقيدة فإن الأمر يستدعى استخدام أقسى العقوبة ، وهكذا كان ـ ولا يزال ـ موقف الاستعمار والحضارة الغربية من الهنود الحمر الذين أبادهم المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا ، وما تم فى شأن عبيد إفريقيا الذى هاجروا إلى أمريكا ، وأسلوب السيطرة على سكان أمريكا الجنوبية واستنزاف ثرواتها .

ويتمثل النموذج الحضارى الغربى بأنه يعكس أمانة خصائص حضارة متوحشة معادية للإنسان تؤمن بالقوة وتفوق العنصر ، وهى فى بغضها الشديد للإنسان الضعيف تمارس الإرهاب والعنف والنهب ، ولا تبالى بشرعية ولا قانون أو قيم وهى فى سبيل تحقيق غاياتها.

* * *

الفصل التاسع

نهاية التاريخ ولقاء الحضارات

قضيتان خطيرتان يتحدث عنهما الباحثون وعلماء الحضارة بعد سقوط الشيوعية .

أولا : ما يسمى نهاية التاريخ :

إذا كان للتاريخ نهاية بعد سقوط الماركسية (كما يدعى بعض الباحثين) ، فإن هذه النهاية لن تكون بأى حال : لحساب الحضارة المعاصرة أو الغرب الرأسمالى الليبرالى .

ذلك لأن الأزمات المتصلة بالغرب لا تقل خطورة عن الأزمات التى أودت بالماركسية والنظام الشيوعى أساساً ، هذا فضلا عن أن الماركسية التى سقطت لم تكن جرما مستقلا وإنما كانت قطاعا من تجربة كاملة هى الحضارة الغربية .

وقد جاءت الماركسية كرد فعل للتجربة الرأسمالية اليبرالية أساساً ، غير أن السبب الذى عجل بسقوط الماركسية هو عجزها عن التحرك والتطور ودخولها مرحلة القداسة التى حاولت أن تجعل منها نظاماً قريباً من نظام الأديان ، أما الغرب فإنه بالرغم من الأزمات والضربات التى وجهت إليه فإنه ما زال قادراً على تغيير المواقف والتحرك فى سبيل الخروج من الأزمات .

ومن هنا فنحن بشهادة الغربيين الليبراليين أنفسهم نرى أن مصير الغرب ومصير الرأسمالية مهما طال به الأمر فإنه سينتهى على نفس النهاية التى وصل إليها اليسار وذلك للأخطاء الأساسية التى ما تزال تنحر فى جداره والتى هو عاجز الآن عن التحول عنها لأنها أصبحت من الثوابت الأساسية .

أما نهاية التاريخ فهى تأتى بالنسبة لنظام آخر تترقب البشرية تناميه وامتلاكه القدرة لتحقيق وجوه العدل والرحمة والإخاء البشرى الذى تتطلع إليه الإنسانية .

ذلك أن النظام الغربى القائم الآن قد استطال وتنامى على أساسين لابد أن ينتهيا به إلى السقوط وهما :

١ ـ عجزه عن الإيمان بالله تبارك وتعالى الذى أعطى علماء الغرب القدرة والعلم والقوة لإقامة هذا النظام ، ثم تجاهلوا المصدر الأصيل وأطلقوا عليه من باب عدم المعتبة عبارة (الطبيعة) .

إن أول الأدلة على سقوط الغرب ، هو سقوط الأيدلوجيات التى صنعتها العقول المسيطرة على المجتمعات المتقدمة صانعة الحضارة ، والتى بدأتها منذ أكثر من خمسة قرون عندما استعلت بالعلم وجاءهم بغيا بينهم ، وعندما بدأت عنصر التنوير تنكرت للدين جملة واستغنت عن رسالة السماء بكل عناصرها وأعلت من شأن الإنسان على النحو الذى يجعله مسيطراً وسيداً للكون .

هذا الانفصال الذى أحدثه العصر والتقدم بين عنصرى الحياة ، فتنكر للوحى والنبوة والألوهية والغيب والبعث والجزاء .

كما تجاهل الإنسان مهمته الحقيقية التى قررها له الدين الحق ورسمها له الخالق الأكبر ، وحدث ذلك الانفصام الخطير بين الدين والمجتمع وبين الدين والدولة وقامت فكرة العلمانية المسمومة الخطيرة التى تقرر أن الحياة هى العقل والحس وما سوى ذلك لا يدخل فى دائرة التعامل .

ومن هنا فقد أعطى الإنسان نفسه الحرية فى تكوين نظام للتعامل فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية بما أسموه الأيدلوجيات التى عجزت عن العطاء ولم تحقق للإنسان إلا الاضطرابات والأزمات ، فلما انتقلت هذه المعانى إلى بلادنا الإسلامية أوجدت صراعا شديداً بين مفهوم (خلق الإنسان) الذى جاء به القرآن وما جاءت به نظرية دارون.

وجاءت الأيدلوجيات الرأسمالية والماركسية متصارعة عاجزة عن العطاء وسرعان ما أصابتها التحديات ، فلم تكد تخرج من مأزق إلا لتقع فى مأزق أشد منه .

هذه الأيدلوجيات لم تلبث أن أصابها العطب لأنها خرجت عن منهج الله تبارك وتعالى وحاولت أن تقيم مناهج مضطربة بشرية عاجزة تخدمها المطامع والأهواء .

وعجز الإنسان عن فهم مسئوليته الحقيقية ورسالته الأصيلة .

وحين سقطت الأيدلوجيات وفى مقدمتها الليبرالية والماركسية سقطت إلى الأبد مذاهب الفلسفة المادية كلها .

الدارونية والفرويدية (فى شأن النفس) ودوركايم عن العلوم الاجتماعية وسارتر ، كل هذه النظريات أصابها العطب وخرجت مفاهيم أخرى تدحضها وتصف قصورها وعجزها .

ذلك لأن هذه المذاهب قامت أساسا على الفلسفة المادية التى تقرر أن للإنسان طبيعة واحدة هى المادة وتتنكر لوجوده الحقيقى الذى شكلته (قبضة الطين ونفخة الروح) فهى قد عجزت عن إقامة المجتمع الحقيقى : مجتمع الأمن والسلام .

وكان الانحلال الاجتماعى أخطر أدوار هذا المجتمع ، فقد تفشت الشهوات ظهر الفساد فى الأرض وفتحت أبواب التحلل والحرام فى مجال المجتمع والمرأة كما تفشى فى مجال المال والاقتصاد والتعامل المادى ، وأعانت القصة والمسلسل والإباحيات والقصص المكشوف والداعر وأدب الفراش إلى هدم الشباب الناشىء الذى أعجزته هذه الأهواء عن التماسك فسقط منهاراً .

وكان خطر هذه المفاهيم بالغ الأثر فى مجتمعها المتفكك المنهار ولكن الخطر الأشد قوة هو خطر ما لحق بمجتمعنا الإسلامى القائم على القيم والضوابط والذى يرسم العلاقة بين الثوابت والمتغيرات .

* * *

هذه هى أخطر التحديات التى تواجه الحضارة والمجتمع الغربى كله ، وقد استتبعت التنكر للغيب والنبوات والبعث والجزاء وحولت مهمة الإنسان تحويلا خطيراً : كل هذا هو الذى حطم وجهة الحضارة الغربية وأعجزها عن أن تكون حضارة عالمية أو إنسانية .

وأخطر من هذا كله تحطيم الثنائية التى تضم فى مركب واحد : الروح والمادة ، وإقامة مفهوم المعرفة على العقل وحده وحجب الجوانب الروحية والمعنوية وتدمير قيم الأخلاق التى هى جزء من الدين نفسه .

هذه الانشطارية التى فصلت بين الإيمان بالله تبارك وتعالى من جانب والتعامل مع الإنسان فرداً ومجتمعاً وهما فى الحقيقة وحدة ثنائية القطب .

كذلك فقد أخطأ الغرب فى فهم الدين حين فهم أنه تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله تبارك وتعالى وتجاهل علاقات المجتمع السياسية والاقتصادية والتربوية وغيرها .

كل هذا يوحى بل يؤكد أن البشرية التى تتطلع إلى منهج أصيل جامع قوامه الأمن النفسى وسكينة القلب والسلام الاجتماعى ، لا يمكن أن تجد نفسها فى هذه التجربة التى

امتدت الآن أكثر من خمسة قرون ، ثم لم تستطع أن تحقق للبشرية ما ترجو من سلام أصيل ومن ثم فإن تطلع الإنسانية إلى أشواق الروح وأمان المجتمعات ما تزال تبحث عن منطلق أصيل من داخل النفس لا يمكن أن يتخلى عنه الإنسان ولا أن ييأس من وجوده .

هذا الأمل العميق المستقر فى آفاق النفس الإنسانية لن يتحقق إلا بالدين الحق الذى أرسله الله تبارك وتعالى مع خاتم رسله ﷺ .

ثانيا : ما يسمى صراع الحضارات :

الإسلام يعرف لقاء الحضارات وليس صراع الحضارات ، لقد عرف الإسلام فى تاريخه كله « لقاء الحضارات » وعرف لقاء الأجيال ولم يعرف الصراع ، لقد أعطى الإسلام المجتمعات الغربية كل ما عنده من العلوم والتجارب والمعارف وسمح لأهل الغرب بتحصيلها فى معاهد الأندلس ولم يضع أى قيد عليها ، وذلك لإيمانه بأن العلوم والمعارف هى من حقوق البشرية كلها ، وأنه لا يجوز حبسها أو حجبها ، لأنها من عطاء الله تبارك وتعالى الوافر ، ولذلك استطاع الغرب أن ينقل العلوم التجريبية والكيمياء والفلك وعلوم البحر والصناعة جميعاً بينما لم يفعل الغرب ذلك بعد أن أصبح نماء هذه العلوم فى يديه وما يزال يحجب عن المسلمين مقدرات العلوم حتى يحول بين المسلمين وبين الوصول إلى مرحلة الانتفاع الحقيقى وإيمانا منه بأن يظل عالم الإسلام مرتبطاً به ارتباط الحاجة المتصلة فى محاولة ضخمة واسعة لحصاره ولجعله مصدراً للمواد الخام وسوقا لبيع المصنفات ، ومن هنا جاءت فكرة « صراع الحضارات » مرتبطة بفكرة الصراع العامة التى يفرضها الغرب على مجتمعات المسلمين حيث لا يسمح لهم بأن يمتلكوا إرادتهم أو يقيموا حضارتهم المستقلة ومجتمعهم الخاص .

ولقد ذهب الغرب إلى حد بعيد فى محاولة « تغريب » العالم الإسلامى واحتوائه وصهره فى الحضارة الغربية وفرض الكثير من جوانب الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد عليه .

وما يزال العالم الإسلامى يجاهد جهاداً شديداً فى الحفاظ على ذاتيته والعمل على إيفاء أصالته وانتمائه قائماً وكاملاً .

إن علينا أن نتنبه إلى المحاولة الخطيرة التى ترمى إلى إدخال المسلمين دائرة التسليم

والخضوع وقبول الواقع وإنهاء المقاومة وإنما يرمى من وراء ذلك فى الأساس إلى صهر المسلمين فى بوتقة الحضارة الغربية (اليونانية ـ الرومانية) أساساً والمسيحية واليهودية حديثاً .

إن التجربتين موجودتين : تجربة المسلمين فى لقاء الحضارات حين جاء ، فقبل من الحضارة الغربية ولم يقبل ، قبل ما يتفق مع أصول الإسلام وقيمه ومفهومه الجامع من التوحيد والغيب والنبوة والبعث والجزاء وبأسلوبه القائم على الثوابت والمتغيرات فلما جاء الغرب ليأخذ العلوم الإسلامية لم يتوقف وسمح له بأن يأخذ كل ما يشاء .

ولقد ظل الغربيون يأخذون إلى الوقت الذى أعلنوا فيه كفايتهم وعدم حاجتهم إلى قبول معتقدات المسلمين .

فلما دارت الدائرة على المسلمين وتقدم الغرب فى مجال العلوم التجريبية لم يقف من المسلمين نفس الموقف ولكنه حجب ذلك عن المسلمين ولم يقبل منهم إلا أن يكونوا مرتبطين به برباط « التبعية » التى لا تسمح بقيام حضارة مستمدة من أصلها القرآنى الجامع .

إن كل ما يدعو الغرب إليه الآن من حوار مع الأديان أو تعاقدات ، إنما يرمى إلى السيطرة ولكن المسلمين الذين شكلهم القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً على الأصالة والانتماء إيماناً منهم برسالته الربانية التى وكلها إليه تبارك وتعالى لإبلاغها للعالمين لم يذلوا ولن ينصروا .

هذا فضلا عن أن النظريات المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى إنما ترمى إلى تفكيك الوحدة الجامعة بين المسلمين والحيلولة دون امتلاك إرادتهم وإقامة مجتمعهم الأصيل ، وهذه النظريات المقدمة للمسلمين سواء أكانت الحداثة أم البينونة أو العبثية أو غيرها إنما تهدف كلها إلى تمزيق الجبهة الصامدة التى شكلها الإسلام .

وتلك دعوة قديمة متجددة : بدأها المستشرق جب حين دعا فى الثلاثينات إلى إقامة ثقافة محلية لكل قطر إسلامى مستقل عن الآخر حتى تتمزق الوحدة الثقافية الجامعة التى صنعها الفقه الإسلامى ، الهدف : هو انصهار المسلمين فى بوتقة الماسونية والعلمانية والفلسفة المادية ، لقد أعطى المسلمين دينهم الحق فى قبول كل ما هو صالح مما تقدمه تجارب الحضارات والأمم خلال العصور وفى مختلف البيئات ما دام لا يتعارض مع منهج الإسلام .

ولقد أخذ المسلمون كل ما وجدوه إيجابيا من علوم الأمم وحضاراتهم إيمانا بحكمة رسول الله ﷺ حين قال :

« **إن الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها** » .

ولقد أوصى الإسلام المسلمين بأن يصهروا كل ما يأخذونه من علوم الأمم وحضارتهم فى بوتقتهم الأصيلة ، حتى لا يكون هذا الذى أخذوه عاملا على صهرهم فى ثقافات الأمم أو تصنيع ملامح ذاتيتهم وحتى تبقى مفاهيمهم الأصيلة الجامعة الأساسية القائمة على التوحيد الخالص قائمة فى الثوابت فالإسلام لا يكره أحداً على قبول فكره ، ولا يقبل أن يكرهه أحد على قبول فكر الناس .

* * *

إن سماحة الإسلام التى وسعت البشرية كلها تكشف عن الحقيقة الجوهرية بما يؤكد لقاء الحضارات فقد اعترف الإسلام بالدينين الكريمين (ما أنزل على موسى وعيسى) واعترف بالكتابين (التوراة والإنجيل) وكان كريما فى معاملة أهل الأديان وعمل ما وسعه الجهد فى المحافظة على معابدهم وأتاح لهم حرية العبادة .

وفى كل مكان دخل إليه استقبله أهله بالقبول فقد خلصهم من عنت الرومان وظلمهم وحكم قاضيهم فى سمرقند بخروج جيوش المسلمين بعد دخولها ، لأنها لم تعلن قدومها على نحو ما رسمت الشريعة ، أما صلاح الدين فقد رفض دعوة رجاله فى الانتقام عند خروج الصليبيين من بيت المقدس على النحو الذى عمله الصليبيون عند دخولهم عندما قتلوا سبعين ألف مسلم ، رفض صلاح الدين ذلك وقال إن دينى لا يسمح لى بمثل هذا العمل ، بل أنه ذهب إلى أصحاب السفن الذين رفضوا أن يحملوا الصليبيين العائدين وفرض عليهم ذلك ، وتحمل الجزية عن آلاف الفقراء وسمح لرجال الدين عند خروجهم من القدس بحمل كل ما يستطيعون حمله ، هذه هى سماحة الإسلام التى ستظل قائمة ونافذة على مدى العصور ، مما يؤكد مفهوم الإسلام فى لقاء الحضارات وليس صراع الحضارات .

إن الحقائق التى كشف عنها الإسلام حتى الآن لتوحى بأنها تمثل الثروة المخبوءة التى يتطلع إليها العالم كله وقد مرت به العصور وهو يواجه الأزمات نتيجة تنكب منهج الله تبارك وتعالى وإقامة منهج المادية والبشرية بديلا لمنهج الله تبارك وتعالى وشريعته التى أنزلها لتهدى البشر إلى الطريق الصحيح .

وإذا كانت الحقائق التى كشف عنها الإسلام واضحة تحقيقاً للآية الكريمة :

﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ . [سورة فصلت : الآية ٥٣]

فإن المذاهب والمناهج والدعوات التى سقطت وعجزت عن العطاء كل هذا يكشف الطريق الواضح لقرب تحقيق الأمل الذى تنتظره البشرية .

إن دعوة الغرب إلى عالمية الحضارة أو عالمية الثقافة لا تهدف فى الأصل إلا لغاية واحدة هى : احتواء الإسلام فى دائرة حضارة الغرب أو ثقافته وهو أمر لم يعد فى الإمكان تحقيقه بعد أن جرب الغرب ألف مرة وفشل فى التجربة وقد تبين له أن عالم الإسلام لا يمكن أن ينصهر فى عوالم أخرى مهما كانت تملك اليوم القوة أو السيطرة : ذلك لأن منهج الإسلام لا يزال يمثل غاية الإنسانية وقمة العالمية وحاجة البشرية كلها والأمل الذى يملأ القلوب والعقول والذى تسعى البشرية كلها اليوم لتصل إليه .

* * *

الفصل العاشر

تحفظات الإسلام على (علم الاقتصاد الغربى)

منذ وقعت الأمة الإسلامية فى براثن النفوذ الأجنبى وهى تضطرب بين النظامين الغربيين : الليبرالى الرأسمالى والنظام الاشتراكى ، فقد فرض عليها ذلك نتيجة وقوعها تحت سيطرة الاستعمار الغربى أولا ثم اضطرابها بين النظامين اللذين هما فى الحقيقة منهج غربى وافد لم تكن تعرفه الأمة الإسلامية منذ اعتنقت نظام الإسلام قبل أربعة عشر قرنا ، الذى قدم لها المنهج الربانى الذى يجمع بين خير ما فى المبادىء الاشتراكية وبعض المبادىء الرأسمالية وهو منهج صنعه الله تبارك وتعالى فيه خير ما فى المنهج الفردى وخير ما فى المنهج الجماعى .

والاقتصاد الإسلامى جزء لا يتجزأ عن الإسلام ويرجع التأخر فى تطبيقه إلى ما حدث للعالم الإسلامى من تخلف فى ظل الاستعمار والحروب وسيطرة النظام الرأسمالى للدولة الكبرى على النظام الاقتصادى للعالم الإسلامى ، وقد أدخل النظام الرأسمالى بالقوة كل القواعد الرأسمالية المخالفة للشريعة الإسلامية ، وقد كان لخضوع الدول الإسلامية للغرب ما يجعلها ما تزال غير قادرة على مقاومة مظالم نظام الاقتصاد الغربى .

يقول الدكتور أحمد النجار : إن منهج الاقتصاد الإسلامى لم يطبق حتى الآن بصورته الصحيحة ، ذلك لأن اليهود ما زالوا يسيطرون على معظم المؤسسات المالية فى العالم ، كما أن هناك مؤامرة تدبر للاقتصاد الإسلامى ولغيره من النظم الإسلامية ليست من أعداء الإسلام بل من المسلمين أنفسهم ، فهم الذين أكرمهم الله تبارك وتعالى بحمل راية الإسلام ، وإخراج العالم من الظلمات إلى النور وإعطاء القدوة الحسنة فى كل المجالات ، ولكنهم فشلوا فى إعطاء النماذج الصحيحة وصاروا يتكلمون أكثر مما يعملون .

إن العيب ليس فى المنهج ولكنه فى المسلمين أنفسهم الذين لم يستطيعوا حتى الآن تطبيق منهج الاقتصاد الإسلامى بصورته الصحيحة .

ولما كانت الصحوة الإسلامية قد فتحت كل الأبواب ، فقد كان من أبرز معالمها : أسلمة الاقتصاد وإنشاء البنوك الإسلامية .

يقول الدكتور أحمد النجار : إن الاقتصاد الإسلامى هو كل التوجهات القرآنية المتعلقة

بالمال والمعيشة فقد جاءت فى باب العبادات ، وهى الزكاة ولا يمكن فصل العبادات عن الجانب الاقتصادى ، فالإسراف قد يدخل فى الوضوء ـ وهو مبدأ اقتصادى ـ وعندما نقول مؤسسه اقتصادية إسلامية نقصد بذلك مؤسسة تطبق كل توجهات المنهج القرآنى فيما يتعلق بالمال ويجب أن نكون مخلصين مع أنفسنا للخروج من الأزمات .

إن التخلف هو مشكلة المسلمين اليوم ، فهم السبب فى هذا التخلف لأنهم ابتعدوا عن منهج الله تبارك وتعالى وقصروا فى تطبيقه ، ومن المحزن أنهم يعانون من التخلف فى الوقت الذى يسيطر فيه اليهود على معظم المؤسسات العالمية ويحاربون البنوك الإسلامية بجانب النظم الدكتاتورية التى تخشى أن يعتمد الناس على أنفسهم فى حياتهم ولا يعتمدون على الدولة ، ولذا فإن كل نظام ديكتاتورى يحارب البنوك الإسلامية بتطبيقاتها الصحيحة .

إن المؤسسات المالية الإسلامية بصورتها الصحيحة هى المنقذ الوحيد للعالم كله من الأزمات الاقتصادية ، ولكن هناك مؤامرة تدبر للاقتصاد الإسلامى ولغيره من النظم الاقتصادى .

إن المؤامرة هى عجز المسلمين أنفسهم عن تطبيق منهج الاقتصاد الإسلامى بصورته الصحيحة .

وإذا كان هذا هو رأى خبير مسلم غاص فى التجربة أكثر من ثلاثين سنة ، فإن الغربيين المنصفين شهدوا لمنهج الإسلام فى الاقتصاد ، فقال جاك اوسترى : ليس على المسلمين اتباع لا النمط الرأسمالى ، ولا النمط الاشتراكى الماركسى فى عملية التنمية الاقتصادية لمجتمعاتهم ، فهناك نمط إسلامى متميز وسط بين الطرفين يجمع قواعد النظام ولا يضم مساوئها .

إن للإسلام النظام الأفضل فى كليات أساسية .

[٢]

إذا كان الاقتصاد الإسلامى يمثل الخطط العامة للتعامل الاقتصادى والمالى التى نلتمسها فى الكتاب والسنة ، وهى جزء من النظام الإسلامى ينفصل عنه فيما يرسم المنظومة العامة (الشريعة) التى تفصل فيما يسمى (الفقه) .

وقد جعل الإسلام قوام المعاملات الاقتصادية ، كما جعل قوام المعاملات الاجتماعية

القيمة الأخلاقية التى تحرر المجتمع الإسلامى من الصراع والفساد والظلم ، قوام الشريعة أساساً : المرونة والعدل والربط بين الفرد والمجتمع .

وقوام المفهوم الاقتصادى الإسلامى : التوسط والمال والعمل هو أساس كل اقتصاد والتوسط فى الاقتصاد الإسلامى ليس بالوسط الحسابى المعروف فى الاقتصاديات غير الإسلامية ، فهو يقوم على الخلق والتقوى ويتسم بخاصيتى السعى (أى الكسب الحلال وحسن التدبير) .

ومن حيث أن المال والعمل هو أساس كل اقتصاد .

فقد جعل الإسلام المال وسيلة للتعامل وأداة استخلاف وابتلاء ، وجعل كل غنى من غير الحلال ربا ، ودعم ذلك بأن جعل العمل فريضة دينية وحدد السبب الشرعى فى الحصول على الرزق الحلال .

وإلى جانب ذلك جعل تراكم المال وتكديسه فى يد الأغنياء ممنوعاً فأوجب صرفه وإنفاق ما فضل عن الحاجة فى وسائل الإنتاج قال تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢١٩] أى الصافى الحلال الفاضل عن حاجتكم .

ويعتبر الإسلام : « العمل » أهم وسائل الإنتاج ، وأنه الأصل لكل تملك صحيح ، والعمل بهذا الاعتبار إجبارى ، فكل مسلم ومسلمة يجب أن يباشر عملا نافعاً له وللمجتمع ، وكل عمل كيفما كان يؤدى إلى احترام صاحبه وتكريمه عند المسلمين (العمل عبادة) : وهو حق لكل مسلم على الدولة والمرء كما قال عمر بن الخطاب ، يأخذ على قدر حاجته ويأخذ على قدر عمله .

وعلى الدولة أن تضمن لكل واحد عن طريق العمل أن يستفيد قدر حاجته ، أما العاجز فإنه يعطى على قدر حاجته من نفقات الضمان الاجتماعى .

والضمان الاجتماعى يؤخذ من الزكوات والمغارم التصاعدية (علال الفاسى) .

ولقد وضع الإسلام قواعد الاقتصاد الإسلامى حين أرسى تلك القيم الأساسية :

أولا : حث الإسلام على العمل والكسب واعتبره قربة إلى الله تبارك وتعالى (إن الله يحب المؤمن المحترف) .

ثانياً : أساس العبادة فى الإسلام هو تأمين الناس فى حياتهم المعيشية .

ثالثا : اعتبر الإسلام ضمان حد الغنى أو حد الكفاية لا الكفاف ، حق إلهى مقدس يعلو فوق كل الحقوق .

رابعاً : المال زينة الحياة الدنيا وقوام المجتمع .

خامساً : اعتبر فقر المجتمع عقوبة وغضب من الله تبارك وتعالى والغنى مثوبة وفضل من الله ، وجعل العقوبة جزاء إهمال المجتمع وانحرافه .

سادساً : جعل الإسلام طلب المال فريضة وجهاداً فى سبيل الله (طلب الكسب فريضة على كل مسلم ومسلمة) .

سابعاً : جعل الإسلام العامل المادى فى القمة والصدارة ووضع المشكلة الاقتصادية حيث يجب أن توضع فى الأساس وفى المقدمة .

ثامنا : جعل الإسلام ارتباط العبادة بتأمين الناس فى حياتهم المعيشية .

تاسعاً : اعتبر الإسلام ترك أحد أفراد المجتمع جائعاً أو ضائعاً هو تكذيب للدين .

عاشراً : جعل الإسلام الحق للإنسان إذا عجز أو مرض أو وصل لشيخوخته أن يوفر له بيت المال ما يكفيه من مصارف الزكاة .

وقال الإمام الشيبانى : إن الله فرض على العباد الاكتساب بطلب المعاش ليستعينوا به على طاعة الله ، **وقال الإمام ابن تيمية** : إن الله تعالى إنما خلق الأموال إعانة على عبادته لأنه خلق الخلق لعبادته .

ثانيا : نظرة الإسلام إلى المال

مدخل :

القاعدة الأساسية أن المال مال الله تبارك وتعالى والإنسان مستخلف فيه .

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ [سورة الحديد : الآية ٧]

والاستخلاف فى المال مستمد من حق الخلافة العامة .

والتركيز على أن يكون مصدر المال حلالا وأن يصرف فى حلال ثم فرض حقا معلوما على هذا المال وهو ما يسمى بالزكاة .

١ ـ ففى إعمار الأرض يختلف الإسلام عن الرأسمالية التى تعمل للسيطرة على

الشعوب وإيجاد مناطق النفوذ واحتكار الأسواق وتكديس المخزون الذرى والنووى .

٢ ـ وفى تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة يختلف عن الرأسمالية التى تعطى الحرية المطلقة للفرد فى التملك ، ولكن إطلاق النشاط الاقتصادى فى يد الأفراد لم يؤد إلا لتفشى البطالة والأزمة الاقتصادية والتفاوت الضخم فى الدخول والاحتكارات .

ولقد كان قانون العرض والطلب هو السبب الرئيسى لظهور فكرة الاستعمار والاشتراكية حيث تملك الدولة وسائل الإنتاج باعتبار أن الملكية الجماعية فيها حل للمشكلة الاقتصادية ، وقد اصطدمت هذه العملية بناموس وفطرة حب التملك لدى الفرد، مما أدى إلى إحباطه وهبوط إنتاجه .

إن الإسلام ينظر إلى المال على اعتبار أنه ضرورة للحياة البشرية فهو عصبها وعمادها، وقد حرص الإسلام على تنبيه الإنسان إلى خطر أن ينحرف به المال ويفسده ويقرر القرآن : أن المال ضرورة وأنه مصدر إغراء وشهوة .

ومن هنا يتدخل الإسلام للتنظيم والتوجيه فى عدة توجيهات :

أ ـ تدخل فى حق الإنسان فى الانتفاع ما دام لا يسلك المسالك الشرعية ، كما تدخل فى علمية التنظيم الاقتصادى .

ب ـ حث الإنسان على الإنفاق فى سبيل الله تبارك وتعالى .

جـ ـ أن يعلم الإنسان أن المال مال الله تبارك وتعالى ، وأن الناس مستخلفون فيه باعتبارهم وكلاء الله على الأرض .

د ـ أوجب الإسلام الاحتياط فى استخدام الوسيلة التى تمكن من تنمية المال وتحصيله .

هـ ـ نهى الإسلام عن الأساليب التى تعطل الدورة الاقتصادية والمالية وهى :

١ ـ كنز المال .

٢ ـ الربا .

٣ ـ الإسراف والتبذير .

٤ ـ الاحتكار .

٥ ـ الغش .

٦ ـ الغصب .

٧ ـ السرقة .

٨ ـ الرشوة .

٩ ـ تطفيف الكيل والميزان .

١٠ ـ القمار .

١١ ـ الغل .

١٢ ـ الطمع .

١٣ ـ الإتلاف .

١٤ ـ الاتجار فى الخمر .

١٥ ـ الاتجار فى الأعراض « البغاء » .

و ـ ينمى المال بالإنفاق ـ القرض ـ الشركة المضاربة ـ عناصر الإنتاج الأربعة (الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة ـ العمل) .

ز ـ تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .

ح ـ الرقابة على ممارسة النشاط الاقتصادى رقابة قائمة على الوازع الدينى والخوف من الله تبارك وتعالى .

ط ـ تحقيق هدف الإسلام إعمار الأرض على مفهوم جامع ﴿ **كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا** ﴾ . [سورة البقرة : الآية ١٦٨]

ثالثا : خصائص الاقتصاد الإسلامى

يتميز النظام الإسلامى بطابع خاص يتمثل فى عدة عوامل أساسية :

أولا : أن النظام الرأسمالى يؤمن بالحرية الفردية .

أما النظام الاشتراكى فيؤمن بتدخل الدولة .

أما الإسلام فإن المبدأ العام له هو الحرية الفردية مع تدخل الدولة فى الأوقات التى تتطلب تدخلاً .

وفى الإسلام توجد الملكية الخاصة والملكية العامة .

وذلك بخلاف الرأسمالية حيث أن الملكية هناك هى الملكية الخاصة والاستثناء هو الملكية العامة ، فى حين أن الملكية الأساسية هى العامة والاستثناء هو الخاصة .

أما الإسلام فيرى أن الملكية العامة والملكية الخاصة أساسيان فى الاقتصاد ولكل منهما دور فى النشاط الاقتصادى .

والملكية فى الإسلام غير مطلقة لأن لها بعداً اجتماعياً .

إن الملكية الفردية فى الإسلام ملكية ظاهرة لأن الله تبارك وتعالى هو المطلق الوحيد فى هذا الكون ، ومن ثم فهناك ملكية مطلقة لله تبارك وتعالى :﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾ .[سورة طه : الآية ٦]

ثانياً : من الغنى إلى الفقير :

يتحرك الاتجاه المالى فى الإسلام من الغنى إلى الفقير .

﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ... ﴾ إلى آخر الآية [سورة التوبة : الآية ٦٠] ، ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل المحروم** ﴾ .[سورة الذاريات : الآية ١٩]

ثالثاً : قيم تحكم سلوك الأفراد :

وضع الإسلام مبادىء وقيماً تحكم سلوك الأفراد .

فعلى المسلم أن يراعى فى سلوكه الاقتصادى المبادىء والقيم التى نص عليها الإسلام وعليهم أن يتعاملوا طبقاً للمبادىء التى وضعها الإسلام فى المعاملات المختلفة ويلتزموا بالأحكام التى وردت فى الكتاب والسنة .

رابعاً : احترام العمل والإعمار :

فكرة الاقتصاد الإسلامى تعنى خضوع كيفية الإشباع لفلسفة الإسلام العامة التى تؤكد احترام العمل والإعمار فى الأرض واحترام الإنسان والجماعة وشمول الكفاية فى الإنتاج والعدل والتوزيع .

خامساً : المسئولية الفردية :

إذا كان المبدأ الرأسمالى البحت يعتمد على الحرية الفردية بلا حدود ، بينما المبدأ الاشتراكى يرى أن الجماعة هى الأولى بالقيادة ، فإن الإسلام يحترم الفرد ويجعله مسئولا

عن تصرفاته ومسئولا عن محاسبته أمام الله تباك وتعالى بصفته فرداً ، وفى نفس الوقت ينظر الإسلام إلى الفرد كعضو فى جماعة أركانها بنيان مرصوص ، وعلى هذا فإن الاقتصاد الإسلامى هو علم يبحث شأنه شأن المفهوم الأصلى فى مدى كفاية الموارد لإشباع الحاجات .

رابعاً : الربـــــا

حرمت الشرائع السماوية « الربا » وأحل الله البيع وحرم الربا ، ويعنى الربا : الإقراض مقابل الفائدة .

وقد انتشرت المعاملات الربوية فى البنوك التجارية فى المجتمعات اليهودية والنصرانية ، ثم انتقل إلى المجتمع الإسلامى عندما وقع فى براثن الاستعمار والنفوذ الأجنبى .

وقد حاولت القوى المستغلة التحايل عن طريق الفصل بين كلمة « ربا » وكلمة « فائدة » وقد استعملت كلمة « فائدة » للتعمية والتضليل .

ولقد كان القرآن الكريم حاسما فى تحريمه الكامل للربا « الفائدة » ، إذ حرم الإسلام الربا وأحل البيع إعلاء لقيمة المجهود البشرى فى العمل وإعمار الأرض وتكريمه للإنسان فلا يزيد المال زيادة مشروعة ، إلا إذا اقترن بسعى الإنسان فى صناعة أو زراعة أو أداء خدمة.

والبيع فى القرآن يتمثل فى (الصناعة والزراعة وغيرهما) .

حيث قال الرسول الكريم ﷺ : « **تسعة أعشار الرزق فى التجارة** » وقد تآمر اليهود والماسونية للتحكم فى العالم فحولوا عملية الربا والإقراض إلى بنوك ومصارف ومؤسسات مالية للاتجار فى العروض .

وعندما اتصل المسلمون بالغرب قال لهم رجل المال فى الغرب : إن التقدم الاقتصادى والرواج التجارى لن يكونا ممكنين ما لم تطبق البلدان الإسلامية الوسائل المادية الغربية .

ويحرم الإسلام تكديس المال واعتباره غاية تؤدى إلى الاتجار فيه كبضاعة فى حين أنه أداة لاقتناء البضاعة وذلك ما يعنى الربا .

وقد حرم الإسلام الربا لأنه مبنى على اعتبار المال غاية وأنه يؤدى إلى أكل أموال الناس بالباطل .

قال الإمام الغزالى : إن معاملة الربا ظلم ؛ لأن الدراهم والدنانير خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض فى عينهما .

وإذا كان الربا محرما لئلا يؤدى للادخار ، فذلك يقتضى تحريم تكتيل الأموال إلى أن تصبح فى يد قليلة تتداولها بينها ويحرم عنها عموم الأمة ، كذلك منع الإسلام أن يكون المال دولة بين الأغنياء .

وقد أمر بأن يقسم الفيء على جميع الأفراد معللا ذلك بقوله :﴿ **لكى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ [سورة الحشر : الآية ٧]

أى حتى لا يصبح المال المكتسب مقصوراً على ذوى الثراء يتداولونه فيما بينهم دون أن يشيع تداوله بين الجميع .

وهكذا أخذ الإسلام يحرم بصفة صريحة الرأسمالية العنصرية التى تجعل المال دولة بين الأغنياء .

ويقول العلامة علال الفاسى : إن التعامل بالربا مخالف لكل الديانات السماوية (الموسوية والمسيحية والإسلام) وقد انحرف المسيحيون عن دينهم وقامت الحركة الليبرالية التى اتخذت شعار (دعه يعمل) ، وبذلك استباح الناس فى المعاملات كل شىء وطبقوا من فنون الربا أنواعاً وأشكالا ، ثم جاءت الثورة الاشتراكية لتقاوم (فائض القيمة) باعتبار أنه ربا غير مشروع ، على أن الدولة الشيوعية أصبحت دون الأفراد تتعامل بالربا ، بحيث تقرض التعاونيات والجمعيات بالفائدة ، واليهود بدورهم يتعاملون مع غيرهم بالربا ، وقد وصفهم القرآن بأنهم يأكلون الربا وقد نهوا عنه ، وقد واجه مفكرو الإسلام هذا الخطر إيمانا منهم أن نظام سعر الفائدة يعوق النمو والتطور ، لأن الفائدة تؤدى إلى زيادة التكاليف ، وهذه تؤدى بدورها إلى زيادة الأسعار وتسبب قلة الطلب على إنتاج المشروعات ، فإذا كان سعر الفائدة على هذه الربحية المتوقعة فإن هذا يمنع من إنشاء المشروعات ويعوق الاستثمار ، ولهذا كان ذلك من أسباب تحريم الربا .

ولقد أثبتت البحوث الاقتصادية الحديثة أن الربا خطر على اقتصاد العالم وسياسته وأخلاقياته وسلامته ، وأنه وراء الكثير من الأزمات التى يعانى منها العالم ، وأن كل مال جاء عن طريق الفوائد الربوية هو مال حرام شرعا ولا يجوز أن ينتفع به المسلم أو لأحد ممن يعوله .

ومن هنا فقد جاءت شركات الاستثمار الإسلامية لتعمل على إدارة عجلة التنمية الذاتية فى إطار القواعد الشرعية المنظمة للمعاملات المالية اللاربوية بما يكفل تحقيق الكفاية فى إدارة الأموال داخل مجتمعاتها سواء بالنسبة للفرد (أو على مستوى الدولة بأسرها) .

ويؤكد الباحثون الإسلاميون الدارسون للاقتصاد الغربى بشقيه ، أن هناك تصوراً ماديا يقوم على قصور النظرة إلى الكون والإنسان وعدم القدرة على ربط الظاهرة الاقتصادية بغيرها من الظواهر الكونية التى يعتبرها من قبيل العوامل الخارجية .

ولا يكون العلم علما إلا بالالتزام بالموضوعية العلمية والبعد عن التميز وشمول النظرة إلى الكون والإنسان ، كما يقول الأستاذ حسين غانم فى بحثه الضافى ، حيث يقسم الغرب السلع اقتصادية وحرة ، فالسلع الاقتصادية هى التى تتوفر فيها شروط القدرة والمنفعة ، حيث تستأثر بالجانب الأكبر من اهتمام الفكر الوضعى بينما لا تنال السلع الحرة (الماء والهواء والضوء والحرارة والثمار المرجوة فى الطبيعة) نفس القدر من الاهتمام فالسلع الاقتصادية هى الموضوع الذى تدور حوله الدراسات وتكوين الأسعار ، أما السلع الحرة فإنها تستبعد من الدراسة الاقتصادية بدعوى أنها لا تثير أية مشكلة ، فهى موفورة ، وهكذا أصبح علم الاقتصاد الراهن علما للندرة وارتبط بوجود مشكلة اقتصادية هى مشكلة الندرة .

والواقع أن الندرة ليست أصلا تقوم عليه الحياة وإنما هى شىء طارىء يرجع إلى اختلالات فى الظواهر .

ولا يمكن أن يقوم أى علم من العلوم على أسس اختلالية على الإطلاق ، وإنما العكس هو الصحيح ، بمعنى أن قيام العلم يرتبط بالتوازن ولا يوجد علم تصاغ قوانينه ونظرياته على أسس اختلالية ، ولعل أحد الأسباب الرئيسية فى تخلف العلوم الإنسانية كالاقتصاد والسياسة والاجتماع يكمن فى أن الباحثين لهذه العلوم يقيمون تحليلاتهم على أساس توازن سلوك الإنسان فى إطار التوازن الكلى للكون فى مجموعه وجزئياته .

وعلى سبيل المثال تستمد النظرية الاقتصادية المعاصرة فروضها من النماذج الاختلالية التى أقامها فلاسفة اليونان ونقلها من بعدها المدرسيون فى العصور الوسطى ، وكلها تقوم على فروض اختلالية تقيم الحياة على فكرة التناقض والصراع ، فعندهم أن الطبيعة نادرة

وأن الطبيعة عدو للإنسان لا هدف لها إلا تدميره والقضاء عليه ، والحياة كلها صراعات .

صراع ضد الطبيعة ، وصراع الإنسان ضد الإنسان ، وصراع من أجل البقاء ، وصراع بين طبقات المجتمع ، والعداء قائم بين الفرد والمجتمع ، فإما أن تغلب مصلحة الفرد على مصلحة المجموع أو أن تطغى مصلحة المجموع على مصلحة الفرد ، والإنسان لا هم له ولا هدف سوى إشباع غرائزه كالبهائم ، ويجرى وراء الطعام ويسعى إلى تحقيق أكبر لذه ممكنة.

وكان الفكر السوفسطائى يدعى أن القوانين الطبيعية أو الطبيعة تدعو الإنسان إلى الإغراق فى اللذة ، ويدعو الأقوياء إلى البطش بالضعفاء ، وجاء (هوبز) فادعى أن الإنسان ذئب مفترس ، وردد الكتاب من بعده الفكرة الداروينية عن الصراع من أجل البقاء ، ثم جاء كارل ماركس ليقيم عملية التطور الاجتماعى كلها على فكرة صراع الطبقات حول إشباع الحاجات والغرائز الذاتية ، ولا يزال هذا النمط من التفكير الفلسفى المنحرف هو ذاته النمط الذى يسير عليه الفكر الوضعى ، وهذا يفسر لنا لماذا تخلفت العلوم الإنسانية ومن بينها علم الاقتصاد .

لقد كان كارل ماركس متحيزاً ، ولم يكن على حق عندما أسقط قيمة وسائل الإنتاج التى تقدمها الطبيعة ، كالأرض والماء والرياح من حساب القيمة النهائية للسلعة المنتجة ، لكى ينتهى من بحثه فى نظريته عن فائض القيمة إلى أن كل القيمة يخلقها العمل .

وكان كارل ماركس متحيزاً فإنه وضع نصب عينيه نتيجة مسبقة ، وراح يتحايل لكى يثبت صحتها عندما أراد ماركس أن يثبت أن النظام الرأسمالى نظام فاسد يقوم على أساس استغلال العمال .

خامسا : وجوه الخلاف

يختلف منهج الإسلام فى الاقتصاد عن منهج الفكر الغربى فى عدة أمور .

أولا : من حيث تفصيل النظم الوضعية بين الدين والاقتصاد ، بينما يقرر المنهج الإسلامى الربط بين الاقتصاد والدين ويجعل الإسلام من تبعية النشاط الاقتصادى للقيم الدينية حكما شرعياً .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

[سورة القصص : الآية ٧٧]

ويعتبر الاقتصاد الإسلامى الأبعاد الثلاثة للإيمان (عقيدة وعبادات ومعاملات) إطاره العام ومثله الأعلى .

ويقرر الباحثون ـ على ما يعرض عبد الملك يوسف الحمد ـ إن الأصل الفقهى فى المعاملات : هو الإباحة فى النشاط البشرى ، إلا أن تطبيقها يعمل ضمن حدود التوحيد بمراقبة الله تبارك وتعالى دائما ـ كذلك يجمع الإسلام بين جانب مستمر يتعلق بالمبادىء والأصول التى جاء بها الإسلام للبشرية جمعاء ، وذو جانب متغير مرن إذ يعالج كيفية التطبيق لمواجهة مشكلات المجتمع باختلاف الزمان والمكان .

هذا الترابط بين الثبات والتغيير لن تجده يجتمع على منوال واحد منسجم من فطرة الإنسان ، إلا فى الإسلام الذى لم يقبل الله تبارك وتعالى لمعبوده بديلا سواه ، فالإسلام عقيدة فى جانب الثوابت ، كما أن له توجيه فى جانب المتغيرات .

فإذا وجد فى هذه المتغيرات اختلافا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية يعبر عنه بأنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

سادساً : التصور الإسلامى للاقتصاد

يقوم هذا التصور على ثلاثة محاور يواجه بها الإسلام الأزمة الاقتصادية .

المحور الأول : دعوة الإسلام إلى تحصيل العلوم والمعارف والتزود بتكنولوجيا العصر ، فالإسلام يعتبر ذلك من أسباب القوة :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ . [سورة الأنفال : الآية ٦٠]

وتأتى القوة الاقتصادية فى قمة ما تشمله هذه الأمة .

وهذه القوة تنبنى على العلم ، وقد اعتبر علماء المسلمين أن تحصيل العلوم والمعارف التى يفرق بها المسلم بين الحلال والحرام ويعتمد عليها فى أداء العبادات ، على المسلم أن يحصل جميع العلوم فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة ، وعلى مناهج التعليم أن تؤكد أن طلب العلم عبادة ، وأن تحصيل المعارف طاعة لله تبارك وتعالى .

المحور الثانى : الرؤية الإسلامية للإنتاج والمشاركة فى التنمية والعمل ، حيث يعتبر الإسلام أن المشاركة فى التنمية من التكاليف الإسلامية التى لا تقل عن العبادات ، فالتنمية الإسلامية فريضة والإنتاج طاعة والعمل عبادة ، وقد ربط القرآن بين فريضة من أهم فرائض الإسلام وهى الصلاة وبين الانتشار فى الأرض وابتغاء الفضل .

قال تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾

[سورة الجمعة : الآية ١٠]

والعبادة فى المفهوم الإسلامى أمران :

١ ـ أداء الشعائر .

٢ ـ عمارة الكون ، وعمارة الكون إنما تتحقق بالسعى فى مناكب الأرض .

المحور الثالث : ضبط الإنفاق بترشيد الاستهلاك بحيث يستهلك المجتمع أقل مما ينتج ، حيث يحرم الإسلام إنتاج بعض السلع الضارة بالإنسان كالخمر ، كما يضع ضوابط استهلاك السلع الحلال ، فيجاوز حد الإسراف فى هذه السلع يحرمه الإسلام : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ [سورة الأعراف : الآية ٣١]

بل إن الإسلام قد اعتبر من يستهلك أكثر من القدر اللازم أخا للشيطان ، ومثابة الكفران بنعمة الله .

﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً** ﴾

[سورة الإسراء : الآية ٢٧]

كذلك دعا الإسلام إلى ترشيد الاستهلاك ومحاربة التبذير ، ذلك أن ضمان حد الكفاية أو الحاجات الأساسية يساعد على زيادة الإنتاج والإخلاص فى العمل .

(ولا تضربوا ظهور الناس فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم) دكتور حسين حسان .

وقد حدد الإسلام المشكلة الاقتصادية : فى مشكلة التخلف والفقر ، وقد ساوى الإسلام بين التخلف والكفر (**اللهم أعوذ بك من الكفر والفقر**) وساوى الإسلام بين التنمية والسعى فى الأرض وبين الجهاد فى قوله تعالى :

﴿ **وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** ﴾ . [سورة المزمل : الآية ٢٠]

وقد جعل الإسلام طلب المال الحلال وتنميته : فريضة وجهاداً (طلب الكسب فريضة على كل مسلم) .

ويتساءل الدكتور الحبيب الشطى : كيف يمكن للنظرية الاقتصادية الإسلامية أن تسود عالم تتصارع فيه قوى الاشتراكية والرأسمالية .

إن النظامين قد أفلسا فى تحقيق الرفاة الاقتصادى المنشود فالاقتصاد الرأسمالى فى تدهور كبير ، فهو يشكل التضخم المالى والبطالة وآفات اقتصادية كبيرة ، أما النظام الاقتصادى الإسلامى فيعتمد على الشريعة الإسلامية التى تكفل تحقيق الرفاة المادى والعدالة الاجتماعية بين البشر .

إننا كأمة إسلامية يجب أن يكون لنا نظام خاص بنا لأن شريعتنا تحتوى على الدعائم التى يمكن لنا أن نبنى عليها نظاما مصرفيا جديداً ، فإن الربا حرام فى الإسلام ولابد آجلا أو عاجلا أن تعود الشريعة الإسلامية إلى إقامة نظام يأخذ بعين الاعتبار هذا التوجيه .

المشكلة هى كيف يتوصل إلى وضع نظام اقتصادى إسلامى متكامل ومتسق ومنسجم لنواجه التأثيرات الواردة من الخارج ، فإذا توصلنا إلى هذا يمكن أن نحمى اقتصادنا من التأثيرات الخارجية .

سابعا : التنمية الإسلامية

أشار القرآن الكريم إلى التنمية الاقتصادية الشاملة فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ [سورة هود : الآية ٦١]

أى كلفكم بعمارتها وقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وسخر له كل ما فى الأرض يستثمرها وينميها وينعم بخيراتها وتسبح بحمده .

﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ [سورة الجاثية : الآية ١٣]

ويملك الإسلام تصوراً شاملا فى التنمية ويستمد أساس هذا التصور من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

يقول الدكتور محمد سيد محمد : إن الفرد المسلم والمجتمع المسلم يواجهان حكم

الدين فى تفاصيل حياته ، وبالقدر نفسه يتمتع الفرد المسلم ويتمتع المجتمع المسلم بمساحات شاسعة لحركته وحريته واختياره إلى حد لا تستطيع الأيديولوجيات الأخرى أن تبلغها ومن هذا الأساس الأيديولوجى تصبح التنمية الإسلامية قضية عقائدية من وجهة نظر الإسلام .

فحين ترى الماركسية الدين ـ أى دين ـ هو أفيون الشعوب ، وأن مجرد وجوده عائق للتنمية ، بينما ترى الليبرالية الرأسمالية أن الإسلام وأديان أخرى عائق للتنمية ، وهم يخصون الإسلام بالهجوم بزعم أن فكرة القضاء والقدر فى الإسلام هى سبب تخلف المسلمين ، برغم أن فكرة القضاء والقدر فى الإسلام فكرة إيجابية وليست سلبية فهى تسلح المسلم بقدر لا نهائى من الثقة .

ويقرر علماء الاقتصاد الإسلامى : أن فى الإسلام نظام اقتصادى متكامل يحقق كل ما يتطلع إليه من تنمية ، ويقرر الدكتور حسن الساعاتى : أن التنمية فى مفهومها الصحيح هى عملية تغيير إرادى ، فالرسالات السماوية كلها تعبير إرادى وعملى وعلى أسس منظمة .

ومن هنا فلا يمكن أن تقوم تنمية على أساس الربا ، ولا تعتمد على الذات ، وأن أى تنمية تقوم على القروض من الأجنبية لابد أن تدمر .

أما التنمية فتتم بالإنسان الصالح السوى وتقوم على قاعدتين : حرية حقيقية ، وعدم استغلال .

ومدخلها الأساسى هو الإيمان العقيدى بأن الربوبية والألوهية هى للخالق تبارك وتعالى (لا إله إلا الله) فإذا آمن بها المجتمع تحرر نهائيا من عبودية غير الله تعالى .

فإذا ما اعتقد الفرد بهذه الحقيقة الإيمانية تحرر نهائيا من أى عبودية لغير الخالق وإذا تحرر أصبح الإنسان سويا .

ولكى يضمن الخالق تبارك وتعالى هذا التحرر الحقيقى ، خص لذاته العلية همين يشغلان الفرد والجنس البشرى : وهما الرزق والعمر ، ولم يدعهما لأحد حتى يتحكم فى أمر البشر .

وأكد الإسلام أن المال مال الله تبارك وتعالى ونحن مستخلفون فيه ، ويعنى بالنسبة للبشر العمل على تنميته وتثميره ، وأداء حقوقه فى صورة الزكاة ، ومن هنا يقوم التكافل الحقيقى بين أفراد المجتمع المسلم .

* * *

وقد جعل الإسلام (التنمية) فى الأساس : مسئولية الفرد أو القطاع الخاص .

وخلافا للماركسية والرأسمالية يقرر الإسلام ضرورة التعاون بين الدولة والأفراد ، وأن لكل منهم مجاله يكمل كل منهما الآخر ، وقد استلزم ذلك مبدأ ازدواج الملكية الخاصة والعامة يساهمان معا وعلى قدم المساواة فى عملية التنمية ، فكلاهما كأصل وليس كاستثناء ، وكلاهما يكمل الآخر ، فلكل مجاله بلا تعارض أو اصطدام .

وقد كان اعتراف الإسلام بالملكية سواء كانت خاصة أو عامة ، وفى نظرته إليها وتنظيمه لها إنما أقامها باعتبارها وسيلة انتمائية (أى حافزاً من حوافز التنمية) .

والصيغة الإسلامية للتنمية الاقتصادية : تنمية شاملة ومتوازنة وغايتها الإنسان ليكون بحق خليفة الله فى أرضه ، وهى شاملة لأنها لا تستهدف رقى الإنسان ماديا فحسب ، وإنما روحيا بصفة أساسية .

قال الإمام الشيبانى : إن الله فرض على العباد الاكتساب بطلب المعاش ليستعينوا به على طاعة الله تبارك وتعالى ، وقال الإمام ابن تيمية : إن الله تعالى خلق الأموال إعانة على عبادته لأنه خلق الخلق لعبادته .

ومن هنا يقول الدكتور شوقى الفنجرى : لا يقبل الإسلام تنمية رأسمالية تضمن حرية التعبير ولا تضمن لقمة الخبز كما لا يقبل الإسلام تنمية اشتراكية تضمن لقمة الخبز ولا تقبل حرية التعبير .

أما أن التنمية الإسلامية تنمية متوازنة ، فذلك لأنها تستهدف زيادة الإنتاج ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ [سورة التوبة : الآية ١٠٥]

وإنما تستهدف أساساً عدالة التوزيع ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ [سورة المائدة : الآية ٨] بحيث يعم الخير جميع البشر أيا كان موقفهم فى المجتمع :

ذلك أن هدف الإسلام من التنمية الاقتصادية ، هو أن يتوافر لكل فرد فى المجتمع الإسلامى حد الكفاية لا حد الكفاف ، أى أن يتوفر لكل إنسان المستوى اللائق للمعيشة بحسب زمانه ومكانه لا مجرد المستوى الأدبى اللازم للمعيشة بحيث يستشعر المرء نعم الله تبارك وتعالى وفضله فيتجه تلقائيا إلى حمده وشكره وعبادته .

ومن هنا لا يقبل الإسلام (تنمية رأسمالية) تستهدف تنمية ثروة المجتمع دون نظر إلى عدالة التوزيع .

وإذا كانت التنمية الاشتراكية تؤكد العلاقة بين أشكال الإنتاج والتوزيع ، إلا أنها ترى أن نظام التوزيع يتبع دائما شكل الإنتاج ، فى حين يرفض الإسلام هذه التبعية بحيث أيا كانت أشكال الإنتاج السائدة فإنه يضمن أولا : حد الكفاية لكل فرد وذلك كحق إلهى مقدس يعلو فوق كل الحقوق .

ثم بعد ذلك يكون تبعا لعمله وجهده وبحيث إذا لم يتوافر (حد الكفاية) لكل مواطن ، وهو ما لا يكون إلا فى الظروف الاستثنائية (كمجاعة وحرب) .

وقد عبر الخليفة عمر بن الخطاب ملخصا سياسة التوزيع فى الإسلام بقوله : (ما من أحد إلا وله فى هذا المال حق : الرجل وحاجته ، الرجل وبلاؤه (عمله) ، إنى حريص ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض فإذا عجزنا تأسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف) .

إن مبدأ التوازن فى المفهوم الإسلامى للتنمية الاقتصادية يقتضى أن تتوازن جهود التنمية ومن ثم لا يقبل فى الإسلام أن ينفرد بالتنمية المدن دون القرى ، أو تستأثر الصناعة بالتنمية دون الزراعة ، أو أن تقدم الكماليات أو التحسينات على الضروريات والحاجيات ، أو أن تسبق الصناعات الثقيلة أو المستوردة للصناعات الاستهلاكية أو المحلية ، أو تركز على المشروعات الإنتاجية دون الخدمات والتجهيزات الأساسية مما وقعت فيه كثير من الدول العربية غافلة عن الصيغة الإسلامية بضرورة التوازن الإنمائى .

وبالجملة : تتمثل غاية التنمية الاقتصادية فى :

١ ـ الإنسان نفسه ، ليكون بحق خليفة الله فى أرضه ، فذلك يحدد بواعث التنمية الاقتصادية فى الإسلام وغايتها وآثارها .

وفى التنمية الاشتراكية ، الباعث هو سد احتياجات الدولة وفق أطماع القائمين عليها أما التنمية الإسلامية فباعثها ليس الربح (شأن التنمية الرأسمالية) ولا أهواء القائمين على الحكم (الاشتراكية) ، إنما هو ضمان حد الكفاية لكل مواطن ليتحرر من أى عبودية حاكمية أو عبودية لغير الله تبارك وتعالى ، فغاية التنمية الإسلامية هو الإنسان نفسه حتى لا تستعبده المادة شأن التنمية الرأسمالية ولا يستذله الغير شأن التنمية الاشتراكية ، إنما ليسعد فى الدنيا بالعمل الصالح ويقدر ما يجزيه الله تبارك وتعالى فى الآخرة .

كذلك فإن من ميزة المفهوم الإسلامى ، انفراد الاقتصاد الإسلامى بضمانات فعالة لتحقيق التنمية الاقتصادية ، فقد انفرد الإسلام بضمانات فعالة لا تجد لها نظيرا فى سائر المذاهب والأنظمة الاقتصادية الوضعية ومن ذلك :

أولا : أن يمتنع شرعا على المسلم أن يكنز ماله أو يحبسه عن التداول والإنتاج بقوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ [سورة التوبة : الآية ٣٤] .

ثانيا : أن يمتنع على المسلم شرعا أن يصرف ماله على غير مقتضى العقل ، وإلا عد بنص القرآن سفيها وجاز الحجر عليه ، والمسلم مطالب بالرشد فى الإنفاق وإلا عد مجرما :

﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين** ﴾ [سورة هود : الآية ١١٦] .

والمسلم مطالب بعدم الغلو فى معيشته والاعتدال فى حياته .

ثالثا : متى استبان ما تقدم ، وأن المسلم لا يملك أن يكنز ماله أو يحبسه ولا يملك أن يصرف ماله على غير مقتضى العقل وإلا عد سفيها ولا يملك أن يعيش عيشة مترفة إلا عد بنص القرآن مجرما فإنه والحالة هذه كيف يتصرف فى ماله الزائد عن حاجته الضرورية خاصة إذا كان ثريا ، الجواب أنه بمقتضى الشرع الإسلامى ليس أمامه إلا سبيلين :

١ ـ أن يستثمر ماله فى مشروعات إنتاجية أو انتمائية .

٢ ـ أن ينفقه على الفقراء والمحتاجين فى مشروعات خيرية .

وقد عبر القرآن الكريم على الفائض الاقتصادى الذى هو مصدر تمويل عمليات التنمية الاقتصادية باصطلاح (العفو) أو (الفضل) ، وهو ما زاد عن الحاجة بعد ، فدعا إلى ضرورة إنفاقه كله فى سبيل الله أى فى سبيل المجتمع وتنميته .

كذلك :

١ ـ يرتفع الإسلام بالتنمية إلى مرتبة العبادة :

(وما عبد الله تمثل عمل صالح) .

٢ ـ لم يكتف الإسلام باعتباره العمل والتنمية فريضة وعبادة ، بل اعتبرهم أفضل ضروب العبادة :

قال النبى ﷺ للرجل الذى رغب فى الاعتكاف :

لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله (أى فى خدمة المجتمع وتنميته) أفضل من صلاته فى بيته ستين عاما (دكتور شوقى الفنجرى) .

ويلخص الدكتور حسن شحاته عملية التنمية الإسلامية فى العناصر التالية :

١ ـ الاعتماد على الذات فى الإنتاج فى كافة المجالات .

٢ ـ الاقتصاد فى الاستهلاك بكافة صوره وربطه بالأرباح .

٣ ـ الحض على الادخار بكافة الوسائل الممكنة .

٤ ـ تيسير سبل الاستثمار فى المجالات المشروعة .

٥ ـ تطبيق نظام الزكاة : زكاة المال والنظم المالية الإسلامية الأخرى ليحل محل الضرائب الوضعية .

٦ ـ وضع الضمانات لعدالة توزيع عوائد الإنتاج بما يمنع تكدس الثروات .

٧ ـ ضرورة إعداد العنصر البشرى وتنميته عقائديا وخلقيا واجتماعيا .

ثامنا : مشكلات الاقتصاد الوضعى

تعد مشكلة التضخم أشد عقد المشكلات فى الاقتصاد الوضعى المعاصر وترجع إلى اندفاع الدول المتقدمة ماديا فى استغلال الموارد المتاحة بمعدلات تفوق المعدل الطبيعى (المتوازن) ، ويعد هذا الاندفاع سلوكا منحرفا ينم عن المادية المفرطة ولا تقتصر آثاره السيئة على أصحاب الدخول المحدودة وإنما تمتد إلى الأجيال القادمة ، إذ تؤدى إلى نضوب الموارد فضلا عن التلوث وتدمير البيئة .

والمعروف أن دعاة المذاهب الوضعية لا تشير إلى الجانب الأخلاقى والسلوكى للإنسان، وهم لا يكشفون عن حقيقة التضخم وإنما يعمدون إلى طمس هذه الحقيقة .

ويلمس الفكر الاقتصادى الغربى فكرة الصراع بين طبقة أصحاب المصانع من الرأسمالية وظيفة العمال ، وهو صراع يدور حول الدخول ، إذ تحاول طائفة أن تستأثر بنصيب أكبر من الأخرى .

(وهو صراع حول المادة وليس حول المبادىء والقيم الأخلاقية) .

أما مشكلة الموارد البشرية فهم يعملون على وقف الزيادة السكانية عن طريق العمل على تخفيض عدد السكان ، متجاهلين حقيقة الأمر ، وهو أن الموارد البشرية تتسم بالوفرة ولكن الغرب يرمى من وراء ذلك إلى تقليص سكان العالم المتخلف ماديا من شعوبه كى تصبح ثروات العالم خالصة لهم دون سائر الناس ، فهم يدعون أن الموارد المادية محدودة بطبيعتها ، ووراء هذا الغرض هدف عنصرى يرمى إلى التخلص من المسلمين ، وهى نزعة عنصرية تستهدف تغليب مصالح الغرب الرأسمالى أو تغليب مصالح الشرق الماركسى وذلك لضمان سيطرة الغرب والشرق مجتمعين على شعوب العالم .

كذلك فإن المذاهب الوضعية المعاصرة تشن حملة شعواء لإحباط عملية التنمية الاقتصادية فى العالم المتخلف بدعوى أن الموارد المتاحة فى العالم محدودة بطبيعتها وأنها لذلك تتعرض للاستنزاف السريع نتيجة للعمليات التنموية التى باشرتها البلاد المختلفة فضلا عن أن تلك العمليات من شأنها أن ترفع من معاملات الشعوب .

وهكذا يتبنى دعاة المذاهب فلسفة عدائية للتنمية فى مواجهة العالم المتخلف بينما ينهجون فى مجتمعاتهم فلسفة مغايرة تماما ، إذ يندفعون فى عمليات الإنتاج واستغلال

الموارد بمعدلات أعلى من المعدل الطبيعى (التوازى) الأمر الذى يترقب بالضرورة سرعة نضوب الموارد وإرهاق الأرض ورفع درجة التلوث ، هذا فضلا عن فساد مقولة (أن الموارد المتاحة فى العالم محدودة) ، ذلك لأن الذى أنشأ الأرض وعرف عمرها وحاجة الناس عليها قد أودع فيها ما يكفى ويزيد عما يحتاجه الناس ، فهى مقولة باطلة لأنها مقولة وثنية مادية مضللة لا يقبلها الفكر الإسلامى ، كذلك تمارس الدول الشيوعية والرأسمالية ضغطاً شديداً على حكومات الدول المتخلفة وبوجه خاص العالم الإسلامى لكى ينفذ ما يسمى ببرامج تنظيم الأسرة لخفض الخصوبة بدعوى أن تزايد السكان هو العامل الرئيسى فى التخلف وفى المشكلة الاقتصادية بوجه عام ، وقد دفعوا البلاد الإسلامية إلى ممارسة كافة الوسائل الإنسانية لتخفيض معدلات الخصوبة (حبوب منع الحمل ، والتعقيم الإجبارى ، والإجهاض) .

٢ ـ مشكلة أزمة نقص الغذاء

إن السبب الرئيسى فى هذه الأزمة : هو انحراف سلوك الإنسان وانحراف ما يطبقه من فتاوى وأيديولوجيات ، ولكن دعاة المذاهب الوضعية يحاولون طمس الحقيقة بتوجيه اللوم إلى الطبيعة ومقولة إن الموارد المادية فى العالم محدودة بينما سكان العالم يتزايدون وفى نظرهم أنه لكى تحسم هذه المشكلة يجب وقف الزيادة فى السكان .

إنهم يجعلون العلاج من جانب السكان لا من جانب زيادة الإنتاج ، إن التفسير الإسلامى لأزمة الغذاء أنها نشأت واستعملت لا لسبب زيادة الطلب على العرض أو زيادة السكان ومحدودة الموارد وإنما نشأت الأزمة واستحكمت نتيجة لقصور فى العرض (الإنتاج) وعدم ملاحقته للطلب ، إن إحصائيات السكان تؤكد أن العالم لم يشهد طفرة سكانية خلال النصف الثانى من القرن الحالى ، بل العكس هو الصحيح فقد سجلت معدلات النمو السكانى انخفاضا ملحوظا فى كثير من بلاد العالم .

كذلك فإن مساحة الأرض الزراعية لم تسجل أى زيادة وإنما العكس فقد تناقصت لكى يظل التوازن بين العرض والطلب قائماً .

إذن فما هى الأسباب الحقيقية لتصور العرض وعدم زيادة الإنتاج ؟ ..

الجواب : هو الإنسان وانحراف سلوكه .

إن المشكلة ليست مشكلة تزايد عدد السكان فحسب ، ولكنها مشكلة ذات أبعاد ثلاث :

١ ـ النمو السكانى .

٢ ـ توزيع السكان (أى الكثافة السكانية) .

٣ ـ خصائص السكان ومستواهم الثقافى والفنى والصحى .

إن دراسة المسألة عن طريق زيادة أعداد السكان فقط دون البعدين الآخرين إنما يعكس تحيزاً صارخاً .

٢ ـ إن الأرض الزراعية فى البلاد المختلفة تتناقص مساحتها بسبب زحف المدن وإقامة المصانع .

٣ ـ إن التكنولوجيا الحديثة فى مجال الزراعة قد أحدثت آثاراً مدمرة للأرض والبيئة ، كالتصحر وزحف الصحراء أو التلوث ، فضلا عن تطارد الزوائد فى المواد الكيماوية مما يؤدى إلى تلاشى غاز الأوزون .

٤ ـ إن العدد من الصناعات الحديثة يمر بدرجة عالية من التلوث .

٥ ـ إن بعض الدول المتخلفة تنهج نهج سياسيات زراعية غير ملائمة ، إذ تعمل على إحلال المحاصيل كالقمح والحبوب بمحاصيل أخرى كالقصب والقطن انصياعا لخبراء الدول الشيوعية والرأسمالية بدعوى أن ذلك يأتى من موارد الدول المتخلفة من العملات الأجنبية فأصبحت بذلك هذه الدول مستوردة للقمح والحبوب والمحاصيل الغذائية .

٦ ـ إن من يعتقد أن ندرة المورد الأول ووفرة الموارد البشرية ، أى زيادة السكان هى المسئولة عن المشكلات الحاضرة ، فإنه إما أن يكون متحيزاً أو يكون قد جانبه الصواب .

* * *

تاسعا : الزكاة دعامة التكافل الاجتماعى

أولا : مكانة الزكاة فى الاقتصاد الإسلامى :

إن أعظم معطيات الاقتصاد الإسلامى :

أولا : إقامة قاعدة التكافل الاجتماعى بشرعة الزكاة .

ثانيا : حماية المجتمع من أن تقوم دولة من الأغنياء وذلك بتوزيع الميراث .

وقد ارتبط الاقتصاد الإسلامى بالتكافل الاجتماعى فالزكاة فريضة شرعية ألزم بها الإسلام كل مسلم يتوافر له نصاب الزكاة ، فهى حق الجماعة فى عنق الفرد ، فهى تخلص المجتمع من الأحقاد والفتن ، لأنها تكفل حد الكفاية للفقراء والمساكين .

والزكاة واحدة من أركان الإسلام الخمس وركيزة من ركائز الموارد الاقتصادية ولبنة من لبنات إعادة توزيع الدخول ورفع المعاناة عن الكادحين والفقراء والمساكين وقد نجحت الزكاة فى الموائمة بين مصالح الفقراء وحقوق الأغنياء وهى السبيل الوحيد لضمان عدالة توزيع ثروات الأمة .

أما الرأسماليون فيجعلون الفقر نتيجة قلة الإنتاج ، وقد رتبوا على ذلك أن على الدولة أن تبيح الحرية المطلقة للجميع لينتجوا ويكسبوا دون قيد أو شرط ويردون الفقر إلى سوء حظهم بشح الطبيعة أو قلة الموارد . أما الاشتراكية فتعتبر أن المشكلة فى الأغنياء أنفسهم باستئثارهم دون الأغلبية الكادحة بخيرات المجتمع ما يتمثل من نشوء التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع فقصة الفقر فى الاقتصاد الاشتراكى أساساً تتركز فى سوء التوزيع ، وقد رتب الاشتراكيون على ذلك نظرياتهم فى الصراع بين الطبقات والتركيز على تغيير أشكال الإنتاج بتصفية الملكية الخاصة .

أما الإسلام فلا يرد الفقر إلى قلة الموارد أو يجعلها سببا للفقر (كما يصورها الرأسماليون) كما أن الأغنياء ليسوا سبب الفقر .

وإنما يجعل الإسلام سبب المشكلة فى القصور فى استغلال الموارد الطبيعية ، لا قلة هذه الموارد ﴿ **وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [سورة إبراهيم : الآية ٣٤ ، وسورة النحل : الآية ١٨] .كما يرده إلى أثرة الأغنياء وسوء التوزيع ، لا الملكية الخاصة نفسها ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة :

﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** ﴾ [سورة يس : الآية ٤٧] .

ومن وسائل الإسلام لتحقيق عدالة التوزيع : مبدأ مساعدة الغنى للفقير من خلال الزكاة والصدقة والإحسان والبر .

ولذلك فقد عنى الإسلام بتطبيق فريضة الزكاة وجعل للسلطة الحاكمة دوراً كبيراً فى هذه المهمة لأنها ليست فريضة شخصية خاصة أو علاقة روحية بين العبد وربه ، ولكنها نظام يمس المجتمع كله ويقوم عليه نظام الحكم أيضاً .

ولهذه العناية مظاهر متعددة منها أنه جعلها أمراً مفروضا وليس أمراً اختيارياً يوكل أمرها إلى ضمير الإنسان نفسه ، فالنفس شحيحة بالمال كمظهر من مظاهر غريزة الملك وهذا ما يقيده التغيير فى الآية الكريمة .

﴿ **فريضة من الله** ﴾ فهى فريضة على كل من يستطيع لها بالحد المقرر .

لقد كانت الزكاة محاربة لكل أسباب الفقر وأشكاله .

فالإسلام لم يقر الفقر بمعنى عدم امتلاك ما يكفى لسد حاجة الإنسان ، لأن هذه الحالة المرضية تنفى كرامة الإنسان بما يصيبه من الجوع والمرض والعرى والتشرد .

ولم يكتف الإسلام بموقف سلبى يهدف إلى رفض الفقر ، وإنما اتبع منهجا إيجابيا فى إيجاد العلاج .

لقد عالج الإسلام الفقر بأن جعل فى مال الغنى حقا للفقير ، فلا يموت الغنى من التخمة ولا يموت الفقير من الجوع .

وقد استهدف الإسلام إلى إغناء كل فرد فى المجتمع الإسلامى أيا كان هذا الفرد ، وكذلك قرر الإسلام بواسطة الشريعة غير المنفصلة عن العقيدة حق المحتاجين فى أموال الأغنياء وبما يكفى حاجتهم .

وقد جعل اقتصار هذا الحق (كما يقول دكتور فوزى عطوة ...) بإحدى سبيلين :

الأول : الأداء الاختيارى من جانب المسلم استجابة لروح الأخوة والتراحم .

والثانى : فى إقرار حق المسلم ، فإذا لم تتحقق الكفاية بالزكاة ، فمن حق الدولة أن تأخذ من فضول أموال الأغنياء ما يحقق حاجات الفقراء .

فهناك حق الجماعة فى موارد الدولة بما يسمى (التكافل العام) وهكذا كان اشتراع أنواع الزكاة فى الإسلام محاربة من الدين الحنيف لكل أسباب الفقر وأشكاله ، وكذلك إقرار سلطة الجماعة فى التدخل إلى حد نزع الملكية الفردية مع التعويض العادل إذا كان تصرفا جائراً .

إن ما حدث للبلاد الإسلامية على مستوى التحولات الاقتصادية هو :

أن الزكاة استبعدت كركن أساسى فى النظام الحالى ، وحل محلها الضرائب فى جانب الإيرادات ، وكذلك ألغيت مصارف الزكاة فى جانب النفقات وحل محلها التأمينات الاجتماعية فى المرحلة المبكرة من الفكر الرأسمالى ، ثم حل محلها (الدعم) فى المرحلة المتأخرة المتأثرة بالفكر الاشتراكى .

إن أكبر أنواع الخلل فى الاقتصاد الوضعى ، هو الفجوة بين الموارد والاستخدامات العامة ، ويرجع الخلل أصلاً إلى أدوات السياسة المالية المستخدمة بالتالى فلا علاج إلا بإعادة النظر فى هذه الأدوات بين نظام مختلط من الفكر الرأسمالى والفكر الاشتراكى .

وعن أعمق الفوارق بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى ، هو موقفه من الرعاية الاجتماعية فهى فى موازنة الدولة الوضعية فى آخر الطابور بينما يصر الإسلام على أن التنمية الاجتماعية والتكافل يقف على قمة استخدامات الدولة ، لأن المجتمع المسلم حريص على تحرير الإنسان المسلم والأمة المسلمة ، حيث لا يترك الإسلام المسلم لمجرد الرغبة بل يضع له الشريعة لتكمل العقيدة ، فيجعل الزكاة حقا معلوما للسائل والمحروم لتحرير كل إنسان فى الأمة الإسلامية من ذل الحاجة ، وحتى يستطيع أن يقول كلمة حق ، وحتى يستطيع أن يكون فرداً إيجابياً .

وهكذا فإن الإسلام يقرر نظاما يحقق للفرد أساس الكفاية ويحقق من ورائها الحرية ، ثم يلقى عليه المسئولية حتى يتحول المجتمع إلى خلية نحل .

ويختلف نظام الزكاة عن نظام الضرائب ، فالضرائب تكون على الدخل ، أما الزكاة

فتفرض على الدخل ورأس المال فى الثروة النقدية وعروض التجارة ، وفى التجارة وفى الزراعة فتؤخذ على الدخل ، وبالتالى فهو نظام لا يوجد له مثيل حاليا وهو طريق المجتمع المسلم لإعادة التقارب الاقتصادى والاجتماعى بين فئات المجتمع .

(وتبلغ ودائع البنوك التى تستحق عليها الزكاة (٥٠ مليار جنيه) أما الدخول الخفية لبعض الأجانب فتقدر بـ ٣٥ مليار جنيه ، وتبلغ ودائع المصريين التى لم تدخل البلاد ٥٠ مليار جنيه هذا فضلا عن عروض التجارة والزكاة فلو أخذنا على هذا كله ٢,٥ فى المائة أعتقد أن حصيلة الزكاة لن تقل عن ثلاثة مليار جنيه بأى حال من الأحوال .

وستظل الزكاة تنفرد بوجود وازع من داخل مؤديها بأن ما يفعله قربة لله تعالى ووقاية له من عقابه ، وهو ما لا يتحقق فى أى أنظمة مقابلة للضرائب ، ومن ثم فإن حصيلة الزكاة تعتمد على قوة الإيمان ، أما الضرائب فتعتمد على قوة السلطان هذا فضلا عن (لا مركزية الزكاة) فهى من دلائل إعجازها الإلهى كما قال الإمام النووى .

التوسط فى الاقتصاد الإسلامى :

ليس بالوسط الحسابى المعروف فى الاقتصاديات غير الإسلامية ، أما التوسط فهو خلق نقى يتسم بخاصيتى السعى (الحلال) وحسن التدبير .

ملاحق البحث :

أولا : مفهوم الإسلام للتقدم :

يقرر الدكتور أحمد النجار : أن التحدى الأساسى الذى نجابهه كدولة إسلامية هو أساساً فى المجال الاقتصادى ، وهذا المجال هو الذى تصدى له الإسلام تصديا عمليا تطبيقيا يضمن حقيقة التقدم فى المجتمع الذى نسير وفقا له يقدم بالمعنى الشامل ، ليس التقدم المادى فقط وإنما فى الحياة الكريمة على ظهر الأرض .

إننا حين نراجع ما كتبه الغربيون عن التنمية وبعضهم من اليهود (أمثال هرشمان وكند لميرحرواتشاين وآخرين) إن بعضهم يحاول استخدام المنهج العلمى فى غير مكانه ولأن لنا منهجنا الخاص فنحن متخلفون لأننا مسلمون ، فيقولون إن الإسلام هو سبب التخلف .

إن مجرد تطبيق شرع الله كفرض على ظهر هذه الأرض يحقق إعمار الأرض أى تنمية جادة ومتوازنة ومستمرة حتى قيام الساعة ، فالحل أن نعود إلى الإسلام كمنهج حياة .

ثانيا : التخلف فى مفهوم الإسلام ـ كما يقول الدكتور أحمد النجار ـ يعود إلى مشكلة سلوكية من اللامبالاة وانتشار الرشوة والغش وعدم الأمانة : كل هذه هى مظاهر التخلف .

لقد أصبح المسلمون فى حالة من الركود وضعف العقيدة وفقدان القوة وعدم وضوح الأوليات ، فقد جعلنا نركز على الشكليات ونستغرق فى أمور سطحية تستنفذ جهودنا ووقتنا وفقدنا الأوليات .

إننا إذا نظرنا فى جذور أى حضارة نجد أنها تكمن فى العقيدة .

إذا قلنا إن التنمية هى تغيير الطاقات المادية والبشرية ، بقى أن نقول من الذى يحرك ذلك الجهاز فى انسجام تام حتى تتحقق النتائج فإن الدين هو العنصر الوسيط الذى يتم التفاعل به مع العناصر المختلفة .

علينا أن نستفيد من مواقف النبى ﷺ من متطلبات العصر ، وفى نفس الوقت نحدد أوليات عملنا ويبقى التخطيط فيها كما خططه رسول الله ﷺ .

ثالثا : **الزكاة** : عبادة من أركان الإسلام الخمسة وركيزة من ركائز الموارد الاقتصادية ولبنة من لبنات إعادة توزيع الدخول ورفع المعاناة عن الكادحين والفقراء والمساكين وتحقيق التوازن بين مصلحة الفرد والجماعة .

وقد ارتبط الاقتصاد الإسلامى بالتكامل الاجتماعى من حيث أن الزكاة فريضة شرعية ألزم بها الإسلام كل مسلم يتوافر له نصاب الزكاة ، فهى حق الجماعة فى عنق الفرد من شأنها أن تخلص المجتمع من الأحقاد والفتن ، لأنها تكفل حد الكفاية للفقراء والمساكين .

ويعد قانون الزكاة خطوة إيجابية نحو تطبيق منهج الاقتصاد الإسلامى ولو طبق نظام الزكاة فسوف يحل العجز فى ميزان المدفوعات ويحرر المجتمع من الربا .

رابعاً : إن ظاهرة المصارف الإسلامية كمؤسسات تطبق منهج الله تبارك وتعالى فى المعاملات المالية هى من الخطوات الحاسمة فى إقامة منهج الاقتصاد الإسلامى وليس هناك

تعارض بين البنوك الإسلامية والتجارية حاليا ، فكل له فلسفة ، حيث أن البنوك الإسلامية تشارك فى المشروعات الأخرى .

ولا أمل فى إصلاح مشاكلنا إلا فى البنوك الإسلامية إلا بالأسلوب الذى ينبغى أن يكون عليه بمعنى أن تكون مؤسسات تعمل على تفجير الطاقات البشرية والمادية فى كل منطقة بجهود الناس لتخفيف العبء عن الدولة .

* * *

خاتمة

مخططات ثلاثة خطيرة لاختراق الأمة الإسلامية

بالرغم من الخطوات التى حققتها الصحوة الإسلامية على طريق الأصالة والتقدم والصعود وإرساء القيم الأساسية ، فإن محاولات الغزو الفكرى ما تزال تعمل من أجل التدمير والاحتواء ، وهى محاولات تجرى عن طريق خطط جديدة لاحتواء الأمة الإسلامية واختراقها فى ركائزها الأساسية ، وخاصة مجالات التعليم والثقافة ، وفى المجال الواسع الخطير مجال النمو السكانى الإسلامى .

التقرير الأول : تخفيض سكان العالم الإسلامى :

أولا : وثيقة حملة عالمية لتدمير الإسلام :

أشارت الوثيقة إلى خطة دولية لتخفيض النمو السكانى فى العالم الإسلامى ويتم تنفيذ الخطة تحت شعارات براقة محببة لجماهير العالم الإسلامى : « تنظيم النسل » « الفاصل الزمنى للإنجاب » وتتولى مسئوليتها ثلاث فئات هى :

١ ـ رجال دين محليون .

٢ ـ مجموعات نسائية نشطة .

٣ ـ مجموعة المستقبل . وهى منظمة أمريكية خاصة ويتم تمويلهم جميعا من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية .

أشارت الوثيقة إلى ضرورة طرح برامج تحديد النسل بحرص ودقة شديدة ، وألا يتم صبغها بالجانب السياسى حتى لا تؤدى إلى نتائج عكسية ، واستعرضت الوثيقة جهود ودور الوكالة الأمريكية فى عدد من بلدان العالم الإسلامى منها مصر ونيجيريا والنيجر وتشاد والأردن ، مشيرة إلى أن برنامج الوكالة لتحديد نسل المسلمين تتعرض لمصاعب جمة بسبب تنامى المعارضة الإسلامية والتى نجحت إلى حد كبير فى إقناع جماهير المسلمين بإثم تحديد النسل ، كما تعرضت الوثيقة لاستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية وحلف شمال الأطلنطى لمواجهة التزايد السكانى فى بلدان العالم الإسلامى ، فأكدت أن تصاعد اتجاه الزيادة السكانية فى العالم الإسلامى فى الوقت الذى تسجل فيه الدول الغربية معدلات نمو

سكانية منخفضة سيؤدى بالضرورة إلى حرب ضد المسلمين يستخدم فيها حلف شمال الأطلنطى نفوذه وقوته وبرامجه الاستخبارية لاحتواء التهديد المتزايد للإسلام .

وأكدت الوثيقة أن كافة الدلائل تشير إلى أن بلدان العالم الإسلامى ستصبح قوة ذات تأثير قوى ، وستؤدى إلى تغير كبير فى ميزان القوى العالمية خلال العشرين عاماً القادمة بعد أن ارتفعت معدلات نموها السكانى وأن على أمريكا ودول حلف شمال الأطلنطى بذل الجهود القصوى للحد من النمو السكانى فى العالم الإسلامى والسيطرة على موارده الطبيعية .

واستعرضت الوثيقة جهود الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USATD) بشأن تخفيض النسل فى أقطار العالم الإسلامى ، فأشارت إلى أن الوكالة أطلقت منذ خمس سنوات برنامجا زمنيا لنشر المفاهيم الأفكار الدينية المحرفة بين علماء الإسلام فى شمال نيجيريا حول تخفيض النمو السكانى وتحديد نسل مسلمى نيجيريا ، وقد اعتمدت تلك المفاهيم والأفكار على دراسات أشرف عليها خبراء الوكالة الأمريكية وحلف شمال الأطلنطى وأصبحت جزءاً من برنامج تعاونى بينهما يهدف إلى التحكم فى الزيادة السكانية فى دول العالم الإسلامى ، ويتم تنفيذه خلال عدة وكالات خاصة وحكومية يتم تمويلها من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ، وكان من بين هذه الدراسات دراسة انتهى العمل فيها عام ١٩٨٨ عنوانها (مصادر مرجعية عن الإسلام وتنظيم الأسرة من وجهة نظر خاصة بالمدرسة المالكية) أعدها البرفسور عبد الرحمن عمران مستشار وزارة الصحة النيجيرية .

وفى الحقيقة فإن البروفسور عمران مصرى المولد ، ورأس مركز التنمية الدولية وإدارة الصراعات فى جامعة ميرلاند الأمريكية والتى عمل فيها منذ عام ١٩٨٠ ، كما قام بتدريس مادة Epioemi ology فى جامعة كارولينا الشمالية بأمريكا ، وساهم فى إعداد دراسة لحلف الأطلنطى بعنوان (تأشيرات الاتجاهات السكانية على مصالح الولايات المتحدة عبر البحار .

وملخصها أن برامج تخفيض السكان فى العالم الإسلامى لابد أن تمارس وتطرح على الرأى العام المسلم بحذر ويقظة شديدة ولا يتم صبغها بالجانب السياسى ، لأن ذلك يؤدى إلى نتائج مضادة وخطيرة فتنتهى البرامج بالفشل .

وأوضحت الدراسة أن التأثير على مفاهيم وأفكار المسلمين حول برنامج تحقيق السكان

يبدأ بتوجيه أهدافها إلى علماء الإسلام القياديين والمجموعات النسائية النشطة ، والذين يتم اختبارهم بحرص ودقة شديدين ويكونوا مرتبطين معنا ومع الفلاسفة والمفكرين الأجانب المهتمين بتخفيض النمو السكانى فى العالم الإسلامى ، وعلينا إعدادهم (علماء الدين والمجموعات النسائية) لقيادة أنشطة وعمل برامجنا .

وكشفت الدراسة عن اشتراك جهة ثالثة تقوم بتمويلها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ، وهى مجموعة المستقبل ، وهى منظمة أمريكية تهتم بالتحليل والتخطيط الاستراتيجى وتعمل بها مجموعة كبيرة من الخبراء العسكريين والسياسيين الأمريكيين .

ومن بين المصطلحات التى أوردتها الدراسة : تنظيم الأسرة ، والفاصل الزمنى لإنجاب الأطفال .

والعائد المتوقع من برامجنا هو إظهار قبول قيمة وسلوك تنظيم المواليد لكى تشجع قيادات أخرى أقوى فى هذا الشأن .

وقد شددت الوثيقة على ضرورة إعداد قائمة بأسماء الدينيين المحليين والمجموعات النسائية النشطة ؛ لمساعدتنا فى تصحيح مفاهيم الإسلام فى تنظم الأسرة وإيجاد الحوافز للرجال والنساء المسلمات للتحكم فى مواليدهم وتطبيق نظام الفاصل الزمنى للإنجاب ، وأشارت الوثيقة إلى أن محاولات تسلل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية إلى المؤسسات لإضفاء الصفة الشرعية على برامج تنظيم الأسرة ليست جديدة كما أنها ليست قاصرة على نيجيريا ، كما أن نجاح المعارضة الإسلامية فى كشف هذا التسلل ليس قاصرا على نيجيريا.

كذلك فقد أجرت الوكالة دراسة فى مصر ١٩٨٣ تحت عنوان تنظيم الأسرة ومعارضة القادة الإسلاميين ، أصدرها (م . س. بسيونى) أكدت أن الخطط والبرامج لكبح زيادة السكان لن تتم إلا بإحداث تغيير المعتقدات الدينية والتقاليد الثقافية ، وأشارت هيئة التنمية أنه عام ١٩٨٨ بدولة النيجر (وهى هيئة خاصة يتمويل غربى) إلى أن التجمعات الإسلامية قد رفضت بشدة الخطة القومية لبرامج تنظيم الأسرة باعتبار أن الطفل بركة وعطاء من الله ، وأنه من الإثم منع الحمل ونصحت الوكالة الأمريكية بتحسين عملها الدعائى بحيث تركز على الأخطار الصحية على النساء والأطفال من جراء الحمل المتكرر وعدم الاكتفاء بالمطبوعات بل وبعمل زيارات منزلية خاصة للفلاحين وإقناعهم بتغيير اتجاهاتهم حول التحكم فى مواليدهم .

وأوضحت الوثيقة أن الإسلام كان هو السبب والعقبة الرئيسية أمام برامجهم لتخفيض النسل ورفض المسلمين للوسائل الحديثة للتحكم فى مواليدهم .

وتعرضت الوثيقة الخطيرة لاستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية وحلف شمال الأطلنطى لتخفيض النمو السكانى فى دول العالم الإسلامى .

وقد منحت الوكالة منذ أوائل التسعينات عبر وكالاتها المتعددة الجنسيات أموالا ضخمة إلى العالم الإسلامى فى محاولة لإقناع الشخصيات ذات التأثير الكبير بشكل إيجابى حول الحد من النمو السكانى ، ولكن عدم القبول من الشعوب الإسلامية يأتى فى وقت تنمو فيه معدلات النمو السكانى بينهم بشكل حاد وخطير ، بينما تسجل الدول الغربية معدلات نمو سكانى منخفضة ، وتصاعد اتجاه الزيادة السكانية فى العالم يؤدى إلى ضرورة البدء فى حرب باردة جديدة ضد المسلمين يستخدم فيها حلف الأطلنطى نفوذه وبرامجه الاستخبارية ، وأشارت إلى تقرير مركز الدراسات الاستراتيجية حيث أكدت أن معدلات المواليد المنخفضة فى دول حلف شمال الأطلنطى قد أنتجت مجتمعا كهلا حيث تزداد نسبة كبار السن والذين يشكلون عبئاً على القوة العاملة بما يهدد بخلق حالة من الركود الاقتصادى ، ويؤدى فى النهاية إلى ضغط نفقات الدفاع ، وحذرت أن القوة التقليدية لقوات الحلف سوف تعانى بشدة من جراء ذلك ، وأن أعضاء الحلف يشعرون بضيق شديد من أعباء مشاركتهم فى الحلف مما يؤدى إلى احتمال زيادة تفككه .

وتشير الدراسة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية والتى كانت تشكل ٦ ٪ من سكان العالم فى عام ١٩٥٠ ستخفض إلى ٤ ٪ بحلول عام ٢٠١٠ م وأن ٨١ ٪ من سكان العالم خلال العشرين عاما القادمة سوف يكونون من دول العالم الثالث والذى يشكل العالم الإسلامى غالبية شعوبه .

وأن التغير فى التوزيع السكانى قد يؤدى إلى تغير فى التوازن بين القوى العالمية فى خلال العشرين عاماً القادمة ، وأن دول العالم الإسلامى ستصبح قوة ذات تأثير قوى ، ومن هنا فإنه ليس هناك خيار كبير أمام أمريكا خلال العقود القادمة إلا ببذل الجهود القصوى للحد من النمو السكانى فى العالم الإسلامى والسيطرة على موارده الطبيعية .

* * *

[٢]

التقرير الثانى : الاختراق الأيديولوجى

يتمثل فى خطط أمركة العقل الإسلامى أو تهديد العقل العربى أو ما يسمونه الاختراق أو الغزو الأيدلوجى الذى يتم من خلال منظمات أو جمعيات أو مركز دراسات أو أفراد يسمونهم مفكرين وعلماء أو مثقفين وقد تبدو أنشطة هذه التجمعات وأبحاثها فى دراسات علمية وإلحادية وموضوعية وتقدميه .

ما هى الحالات التى وراء هذا المخطط ، وما هو هدف الممولين ولمصلحة من يجرى تفجير الصراعات والنزاعات .

يقول الدكتور رفعت سيد أحمد : إن إسرائيل تريد تحقيق حلمها الأكبر فى السيطرة على هذه المنطقة وإلغاء أية هوية إسلامية أو عربية لها ، ولعل مذبحة الخليل نموذج حى لنوايا اليهود تجاه الإسلام والعروبة معا ، وما يتردد من أوهام السوق الشرق أوسطية هو فى الواقع انعكاس لرغبة إسرائيلية غربية فى السيطرة الكاملة على المنطقة العربية .

ومن هنا يتطلب الأمر ألا تبدع أساليب جديدة للمقاومة ، لأن الأمر صار يتعلق بهوية هذه الأمة ومستقبلها بالفعل ، من هنا لابد من تنويع ودعم أساليب المقاومة الشعبية على أوسع نطاق بدءاً بالثقافة والصحافة وتعرية التطبيعيين الجدد أولا بأول ، مروراً بمناطق السلع والشركات والمؤسسات الأمريكية والإسرائيلية فى جميع نواحى الإنتاج والتسويق وانتهاء بإعادة الاعتبار لفلسفة الاستشهاد ضد رموز التطبيع .

وتتركز هذه العملية فى مركز البحوث السياسية بجامعة القاهرة ومركز الدراسات السياسية بالأهرام .

ويرى محمد حسنين هيكل أن هناك مخطط لتطويع العقل العربى ويقول : إن ما نراه حولنا مما يحدث الآن هو فى الحقيقة نتيجة عشرين سنة ماضية (١٩٧٣ ـ ١٩٩٣) من المؤاتمرات والندوات والمناقشات التى هدفها تطويع العقل العربى فى عملية استدراجه خطوة خطوة بحيث يمكن قبول ما يمكن قبوله ، وهى عملية تهيئة فكرية للمجتمعات تبدأ عن

طريق أفكارها عند ما احتلت اليابان لم تنزع سلاح الجيش اليابانى أولا ولكن كان أهم شىء هو برنامج التعليم والثقافة .

وإننى موافق بأن كل الأمم مطالبة بأن تغير وتفكر وتتحرك فى الموروثات ، وأن تجارى وتراقب وتستوعب ، وأن تدخل فى حوار مع العالم ، لكنها لابد أن تكون واعية لوجودها هى وأن تقف على أرض صلبة فى إطار ما تتصوره لنفسها من عوامل المستقبل .

وأعتقد أن هناك مائة مليون دولار مرصودة لهذا النوع من الأبحاث ، وما أخشاه أن المثقفين والعلماء وكل الذين يشاركون فى إعداد هذه الأبحاث يدخلون فى عملية تطويع لعقولهم ولأفكارهم من خلال العمل فى هذه المشروعات .

ويجب أن يكون معلوما أن هناك فارق بين أن نكون فى حوار مع العالم أو أن نكون طرفا تابعين لما يتحاور فيه العالم .

وعلينا أن نحدد ما هى التطورات الجديدة وما هى الحقائق الجديدة وما نريده نحن وأين موقفنا منها ، ولكن العقل العربى اكتفى بالترجمة ، ويمكننا أن نترجم إذا ألفنا ونؤلف إذا ترجمنا .

ويقول محمود بكرى (جريدة الشعب) أن هدف تطبيع العلاقات الثقافية بين مصر وإسرائيل ، أحد الأهداف السياسية للمعونة الأمريكية ، حيث وضعت الإدارات المتحدة المتعاقبة هذا الهدف كأحد الأغراض الرئيسية لتوجيه برامج المعونة .

وكانت حكومة شامير تركز بشكل أساسى على التطبيع الثقافى فى مصر وتعتبره فاتحة السلام الحقيقية ، غير أن رفض الشعب المصرى للتطبيع الثقافى مع إسرائيل جعل الحكومة تتباطأ فى اتخاذ خطوات التطبيع فى هذا المجال .

ولا ريب أن تطويع العقل العربى هو تعبير مغلف للتطبيع الثقافى وأن التقارير الثلاثة تؤكد خطورة حملة التغريب الجديدة للوصول إلى ما أطلق عليه (الاختراق الأيديولوجى) .

* * *

التقرير الثالث : تطوير التعليم

أولا : تقليص منهج التاريخ الإسلامى حتى أصبح لا يتجاوز ٤٠ صفحة مع الاقتصار فى عرض الأحداث والشخصيات الإسلامية البارزة فى تاريخ المسلمين ، واختزال صفحات تاريخ الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وأبطال الإسلام ممن كان لهم الأثر العميق فى تغيير مجرى الأحداث والذين عاشوا قدوة للأجيال .

ولقد كان التركيز على إلغاد عناصر القوة فى التاريخ الإسلامى للقضاء على ركيزة هامة هى مصدر ترسيخ العقيدة وتعميق الإيمان .

٢ ـ ترديد مقولة المستشرقين فى كتب الدراسة المقررة بأن الإسلام انتشر بالسيف وليس بالقدوة والعدل والحجة كما يحدث بذلك التاريخ الصحيح .

٣ ـ حذف مواقع تاريخ الرسول ﷺ والإسلام الأول مع اليهود ، وحذفت بالكامل غزوات خيبر وبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ومؤته وتبوك .

٤ ـ تجاهل مراحل وشخصيات هامة فى تاريخ الدين وعلى رأسها الأنبياء : آدم ونوح وقصة الطوفان ، ويظل التلميذ متصوراً أن النبوة انحصرت فى ثلاثة أنبياء هم موسى وعيسى ومحمد ﷺ .

٥ ـ محاولة إقرار مفاهيم غير صحيحة كالقول بأن إخناتون أول من نادى بالتوحيد ، وأن رسالة موسى هى أول رسالة توحيد (مع أن التوحيد جاء مع أول الأنبياء) .

٦ ـ محاولة تثبيت مقولة باطلة وهى أن الإنسان والقردة مشتركان فى الأصل .

٧ ـ إحياء تاريخ مصر الفرعونية فى محاولة ترمى إلى أن تثبت فى ذهن الطفل هذا المصطلح وفصل مصر عن العرب والإسلام مع العلم بأن عصر الفراعنة انتهى منذ آلاف السنين ، ولكن العروبة والإسلام باقيان أبد الدهر ، فمصر كانت فرعونية ثم أصبحت عربية إسلامية .

٨ ـ إلغاء قضية التأثير المتبادل بين الحضارتين الإسلامية والحضارة الأوربية ، وإلغاء فضل أثر الحضارة العربية الإسلامية فى الحضارة الأوربية بينما أبقى على أثر الحضارة الأوربية فى المجتمع المصرى الحديث .

٩ ـ إلغاء القسم الحافل بالبطولات الإسلامية والانتصارات والمؤلفات والإبداعات وسيادة الإسلام المطلقة للعالم خلال عشرة قرون متتالية .

١٠ ـ محاولة إقرار خطأ شائع وهو أن مبدأ اليقظة الإسلامية العربية بدأ بالحديث عن استعمار الشرق العربى الإسلامى ، وأن اليقظة بدأت بالاتصال بالعالم الغربى والفكر الأوربى .

ولا شك أن هذا العرض يشعر الطالب العربى والمسلم بالدونية ويدفعه إلى التسليم للعالم الغربى بالقيادة ، وتتكون عنده رغبة لا شعورية فى الانتماء إلى العالم المتقدم .

ولكن عندما تقرر الحقيقة وهى أن الفضل فى تقدم هذا العالم الغربى يعود لأمتنا الإسلامية فى انتشال هذه البلاد من ظلمات القرون الوسطى إلى نور المعرفة ، سيدرك أن أسباب تخلف الأمة الإسلامية هو انصراف المسلمين عن عوامل القوة التى أعطاها لهم الإسلام .

١١ ـ عرض المذاهب الفلسفية مبتورة عن ظروف نشأتها ، مما يجعل الفلسفة غامضة بدون معنى أو هدف خاص عند المبتدئين فى دراستها ، فعندما يعلم التلميذ أن لكل مذهب فلسفى من هذه المذاهب ظروفا دينية نشأ فيها وأدت إليه ، يعلم أنه مرتبط بظروف عصره وبيئته ، ولنا أن نأخذ من هذه الأفكار ما يوافق ظروفنا ومجتمعنا ونترك ما لا يتفق معها ، فنحن مجتمع وسطى مؤمن متكامل .

ثانيا : الأصابع الخفية وراء حذف الهوية الإسلامية من مناهجنا التعليمية :

تشير الوثيقة الخاصة بتطوير التعليم ، إلى قيام منظمة عالمية تسمى (الإسلام والغرب) تم تأسيسها فى نهاية السبعينات فى جنيف لإحداث تغييرات جذرية فى مناهج تعليم البلدان الإسلامية ، وبخاصة مصر ، وقد تكونت المنظمة من شخصيات صهيونية وصليبية ودعمتها جهات دينية غربية مشبوهة ، وقامت الفاتيكان والمؤسسة الشبابية الخيرية بإيطاليا والمؤسسة الدولية للإنسان والعلم بالولايات المتحدة على إنشاء منظمة تحت اسم (الإسلام والغرب) قدمت لها منظمة اليونسكو ـ والاسسكو والمجلس الثقافى الأوربى ومعهد جورج إيكرت معونات مالية .

وقد عقدت ندوة الإسلام والغرب فى أكتوبر ١٩٧٧ من أجل التوصل إلى مفاهيم

أفضل بين الإسلام والغرب عن طريق تغيير مناهج التاريخ والمواد الدراسية .

وأصدرت المؤسسة دستورها تحت عنوان :

(مراجعة كتب التاريخ وتحسين الجهاز التربوى للإسهام فى إقامة مفاهيم أفضل بين الإسلام والغرب) وتشير الوثيقة إلى ضرورة بذل الغرب جهداً كبيراً لتغيير صورته المرسومة بالكتب الدراسية الموجودة فى الأقطار العربية والإسلامية .

والهدف هو :

إعادة صياغة تلك الكتب لتحقيق التفاهم بين الغرب والإسلام وتحقيق التجانس الفكرى بين الأقطار الإسلامية نفسها عند تصورها لتعاليم الإسلام .

ومراجعة الموضوعات والانحرافات التى حالت دون قيام تفاهم إسلامى غربى وإعداد مادة تعليمية مشجعة على قيام تفاهم مشترك بين الغرب والمسلمين ، وكذلك إعادة صياغة عقلية أبناء شعوب الدول العربية والإسلامية وأجيالها الجديدة وفقا للتفكير الأمريكى والصهيونى العالمى .

وقد تبين من مراجعة المخططات التى جرى تنفيذها أن هناك إجحاف شديد بالشخصيات الإسلامية :

١ ـ ففى الوقت الذى عرض فيه الملك مينا فى ٩ صفحات ، لم يفسح للعصر النبوى كله إلا عشر صفحات .

٢ ـ وفى الوقت الذى عرض تاريخ نابليون وحملته على مصر فى ٢٠ صفحة لم يفسح لخالد بن الوليد إلا ستة أسطر .

٣ ـ كان التركيز على مساوىء الحكم العثمانى واضحا ، بينما لم ترد أى إشارة عن ايجابيات هذا الحكم ، وهكذا صور كفاح العرب وكأنه موجه ضد الخلافة العثمانية .

٤ ـ إلغاء مرحلة الخلافة العثمانية التى تزيد على أربعمائة سنة وقدم بدلا منها تاريخ أوربا السياسى .



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٩١٠ / ١٩٩٦م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١